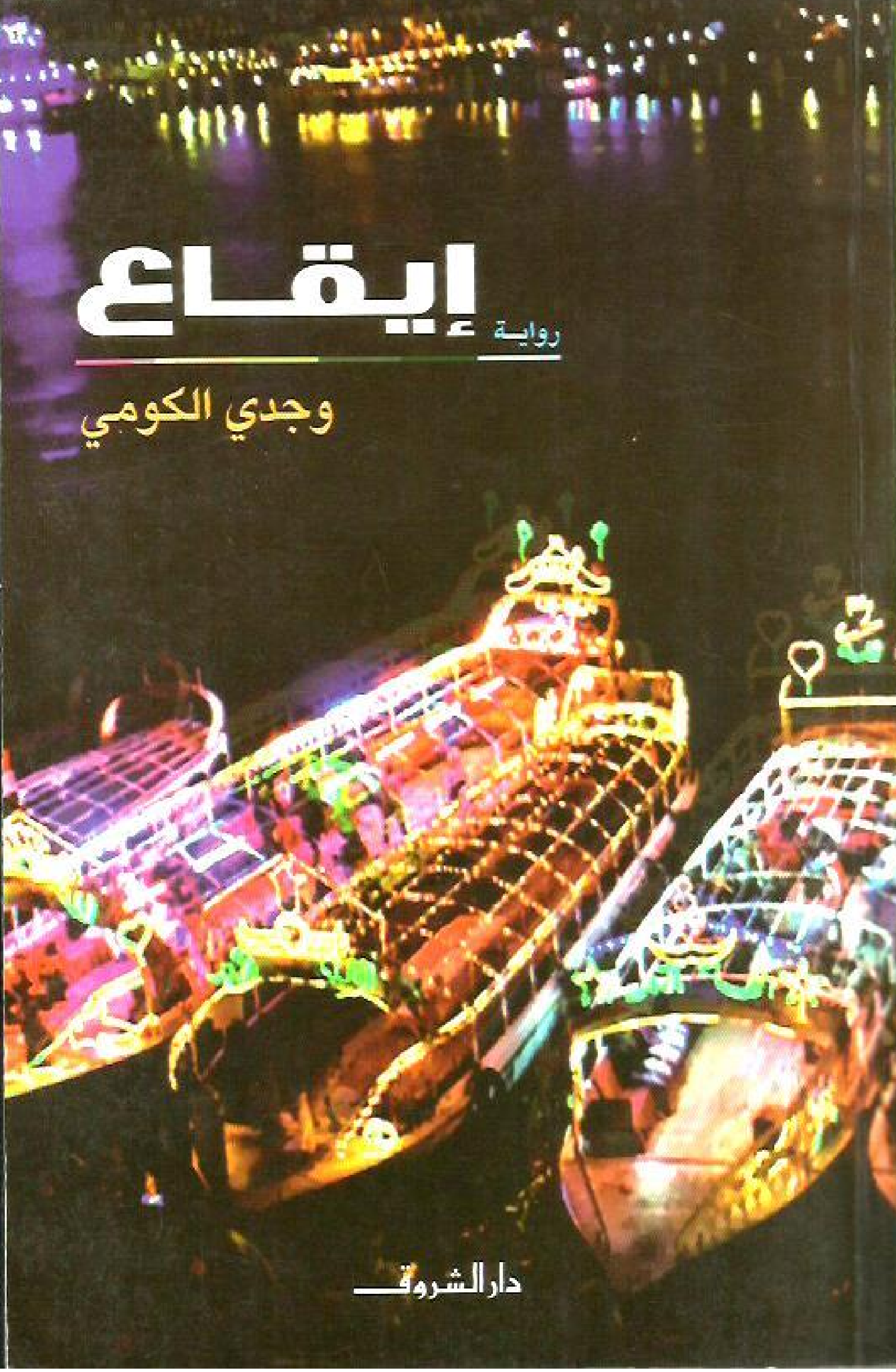

إيقاع

رواية

وجدي الكومي

دار الشروق

إيقاع

إيقـــاع

وجدي الكومي

تصميم الغلاف: وليد طاهـر

صورة الغلاف: حسام الحملاوي

الطبعـة الأولـى ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب/ روايـة

© دار الشروق

٨ شـارع سـيبويه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٦٦٨٨/ ٢٠١٤
ISBN 978-977-09-3336-7

وجدي الكومي

إيقـــاع

رواية

دار الشـروق

إلى الخواجة رالف؛
لما له من فضل في كشف
أسرار عزبة الوقف

سمحت إرادتنا أن نمنح خادمنا بقطر الجاولي وأفراد أسرته الصغيرة مشمول حدائق وفدادين عزبة الوقف البالغ مساحتها ألف ألف ذراع في بقعة من أروع بقاع الجيزة الغَنَّاء الواقعة بين سراياتَي أبنائي البرنسات حسن وحسين وأمام حقول وجنان وبساتين ابنتي البرنسيسة فاطمة، وهو الذي خدمنا طوال عمره ولم يطالب أبدا بزيادة راتبه، وعليه أوصي بمنحه ١٥٠ كيسا بمناسبة ميلاد طفلته الميمونة، وأدعو أبنائي ألا يتخلوا عن خدمته، فنعم الخادم الأمين.

خديوي مصر إسماعيل

يهرعون، يحملون قوائم بالأسماء، كأنهم يتأكدون أن أحدهم لم يهرب، سوف نبني سرايات هنا، في هذه المنطقة، وتلك، تفصل بينها حدائق ومتنزهات، سنقتطع مساحات السرايات، من الفدادين العديدة مترامية الأطراف. على عجل ذهب بعض الموظفين من أجل لقاء الأعيان من العائلات الكبيرة، التي كانت تمتلك الفدادين، طلبوا منهم توقيع حجج التنازل لصالح عائلة صاحب البلاد، متى كان ذلك؟ لا يهم متى كان، ولا يهم متى سينتهي المشروع، ولا يهم متى سيعود النازحون، حينما تبدأ المشروعات الكبرى، لا يهم أي شيء آخر، حتى تاريخ النزوح، أو حقوق النازحين، خاصة ذلك المشروع الذي سيربط الدقي بالأهرامات، إنه مشروع طموح، لا يجب أن تستوقفه العصافير، أو أي كائنات أخرى، دقت ساعة المشروعات.

بدأ قطع الأشجار في حماس، ظهرت سرايتان، بينهما عزبة شاسعة مترامية الأطراف، وسرايا ثالثة، يسكنها الرجل الكبير، بين السرايات الثلاث، حدائق غَنَّاء، تصلح مقرًّا جديدًا لسكن العصافير والطيور، عادت جميعا في سعادة ـ لكنها كانت عودة مؤقتة، والطيور تستسلم بسهولة للنزوح الجماعي المتكرر، ولا يهمها أي شيء، فهي كائنات حرة، لحسن الحظ.

بعد خمسين عامًا، اضطرت العصافير مرة أخرى لتغيير محل الإقامة، المشروعات لا تنتهي، كل خمسين عاما يحل أحدهم برغبة في رأسه، فتبدأ أعمال التهجير، وتتحرك المعدات، وتثقب الشوارع بلا رحمة في جبهاتها، هكذا هي هذه البقعة من الأرض، العصافير مع ذلك لا تستسلم، هي تملك إحداثيات الأرض والعلا، وتهاجر

قليلا لكنها تعود مرة أخرى بعد انتهاء المشروعات المزعومة، بدءوا في بناء مبانٍ عديدة، في الفدادين الزراعية المواجهة للسرايتين، العصافير والطيور لا تفقه ذلك، هي فقط تنتظر العودة لمساكنها، ظلت تائهة فترة طويلة، تتمتع بصبر هائل، داخل قلوبها الصغيرة، اضطرت بعدها لبناء أعشاش جديدة في الحدائق المتبقية من سرايا الرجل الكبير، تقلقها الحيوانات الكثيرة التي كانت تستعمر هذه الحدائق، لكنها اضطرت للرضوخ، لم تعد لأعشاشها القديمة، ارتضت بالأعشاش الجديدة، متى كان ذلك؟ لا يهم التاريخ، المهم أن هناك دائمًا مشاريع، وهناك دائما مخصصات يتم تسديدها في الدفاتر، خلال إنفاقها على هذه المشاريع. العصافير لا تعرف معنى كلمة تنمية، هي لا تفهم سوى أنها لا تجد أشجارها حينما يقرر أصحاب الأمر في البلاد شق طريق طويل، وسط الحدائق الغَنَّاء، أزالوا أشجارًا كثيرة في طريقهم إلى شق هذا الطريق، فصلوا بين الحدائق، جعلوها حديقتين، احتفل القوم بوضع تمثال ضخم.

لم تواجه العصافير أزمة كبرى من الجيران الجدد، الذين سكنوا الفدادين والأراضي الزراعية المترامية، بعضهم فقط قرر بناء مساكن من الطوب الأحمر، بدلا من البيوت المبنية بالطين، تحول لون المنطقة شيئا فشيئًا، كسا الغبار كل شيء، أوراق الشجر، وأسفلت الشوارع، التي جرى حفرها وإعادة تمهيدها عدة مرات، هكذا هي الشوارع مثل أوراق الشجر، لا تحن لأي ماضٍ يربطها بالغصون، تولد بلا ذاكرة، فيسهل تغييرها وتمهيدها أكثر من مرة دون أن تعترض، استوطن المنطقة أقوام آخرون، بعضهم فقراء، كانوا بحاجة للحماية، ظهر بينهم رجل ممتلئ باليقين، لا تساوره الشكوك

ولا الظنون، اطمأن إليه الخلق، ولجئوا إليه لحل معضلاتهم، من هنا استمد نفوذه، العصافير لا تقاوم، لأنها مجرد عصافير، فقط تضطر لتغيير محل الإقامة، كلما طرأ على أشجارها طارئ، أو أصابت أعشاشها مصائب جيرانها البشر، محبي المشروعات الكثيرة.

جرت عملية اقتحام شرسة، لمنطقة العصافير، التي صارت الآن محاصرة في الحديقة الكبيرة، المشهورة بأشجارها النادرة، المعركة محتدمة، الطرف الذي يدافع عن المنطقة في استماتة كان يهتف مستنجدا باسم شخص لا تعرفه العصافير، كان الشخص يسمى أحمد خريشة، لم يكن أهل المنطقة يملكون سوى الاستنجاد بهذا الشخص، أما العصافير، فدائمًا لديها حلول أخرى.

أحمد خريشة

١

ياما عشنا وشُفنا كتير
على الشباب ده موضوع خطير
اللي بيقطع في دراعه
واللي واخد برشام صراصير
يا بني فوق دا حرام عليك
بص في مراية وشوف عينيك
بكرة تقول الصحة راحت
طب ما هي كانت بين إيديك
مهرجان ـ عفاريت ـ وملوك ـ فيلو

أنا الذي قلت للخلق إن البلد ضاعت.. قلتها وأنا على يقين من ذلك وطالبتهم بالتوبة وكررتها عليهم مرارا: «توبوا بقى.. توبوا».. لكنني نسيت روحي، وسرت مع الرايجة، ودون أن أدري

تدحرجت هذه الروح في المعصرة، ودخلت الغابة وغادرتها من الناحية الأخرى مزودا بنابين ينهشان في لحم البشر.

ماذا حدث لك يا خريشة؟ كنت فنانا وعندك مكتب دي چي قد الدنيا، يتفوق على مكاتب دي چيهات المطرية ودار السلام، ماذا حصل لك يا فنان؟

نعم كنت فنانا، وكنت أحمي الحرفة من كل من هب ودب. شدّ نفسه وتجرأ وقرر أن يصبح مطرب مهرجانات، توهان توهان توهان.. إحنا بتوع المهرجانات، ولكنني مشيت في الزفة، وصرت أكبر كذاب، سحبت المطاوي والسلاح على ناس كانوا أحبابي وأصحابي وجيراني، بعدما اختلفنا، وفرقتنا السياسة، صرنا أعداء كأننا في فيلم من أفلام حرب أكتوبر.

سأحكي القصة من أولها، سأبدأ بمحاولاتي المستمرة في الدفاع عن المهنة من الصّيع وأولاد الكلب الديجيهات، وسائقي التكاتك ومطربي الراب، وكل الذين يتمنون السفر إلى أوربا، حينما يأتون إلى حجرتي للمرة الأولى، تراهم منكسرين مثل الولايا، يخشعون أبصارهم في البلاط ويتجشئون، ويبصقون، قبل أن تخرج أصوات خشنة من حناجرهم. «إحنا عارفين إنك أكبر معلم في المنطقة، سيرتك جايبة بين السرايات وأبو قتاتة، وواصلة للمنيب».

يعرفون أن تحت يدي ركب على الاستيدچ كل من فيفتي والسادات وكباكا، يقولون: «عاوزين نبقى زيهم».

تعبت يا حضرات.. تعبت فعلا من أجل مزيكتي، أكبر مكتب

مهرجانات ودي چي هو الذي أمتلكه في بين السرايات ذلك أكبر كثيرًا من أتخن مكتب دي چي في المطرية، يأتيني الصايع منهم، يتخيل نفسه من العتاولة لكن الحقيقة إن فَتاته هجرته، تزوجت رجلًا في عمر والدها، أو على أسوأ تقدير، اشتغلت راقصة درجة خامسة في مركب نيلي، يأتيني الحبّوب ويقرر أن يغني في الأفراح ويرقص فوق الاستيدچ.

هكذا تبدأ الحكاية، ضائعون يبحثون عن إيفكت الشهرة، سواء من كادر في فيلم ساقط أو من غنوة في مهرجان في أحد الأفراح، في الحالتين هناك عيل كتيان منكوش الشعر، تائه، أخفق أن يكون ديلر، فألقته الأرصفة المكسرة والمجاري الطافحة بينها إلى طريقي، إلى مملكتي بمعنى أصح، هنا في بين السرايات، صارت للمهرجانات معنى، تحولت المنطقة على يدي إلى إيفكت السعادة والنشوة، أنا هنا لا أمجد عصابتي كما يفعلون في دار السلام، لا أتفاخر في مهرجاناتي بمغامرات ضرب النار على الحكومة، أو توزيع البرشام عيني عينك عند الزوايا والنواصي، لا أكرر العبارات وأصيب جماهيري بالملل كما يفعلون وهم يحكون الحكايات، هنا وضعت بصمتي الخاصة على المهرجانات، صار للمهرجان معنى وحكاية جديدة.

لا يأتيني صاحب فرح، وأرده خائبًا أبدا، كما لا يأتيني ضيوف عشاق المهرجانات، وأجعلهم يمضون دون أن ينالوا مرادهم، لأنهم يحترمون المزيكا، وجب عليَّ أن أضعهم على رأسي، هذا هو سر نجاحي، واستمراري في المهنة، التي انضم لها حديثًا

مؤدون اشتهروا باللحن السهل السلس، يتجنبون الجمل الطويلة، ويركزون على القصيرة الرنانة، حاولوا منافستي قدر الإمكان، لا أنكر أنهم هبروا مني الكيكة، لكن في النهاية.. هناك زبون يحب ويقدر دائما المهرجانات، لا يأتي إلا من أجل البهجة.

زبائني يحترمونني دائمًا لأنني أراعي التقاليد والأصول، أحترم أطفالهم، ولا أخدش حياءهم، بألفاظ قذرة، أنا مش غلاط، لذلك تربعت بين السرايات على عرش ملوك المهرجانات، هنا الموسيقى محترمة، تراعي قيم الأسرة، وتراثنا، وحضارتنا؛ حضارة الجيزة، لكن المنطقة ضربتها العشوائيات والمجاري وديدان الزبالة التي لا يرفعها المحافظ ابن الوسخة.

تعبت، نعم تعبت حتى عملت للمنطقة حسًّا وذوقًا، انطبع اسمي على ظهر التكاتك التي تجري بـالمهرجانات، صرت ختمًا وعلامة في سوق صناع مطربي المهنة، مزيكتي في تكاتك أبو قتاتة، وإذا طارت التكاتك بأغاني مطربي المهرجانات، تنطبع شهادات النجاح، هل يجرؤ أحدهم أن يتطاول على منطقتي؟ هل يجرؤ أن يذمها، أو يعيبها، مثلما يفعل العيال الصغار في الأفراح الأخرى؟ هنا في بين السرايات الكل في أمان، أهالي المنطقة، وكذلك المترددون على الأفراح، حتى منظمو الحفلات في لندن وباريس يضعون اسمي على رأس قائمة المطربين إذا فكروا في تنظيم مهرجانات في بلادهم، أقولها بثقة، على مين على مين على مين، عالملوك المشاغبين كما يقول حبيبي فيلو.

ولكن ما الذي جرى بعد ذلك؟ كيف ضللت طريقي إلى

السياسة؟ ماذا سخطني هتّيفًا وحولني أراجوزًا في فراشة انتخابات؟ كنت أطرح السؤال على روحي كل صباح منذ أن نفضت البلد يدها مني، وأعطتني التطنيشة السليمة، منذ أن صادروا الميكسر وقفلوا مكتبي، وقبضوا على الولد حمدي بتهمة البلطجة، وهددوني بالناعم ألا أفتح فمي أو أتكلم في السياسة، هكذا يشكرونني بعد وقفتي بجوارهم، بعدما أيدتهم، وعملت لهم التحية المحترمة في الثورة.

الله يرحم أيامك يا حسني.. أقولها كل صبح، منذ فرح الوله سعد، منذ خمس سنوات، قبل أن ينقلب كياننا هكذا، جاء الوله سعد يقود سيارة أبهة، فوجئت بالوله دسوقي يميل على أذني، وهو يرص لي حجرين الشيشة: «سعد اتعرف على رقاصة كبيرة، بيرقص معاها يا حاج أحمد في الأفلام».

لحظتها لم أكن قد صرت هتيف الانتخابات، ودرع الدولة العميقة، أصلا لم أعرف كلمات من قبيل الدولة العميقة أو الدولة الغاطسة، كلمات جديدة تعلمناها كأنها مهرجان جديد، كنت لم أزل هادئ الأعصاب، لم أكتشف قدراتي الكامنة التي انطلقت على أشدها فيما بعد بسنوات، أتذكر وقتها رد فعلي على مجيء سعد المغنواتي إلى بين السرايات، أتذكره كأنه كان أمس، وليس من خمس سنوات، وقتها حدقت في قبة الجامعة، وقلت في نفسي متحسرًا: آه.. ولاد إمبارح بقم محاربين.. وإحنا يا محترفين.. قاعدين.

ثم نظرت نحو دسوقي، وقلت ناقما: «جاي يعمل إيه في بين السرايات؟».

لاحظ دسوقي فضولي، ألقيت السؤال بطريقة مفضوحة، الولد تدلل عليّ، وظل يداعب قطعة الفحم، في حجر الشيشة، عاجلته بصفعة على خده الطويل الناعم ـ كان وقتها ناعمًا قبل أن ينال بلية خرطوشة في معركة بين السرايات المشئومة ـ وأنا أصرخ. ما ترد يا ابن المقرّحة.

تراجع دسوقي وانكسرت عيناه نحو حذائي، قائلا بسرعة تخوفا من صفعة أخرى: مش عارف والله يا حاج.. حقك عليَّ.

نظرت إلى القهوة، وأنا أسترجع هذا كله، نظرت إلى خد دسوقي الذي زالت من عليه آثار صفعاتي وحلت محله بلية خرطوشة، أصابته في معركة بين السرايات الشهيرة، ضاق صدري فجأة، وأنا أحدق في الأرض أسفل قدمي التي برزت أصابعهما الكبيرة في الشبشب الجلدي، كل شيء ضاع؛ الميكسر، ومكتب الدي چي، وحمدي، وهيلماني، وهوجة الانتخابات، فقط بقيت بيوت بين السرايات كما هي، وزاد عليها كوبري مشاة جديد أمام الجامعة، ولافتات شهداء في كل شارع، بشريطة سوداء، وكلمتَي حداد، وأطماع واحدة ست وشيخ، نفسهم المنطقة تخلو من أهلها.

٢

في ٢٠٠٩ لم يختلف الحال كثيرًا، نفس العشوائيات الحزينة تلمنا ولا تحنو علينا، نعيش مثل البراغيث في بيوت بعضها عشوائي، وبعضها متراصّ كما لو كانت محشورة حشرا، حسبو

في محله يعقد الصفقات، ويبيع بيوت الخلق والناس، البلد لم يعد لها أب، صارت لقيطة في دار أيتام، العاطفة غلبتني، عطفت على أهل منطقتي وجيراني، بيوتهم دخلتها بيتًا بيتًا، حتى اعتدت أهلها واعتادوني، أعرف الولاد، وأعرف الرجال، وجلست لأتناول العشاء آلاف المرات مع العائلات في بين السرايات، حيطان البيوت تعرفني، اتكأت على معظمها، أنا أحمد خريشة، صاحب المنجهة والسعادة، واللطافة، يتوددون إليَّ ويستضيفونني على موائد أفراحهم، وأحزانهم، وهم يعرفون أنني أقرب إليهم كآبائهم، أو كأجدادهم، انطبع اسمي في كل البيوت؛ في بيت الحاج عثمان، الصغير الواقع على أول شارع السُّكري، أحفظ كل بقعة في البيت، دخلته عشرات المرات، أول مرة دخلته، حينما أنجب الحاج أكبر أبنائه حسين، كان البيت كبيرًا، يعيش فيه الحاج، وزوجه، وحسين ثم لم يلبث أن ضاق عليهم، بعدما أنجب عثمان، ويوسف وثريا وسليمان، كبر العيال، مات الحاج، لم أتركهم في هذه اللحظات الصعبة، في الدفنة والخارجة، أقف دائمًا في هذه اللحظات كأنني الشقيق الأكبر لأبناء المتوفى، أتلقى العزاء، أشارك في دفع نقود المقرئ والفراشة، وإكراميات عمال القهوة والشاي، بالإضافة لإطعام أهل المتوفى، ودائمًا يحفظون لي هذا الجميل.

مثل بيت الحاج عثمان، دخلت بيت الولد دسوقي، بعدما هجر أبوه أمه، رعيت الولية المطلقة، بما يرضي الله، لم يوسوس لي الشيطان أن أمسسها يومًا، على الرغم من أنها حتة، آه والله حتة، الست في عز شبابها، كيف يتركها الرجل ويطاوع الموت ويذهب معه، حتى هي لم تعرض عليّ نفسها، حاشا لله، كانت تسكن

شقة عالية فوق السطوح، أزورها بالمرور أسفل البيت المتهدم، تنزل هي ملفوفة بالطرحة، وتأخذ المعلوم والمقسوم، وكله ببركة المهرجانات، ساهمت في تربية وتعليم ابنها دسوقي حتى كبر واشتد ظهره، وعمل صبي قهوجي قد الدنيا في القهوة المواجهة للجامعة، على ناصية شارع أبو لبنة هناك يتجمع الطلاب ظهرًا ويشربون البانجو، أعرف أنشطة دسوقي السرية، وأغض عنها الطرف.. هيعمل إيه؟! ما العيشة تقرف و«مخبرين المديرية» مش راحمين، يطاردون الديليرية، ويغض رؤساؤهم أعينهم عن حسبو وشيخه التلفزيوني بينما يعقدان صفقات مشبوهة لبيع شقق وبيوت بين السرايات.

اليوم الذي دخل فيه سعد المنطقة، سألت دسوقي عن الحكاية، غاب ليستفسر، كنت أشرب فنجان القهوة المخلوطة بالقرفة والجنزبيل، أشربها مغلية بدون وش، هكذا أبدأ يومي في الصباح، الذي ينتهي عادة إما في فرح، في عزاء، وإما في حل مشكلة بين زوجين بالحي، الكل يلجأ لي، كنت أزوّجهم، وأشرف بنفسي على أفراحهم، ويستدعونني لحل مشاكلهم كأنني سببها، فأتدخل رغما عنهم في أدق أسرارهم، وأخطر أمور حياتهم، بل أحيانا يطلبون مشورتي في اختيار أسماء أبنائهم، من هنا وطأت قدمي كل بيت في بين السرايات وصار لي حق وعشم في كل أسرة، انقبض قلبي حقًّا بما أخبرني به دسوقي هذا الصباح، حينما عاد ومعه الحكاية.

انقبض قلبي حينما علمت أن شكري المحامي لجأ لسعد المطرب لإحياء فرح نجله على الممرضة التي تسكن مع أهلها آخر

شارع المرور، انقبضت ملامحي أيضًا، قلت للولد دسوقي: معاك تليفونه؟ لازم أحط عليه.

تراجع دسوقي محاذرًا صفعة أخرى، كانت ملامحي المنقبضة من شدة الغضب قد تغضنت فجأة، مرق خدر في خدي الأيسر آلمني بضع لحظات، كأن عروق وجهي تنقبض غضبا، انفعال مارد داخلي أخذ يشتعل، ممن سأحمي مزيكتي؟ من حسبو وجماعته اللي بيبيعوا ويشتروا في الخلق، ولّا من ولاد المحرّقة الصيع الجدد؟ أم من الناس القطط الذين لا يقدرون الفن الحقيقي؟ قلت بصوت مسموع: آه يا قطط.. هو عشان أنا حاسس بيكم.. تسترخصوا فني كده؟! كنت أغمغم بالعبارة في سخط مكتوم، أحدث نفسي: أعمل عشانكم كل اللي باعمله، وآخرتها تطلقوا في أفراحكم كلاب النايل سات ليركبوا الاستيدج، وتهجروا فني أنا.. أنا اللي اخترعت المهرجان، وحفرت اسمي في كل إيفكت وبيز، ولّا هو عشان أنا مهاود وعلى قد جيبكم!

شعرت بنار داخل جمجمتي الضيقة، أشعر بعظام رأسي تتوجع من نار غيظي، ضقت بالخلق مثلما ضاقت شوارع بين السرايات بهم، ناس ناكرو الجميل، نظرت إلى كوب القهوة المخلوط بالقرفة والجنزبيل، وثبتْ رغبة مفاجئة في دلقها، فأمسكتها في حرقة وقذفتها في الأرض، تحطم وتناثر زجاجها بالقرب من المارة الذين نظروا نحوي في استنكار، فيما هب جاري عبد الله واقترب مني في هلع قائلا: خير.. مالك يا أحمد؟ مالك يا حج؟

عاجلني الضيق بعدما اقترب مني عبد الله وربت على كتفي،

شعرت بثقل كفه، ظفرت في حنق، وقلت: ولا تشغل بالك يا عبد الله.. إزي الواد هاني؟ هيعمل إيفكت إمتى؟

انتهزها عبد الله فرصة، وجذب مقعده، وجاورني وهو يقول: والله بيسلم عليك.. لو تشوف له مصلحة معاك.. ما هو مش هيقدر يدخل على البت إلا وهو ماسك مصلحة يا حجيج.. ولّا إيه؟

تظاهرت بالتفكير العميق، وبالشرود، بينما داخلي حيرة عظيمة، عبد الله يرغب في تزويج نجله هاني والولد عاطل، كنت أسأله عن موعد دخلته حينما قلت: هيعمل إيفكت إمتى؟ إيفكت عندي هو كل شيء، هو الصوت المعدني الذي يتردد في لوب تراكات المهرجانات، المؤثر الصوتي الذي يضفي على صوت مغنى المهرجانات المتحشرج، صخبا وسرعة، وهو أكبر دلالة على أن الحياة تتجدد، وفيها شيء ينمو، إذا تزوج أحدهم فهو بالنسبة لي لعب إيفكت في سكة الحلال، وإذا نجح أحدهم في شهادته بمجموع كبير، فقد لعب إيفكت في سكة مستقبله، لكنني كنت أضيق ذرعًا بمن يطلب مساعدتي في إيفكت يخصه، كأنهم يضعون رقابهم تحت عجلة القطار، الولد هاني ليس لديه مصدر دخل، كدت أن أقول: طب ما تأجلوا الجوازة دي اللي عاملة زي الورطة، لكنني تراجعت، وظللت مقطبًا جبيني، متظاهرًا بالتفكير، كأنني أبحث في أجندة رأسي عن نمرة تليفون شخص مهم.

أي مصلحة تنفعه معي؟ أشغله عتالًا للأجهزة والسماعات؟ ولّا أقعده على دي چي؟ همست كأنني أطلب مشورته، تراجع محاولا أن يواري استنكاره واشمئزازه من طريقة تفكيري. عتال إيه بس

يا خريشة.. باقول لك الواد داخل على دنيا جديدة.. تروح تقعده مع الحشاشين اللي معاك.

شعرت بالأسى لكلماته، فعلا جرحني، جرحني جرحًا عظيمًا، يطلب مني أن أساعده في توظيف الولد، ويسبني، ويحتقرني، كدت ألتفت له وأقذفه بالكوب الآخر، رمقته في نظرة نارية، كدت أقول: هو أنا فاتح مكتب محامين ووكلاء نيابة؟ لكنه سبقني ونهض متأففًا، ظللت أرمقه محتدًّا وأنا لا أعرف كيف أرد على ما قاله.

عاد الولد دسوقي بغتة، مد لي تليفونه المحمول برقم شكري المحامي، ضربت الرقم على تليفوني، جاءني صوت الرجل، قلت في حدة: صباح الفل يا عم شكري.. ألف مبروك على الفرح ويجعلها ليلة مباركة.. بس يدخل منطقتي مؤدي مش من الاستوديو بتاعي وغريب على مزيكتي، ده اللي لا يمكن أقبله ولا فني يرضاه.. دي إهانة.. باقول لك إيه.. تحب أسحب السكاكين على رقبة المغني اللي انت جايبه ده؟ مش عاوز أطرطش لك لون أحمر في الليلة المباركة دي.. أنا أستاذ غلاسة.

كنت أضطر للتوقف بين كل جملة وجملة، ليس لا سمح الله لمنحه فرصة ليعقب على ما أقول، إنما لأتأكد أنه سمع كلماتي كلمة كلمة، ولألتقط أنفاسي، قلت: باقول لك إيه.. لو المحروس ابنك عاوز يجيب سعد الرقاص، يجيبه في قاعة شيك.. على النيل.. هو ده الإيفكت اللي يليق بيه، إنما يجيبه هنا في منطقتي. فدا إيفكت مش حلو منك يا شكري...

قاطعني قائلا: قاعة شيك إيه يا حج خريشة.. أنت ناسي؟!

ما أنت عارف البير، اللي رهنت غطاه، أنا هجيب منين؟ جوازة الواد نفضتني.

بادرته في غضب أشد: باقول لك إيه يا شكري.. حد قالك إني باضرب برشام صراصير؟ لؤم المحامين ده في المحاكم على البهوات القضاة.. مش عليَّ.. أنا عالم بالحال، وعارف القرشين اللي انت مخبيهم من ورا المذكرات اللي بتكتبها لمكاتب المحامين والتعويضات اللي بتحشها في كرشك، منين حالك تعبان.. ومنين رايح تجري تجيب الواد سعد الرقاص يمسك استيدچ.. باقول لك.. هم كلمتين.. عاوز تجيبه.. تديني أجرته أنا كمان؟! كأنك جبت مؤدي مهرجانات من الاستوديو بتاعي.. ودي آخرة القول.. وهيبقى ليك مني أحلى إيفكت، وإلا هاسحب فِيَش المنطقة في الليلة الموعودة وهتولعوا شموع.

٣

أنا لم أكن بلطجيًّا، ولم أفرض كارتة في موقف سيرفيس ولا يهمني أن يجلب شكري سعد الرقاص.. مش ده الإيفكت اللي يضايقني.

لا يهمني أن يخرج عن طوعي كما أحببت أن يشعر.. هو وغيره، كل ما يهمني.. أن يتوقف هذا النهر الجارف من حولي.. الدنيا تتغير بأقصى سرعة، تريني أقسى إيفكت.. مكتبات بين السرايات تتحول إلى محلات السندوتشات السريعة، كبار رجال الأعمال جاءوا

هنا واستعمروا المنطقة ليضموها إلى مستعمراتهم في المهندسين والدقي، ففتحوا قبالة الجامعة فروعًا من مطاعمهم الشيك، محلات الفول والطعمية وعربات الفول تراجعت وضربها إيفكت الكساد، حتى طلبة الجامعة تغيروا وصاروا يغشون بالإس إم إس والتويتر، أحوالنا تبدلت، ولن أسمح لأحد أن يمس مزيكتي، أو يعتدي عليها بمزيكا منافسة تهرسنا كبطاطس البوريه، مطاعم الكشري والفول تراجعت أمام المطاعم الأمريكية، التي تفرض ذوقها في المانيو، كأنها تدس السم في العسل، خاصة أنها تفرض معها لغة وأسماء إفرنجية مختلفة عن ذوقنا وطبعنا، وحينما تجلس لتأكل في أحدها، ستسمع موسيقى سمجة صايصة مثل أكلهم الذي تعده ماكينات معدنية جامدة ذات أسطح لامعة وطاهرة تتحدى الميكروبات، لذلك كنت بحاجة باستمرار لتأكيد وجودي في المنطقة، المنطقة التي أخذت تتمدد أسفلي، بينما أكبر في السن، وحركتي تقل، مش حلو الإيفكت ده يا دنيا.. لكنني ما زلت أشعر بطاقة متدفقة في عروقي، كنت أختبر هذا يوميًّا مع أم فتحي، لم تخب ظنوني في نفسي، لكنني كنت أزداد عنفا، مثل ضربات البيز في السماعات، حتى بدأت أم فتحي تزهد في الفراش، تسبقني إليه، أو تتعلل بتوعك مستمر، فوجدت نفسي في المهرجانات، كان الشباب أكبر محفز لي، لكنهم في النهاية يضيعون أنفسهم في دخان الحشيش، حد الله بيني وبينه، دائما كنت على ثقة أنه يدمر خلايا المخ، لم أتعاطاه مطلقا، لم أقرب أي نوع من أدوية الجدول، بالعكس، كنت أحرص كل يومين على تناول العكاوي والمخاصي، أكلتي المفضلة، ويا لها من أكلة، لن أسمح للخرف أن يتسلل إلى ذهني،

هكذا كنت أفكر دائمًا، كنت أحمي طبلة أذني من أن تؤذيها طبلة السماعات الضخمة، أو ضربات البيز المتلاحقة، بوضع سدادات بلاستيكية محكمة، هكذا أعطيت دماغي عمرًا أطول.

لكنني كنت بحاجة لمكانة ما هنا بين أهل المنطقة؛ لذلك كانت المزيكا هي عصاي، عصاي التي سحرتهم بها، المهرجان هو ثورة على الفوضى والعشوائية القائمة، من القائل إنه لا يفل الحديد إلا الحديد؟ اسمحوا لي أن أقول إيفكت جديدًا.. لا يفل العشوائية إلا العشوائية، المهرجان طابع المقاومة الوحيد الذي يصمد في وجه التغيير الذي ضربنا، كيف تسمع أم كلثوم هذه الأيام بدون أن تضفي عليها إيفكت سريعًا وشقيًّا: يا أغلى من أيامي.. خدني لحنانك خدني، جرب أن تسمع هذا المقطع في مهرجان.

المهرجان بالنسبة لي هو الإزعاج المناسب الذي أستطيع أن أرد به على إهمالهم للمجاري الطافحة في شوارعنا، والأسفلت المغشوش الذي يتشقق ويتآكل بعد شهور من السفلتة، ومواسير المياه الصدئة، والإهانات اليومية مع شراء العيش، تركونا نقف في طوابير المعاشات وننام في عطنة المجاري، فأطلقنا عليهم ضربات البيز، المهرجانات أفضل للشباب من أن يعبثوا طوال الليل مع أعضائهم، وإهدار مائهم على أفلام الفيديو، ومن بعدها السيديهات والمواقع، أليس من الأفضل لهم تفريغ قوتهم في الرقص على إيقاع المهرجانات الصاخب، بعدما أممت الحكومة الكوَر الشراب، والساحات الشعبية؟

المنطقة كل يوم تتبدل، تتحول، الناس انقطعت عن التزاور، كفوا

عن إرسال أطباق «المهلبية وعاشورا» في المناسبات والمواسم، حل محلها رسائل إس إم إس في الأعياد، زفرت في حنق، وأنا أقول هذه العبارة بصوت عالٍ، فوجئت بأهالي بين السرايات يكتبون عبارات دينية متوعدة على لافتات أسماء الشوارع، على يافطة شارع الخضري سلطان كتبوا عبارة: «صلي وتوب تطرح البركة في دنياك»، وعلى يافطة شارع الوكيل كتبوا: «الحجاب عفة وطهارة»، وعلى يافطة شارع حسين جاويش، كتبوا: «النظرة سهم من سهام إبليس»... وهكذا على كل يفط شوارع بين السرايات، ما بين شارع السُّكري المؤدي إلى منطقة الطوبجي، إلى شارع المرور الموازي لكلية العلاج الطبيعي، تطل فوق رأسك وأمام عينيك عبارات الوعظ، الاستشياخ لم يتوقف عند منابت ذقونهم، وعظ ديني مستمر على الحيطان وعلى يفط الشوارع، تبدل حال أصحاب المكتبات، الذين كانوا أصدقائي يومًا، تبدلوا أولا بتغيير ملابسهم، هجروا القمصان والبنطلونات، حلت محلها الجلاليب البيضاء، كنت أراهم يتحولون شيئًا فشيئًا إلى اللحية والزبيبة، والهالات السوداء حول الأعين، كأنهم يهربون من دنياهم إلى كهف، أطلقوا في البداية لحاهم، ثم هجروا ملابسنا العادية، وبدءوا يرتدون الجلاليب القصيرة، ظهرت ألوان رمادية على ملامحهم، تضخمت أجسادهم بغتة، يقولون إن الله زادهم بسطة في الجسم، لكن أجسامهم كانت تتضخم بحرصهم المتزايد على الأكل ووصفات العطارة للمضاجعات الطويلة، صارت هذه هي الرياضات التي يتبارون فيها، ويتداولون الوصفات كأنها أحجبة، جاري عبد الله الذي كان يرجوني لتوفير مصلحة لابنه، واحد منهم، كنا نتحسس معًا أصابع

الطالبات خلسة في شبابنا، بينما نبيع لهن الملازم، ونتسابق على ملاحقتهن ومواعدتهن، وأكثر من ذلك، جمعتنا حجرات في بيوت سرية في أبو قتاتة كنا نتردد عليها بانتظام كل خميس، ماذا حدث لعبد الله، تبدلت أحواله فجأة بعدما عمل سائقا في الجزائر، عاد شيخا وهو لم يتعد الثلاثين، حكى لي قصة تعرُّفه على جماعات متدينة هناك، ثم مدَّني بكتيبات عن عذاب القبر، طالبني أن أكف عن التردد على شارع الهرم، وقتها كنت أتمنى أن أفوز بدقائق على استيدچ أحد الكازينوهات، ازداد هو تشددا، وبحث عمن يشبهه، فيما ازددت أنا إصرارًا على الغناء، وتأسيس باند.

إنهم لا يفهمون، الرقص والغناء في الدين، هذا مؤكد، يُصلون في جمود كأنهم يؤدون واجبًا ثقيلًا، يحتاجونه لتسيير أعمالهم، يصلون ليس من أجل آخرتهم، بل من أجل البزنس؛ إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان وأودع أموالك في خزائنه من أجل فائدة أكبر من فائدة البنوك، وانتخبه إذا ترشح للانتخابات عن الدائرة.

حسنا يا مؤمنين، نحن أيضا نصلي، ونتمايل في صلاتنا وتهتز أطرافنا، حتى في الركوع والسجود، أليس هذا نوعًا من أنواع الإيفكت؟ هذا ما أفعله في المهرجان، هم يركعون ويسجدون، ويتمايلون ويهتزون في ليالي الذكر، ويكادون ينشدون الأغنية، أنا أرقص مع فتياني في المهرجان، رقصات أقرب للصلاة، أخشع فيها، كأنني أقبل على الله، كأنني أدخل مسجدًا، أو أتعبد في دائرة ذِكر، فتياني طوروا الرقص، صاروا يرقصون بصحبة

المطاوي، لم أكن مرحبًا في البداية بهذا التطوير، لكنني أردت أن أترك لهم مساحة من الحرية، ستظل لي مكانتي وهيمنتي، كان من الطبيعي أن يقبل الشباب على مزيكتي ويلتحقوا بجلسات الرقص والتدريب، في الوقت الذي تآكلت فيه مساحات المتعة القديمة التي كانت تشكل أكبر لهوهم، فالشيوخ الجدد، أصحاب المكتبات، قرروا منع ترابيزات البنج بونج التي كانت منتشرة في حارات بين السرايات، الناس عاوزة منا إيه؟ هكذا كنت أغمغم لنفسي، مش هتّوبوا؟ انتهت إلى الأبد المتعة الوحيدة التي تربينا عليها، تآكلت مع متع أخرى، منها اللعب في الشوارع، ماتشات الكرة، مسابقات الملاكمة.

الأولاد الصغار حبسوا أرواحهم في صالات البلاي ستيشن، والكمبيوتر، بعدما نشأنا في الساحات الشعبية التي يتنافس فيها الرياضيون والملاكمون، انتهت للأبد فرصة أن يذهب أحدهم لبيت حسبو الذي خصص إحدى حجراته لرفع الأثقال، حسبو نفسه انضم لجماعة طلبت منه تغيير نشاطه، فافتتح مكتب عملة، كان أول مكتب عملة يتم افتتاحه في بين السرايات، يعني هو ده اللي كان ناقص المنطقة؟ من أين لك هذا يا حسبو؟ سأله أحد الشباب عندي، فأجاب في غموض: الله يبارك لهم.. ولم يعقب، تهامست ستات المنطقة عن رجال أغراب يزورون حسبو يحملون حقائب سفر، تطايرت كلمة غسيل أموال من فم أحدهم، لم أفهم، قلت لنفسي وأنا أراه يعلق لافتة أعلى المحل كتب عليها «صرافة القدس»: وهو بيروح القدس يغسل ويرجع؟ أنا مش فاهم الإيفكت، وهل سأترك نفسي للحيرة وأنا صانع البهجة؟ سألت واستفسرت،

وفهمت، لكنني لم أفهم لماذا يطلق على مكتبه «صرافة القدس».. مالها بين السرايات؟

٤

المختصر المفيد.. بصوا يا شباب.. هتحبسوا نفسكو هنا في الأوضة بالأيام والأسابيع.. هنعمل أحسن إيفكت.. مش هنسيب روحنا تتكتف بكيفهم، اللهم إننا مش هنغني ولا هنعمل حاجة عليها العين.

كنت أقول هذا الكلام لثلاثة شباب من المطرية، سمعتهم أول مرة في فرح يخص أحد نواب الحزب الوطني في شارع المسلة، طلع الشباب على الاستيدچ، وغنوا أغنية ضد الطائفية، هاج وماج الخلق، قابلتهم وقررت أشتغل معهم، وكان، لبوا دعوتي، وشرفوني في الاستوديو، كان الولد دسوقي قد ترك القهوة، وجاء يكنس لي الأوضة، ثم وقف يتفرج على حمدي بينما يسجل حلقة على يوتيوب عن برنامج «فروتي لوبس»، الذي نستخدمه في ضبط إيقاعات اللوب أو التراكات.

حمدي هو أول ولد عثرت عليه في حكاية المهرجانات، كان يعمل على توزيع نغمات بولوفونيك على الكمبيوتر في السنترال الواقع على الناصية، التقطته، قلت له ذات مرة: طالما أنت شاطر في التعامل مع البرامج، أكيد تعرف برنامج «الفروتي لوبس».

نظر لي نظرة بلهاء، كأنني قلت له سأصحبك إلى المريخ، وقتها كانت دقيقة المحمول بخمسة وسبعين قرشا، متى كان ذلك؟ غالبا

منذ خمس سنين، سنة ٢٠٠٨، المهم جاء حمدي إلى الأوضة، ثم بدأ يتعلم العمل على «الفروتي لوبس»، أنتجنا معًا أفضل تراكات، لكن كان ينقصنا الأولاد الموهوبون، والكلمات المختلفة، والمؤدون الشطار، ما إن بدأ حمدي يتعامل على البرنامج، حتى أطلق على نفسه اسم حمدي ميكس، نجح الولد في فك شفرات البرنامج، توصل إلى المؤثرات المختلفة التي يحويها: البيز، والضجة، والصاجات، ومؤثرات السحب والتارة والمزيكا.

جلست بجواره ذات مرة، ففوجئت به وقد بدأ يسجل حلقات دروس توزيع مهرجانات على يوتيوب، واشتهرت صفحته، كان يقول لمتابعيه على الموقع. اعملوا لي لايك وصاب سكرايب، كنت أضحك في صمت، وأنا أراه يتألق، لكنه ظل حبيس الأوضة، لم يجد المهنة الجديدة عبئًا، في صبر واصل تعليم الشباب ما تعلمه، فبدأ يكسب حينما تلقى مكالمات من مؤدين لتوزيع مهرجاناتهم، أشهر هذه المهرجانات التي وزعها حمدي ميكس، كانت لمجموعة من الشباب غنوا مهرجانًا شهيرًا اسمه «صحوبية جت بندامة»، كلماته تقول:

ياما ياما ياما.. صحوبية جت بندامة

خلولي في قلبي علامة.. نسوني الابتسامة

شفت أصحاب أشكال وألوان.. مالأتش منهم أي أمان

أنا كنت ماشي ع الطريق.. شفت أصحاب بيضروا صديق

قال لي يومها: هذا المهرجان كتبه شاب اسمه السادات من مدينة

السلام، واشتهر وبقى أشهر «بيز» تسمعه في التكاتك والسرفيس، أظنه بيغنوه في طابور الصباح في المدارس اليومين دول.

جلس الشبان الثلاثة معي أنا وحمدي في الاستوديو، أحدهم كان قبطيًّا ويدعى جوجو، ظننته سبب الأغنية التي سمعتها منهم في المطرية، قلت لهم وأنا أتحسس كلامي: إحنا ممكن ناخد كلمات المهرجان ده، ونضيف لها، أو نغنيها زي ما هي.. كده كده الموضوع مشاع.. ماحدش هيدور علينا.. وده أحلى إيفكت.

نظروا لي في حيرة، قال أحدهم. إحنا مش عاوزين نعبي أسطوانات ولا كاسيت، ولا شركة إنتاج تنتج لنا، إحنا بس عاوزين نغني، نمسك استيدج.

قلت لهم وحديثهم يبهجني: كلنا عاوزين الإيفكتّ ده.. إحنا مش بتوع شهرة.. إحنا بتوع سعادة وبهجة.. بس الناس تتوب وتبطل مظهرة كدابة.

بدأنا معًا نستعد للفرح الذي سيغني فيه الولد سعد، شعرت أنني بحاجة لفرض أسلوبي، ومزيكتي، أنا أرخص من سعد وأجود وأحسن منه، موسيقاي زلزال، وإيقاعها أشبه بمطحنة الطعمية، أما هو، فأنا أعرف ماذا سيفعل في الحفل، سيرقص مع الرقاصة، ويحاول أن يهيّج البشر، عارفه، وسخ من يومه.

قال لي أحد الشباب الثلاثة: لا مؤاخذة يعني يا عم خريشة.. إحنا جايين من بعيد.. وكده كده عندنا استوديو دي جي في منطقتنا.. في المطرية، وعاوزين نعمل لروحنا هناك أرضية، وبصراحة بصراحة.. إحنا حابين نغني فيها وفي الأميرية، مش هنشرق، ولا هنغرب.. إيه اللي يجيبنا الجيزة؟

قلت له مزمجرًا: ليه بقى كده الإيفكت ده؟ الجيزة هنا أصل الحضارة.. والجنينة قدامك أهيه.. عندك إيه يا بني في المطرية غير المسلة؟ ثم إن الفرح اللي هنغني فيه.. هيحضره واد مشهور، ولو غطيتوا عليه في الليلة، وركبتوه فوق الاستيدْچ، هتتعِرفوا، وهتشوفوا أحلى إيفكت في حياتكم، ولّا إيه؟

تبادلوا نظرات مرتابة مترددة، فشوشرت على أفكارهم بقولي: صدقوني هنا هتعملوا أحلى إيفكت، بدل ما الناس تفتكركوا بتغنوا أغاني طائفية والبلد مش ناقصة يا ولاد، البلد ضاعت.. توبوا بقى.. توبوا واسمعوا الكلام.

كدت أسبهم بكلمتي المعتادة يا ولاد المقرّحة، لكنني أمسكت لساني، تبادلوا النظرات الحائرة، ثم قال أحدهم ـ وكان يسمى إيهاب تكنو. ماشي موافقين.. بس مش هنغني المهرجان ده.. هنألف كلماتنا إحنا.. إدينا فرصتنا.

قلت محذرًا: بس مش عاوز طائفية.. مش عاوزين نهيج الدبابير.. المديرية جنبنا، اصبروا على نفسكم شوية.

٥

نجحوا الولاد.

ركبوا على سعد فوق الاستيدچ، غنوا مهرجانات بديعة، زلزلت بين السرايات، لكن غمني، هذان الشخصان اللذان دخلا الفرح، كانت ملامحهما تشي بغربتهما، ملابسهما تفضح انتماءهما لطبقة

ناس مرتاحة، رجل والحتة بتاعته، لم يلفت نظري مظهرهما، ولم يكن هو ما غمني، بل ما فعلته المرأة، بكت، انهمرت دموعها تحمل كحل عينيها فبدت كمسخ، لماذا تبكي الحتة؟ كان السؤال الذي طرحته على دسوقي، فالتفت إليهما مستغربا، ثم تحرك نحوهما، فبادرته: بصنعة لطافة.. واوعى تضايق الحتة أو تكلمها.

انصاع الولد لنصيحتي، وجه حديثه للرجل بعدما اقترب منهما، ووضع كفه على كتفه، وأشار له نحوي، فجاء الرجل تاركًا زوجته تتأمل مسخرة سعد مع الراقصة، ما إن اقترب مني حتى فاحت منه رائحة عطره القوية، تأملت ملامحه وملابسه بحسد، قبل أن أقول في ابتسامة واسعة: أهلا وسهلا.. بتدوروا على حد؟

ارتبك الرجل، وقال متلعثما: لا أبدا.. إحنا تايهين.

فواصلت بنفس الابتسامة التي تخفي خلفها إيفكت الحيرة: طب خير المدام مالها.. حد مزعلها؟ قال مترددا: أنا آسف لو كنا أزعجناكم.. بس المدام ممكن تكون بس...

ولم يجد ما يقوله فساعدته: افتكرت حد عزيز؟ ولّا ضايقتها مسخرة المطرب مع الرقاصة؟

قال الرجل كأنه يلتقط حبل النجاة: نعم.. هي فعلا لسه مودعة حد عزيز عليها من يومين.. يعني مش متخيلة إن الدنيا لسه ماشية والناس بتفرح وهي حزينة.

تراجعت متظاهرا بتصديق الكذبة، غادرًا، بينما الست تودعني بنظرة مقت وكراهية، أو هكذا فسرتها، المهم، عدت لمهرجاناتي،

ونسيت الحكاية تماما، حتى شاهدت المرأة بعدها بشهرين، كنت قد نسيت ملامحها، لكنني تذكرتها فجأة، حينما جاءني الولد دسوقي أسفل البيت، ووقف أمام مدخل الاستوديو، كنت أشرب الشاي مع إيهاب تكنو وحمدي ميكس، ونبتكر تراكات جديدة، هتف الولد دسوقي مناديا: يا عم أحمد.. عم أحمد.

أطللت عليه من البلكونة الضيقة المطلة على الحارة: خير ياض؟

قال: الحتة دي عاوزاك يا عم أحمد.

وهو يشير إلى المرأة التي كانت تبكي دموع الكحل، كانت تقف وبحوزتها أوراق، قلت لها: اتفضلي.

هزت رأسها مرتين ثم خاطبت دسوقي بكلمة، فرفع لي الولد رأسه وقال. بتقول لك إنها مش هتقدر تطلع.. هي عاوزاك تنزل.

نزلت: خير يا ست الكل؟ قلتها حينما تقدمت نحوها، أتأمل ملامحها، الدنيا كانت بردًا، لكنها ترتدي ملابس خفيفة، قالت لي في خفوت: أنت معروف هنا، فكرت أطلب مساعدتك.

قلت لها في حماس. إنتِ تؤمري.. يا سلام.. إحنا نحب نخدم بأي إيفكت.. أؤمري.

همست: تعرف منطقة قديمة هنا كان اسمها زمان.. عزبة الوقف؟

ملت برأسي إلى الخلف، وأنا أعيد تأمل تقاطيعها: أنفها المدبب، ملامحها الجميلة، جسدها الممتلئ، صدرها البارز، ملابسها الخفيفة التي لا تتناسب مع الجو البارد، لم أتعود على تفحص الحتت لكنني

أحيانًا أنسى نفسي، قلت متظاهرًا بالتفكير، وأنا أتأملها «من ساسها لراسها» في طمع: الحقيقة يا ست الكل.. لو تقولي لي بس اللي وصفها لك.. قال لك فين، يمكن تكون في أبو قتاتة؟

قالت في تردد وهي تتحسس أوراقًا ملفوفة في جعبتها، كأنها تستمد منها الثقة في نفسها: قال لي هنا.. في بين السرايات.. بص في الحقيقة يمكن أنت ما تعرفهاش، لأنك مش كبير قوي، المنطقة اللي بادور عليها قديمة جدا، يمكن لو فيه حد أقدم منك في المنطقة، يعرفها أكتر منك.

كففت عن تأملها، وحدقت فقط في عينيها متعجبًا، قلت وأنا أعقد ساعديّ على صدري مستخفًّا بها: العبد لله في المنطقة من سنين حضرتك، ما سمعتش قبل كده عن «عزبة الوقف» دي يا ست الكل.. أكيد اللي وصف لك.. مش عايش في بين السرايات.

نظرت لي حانقة، شعرت أن نظرتها تحمل إيفكت مش ولا بد، رمقتها بنظرة مستنكرة، فهزت رأسها مرتين شعرت أنهما علامة على غيظها، قالت لي. أنت اللي مش عايش هنا في بين السرايات أكيد.. دي خرايط علمية.

وهي تفرد الأوراق في وجهي، لكنني لم أنظر للأوراق، كنت أضحك على الكلمة التي قالتها، قلت مستهزئا: مش عايش في بين السرايات، لو أنا مش عايش في بين السرايات، أمَّال مين اللي عايش يا حتة؟ باقولك إيه حضرتك.. مش حلو الإيفكت ده منك، أنا مش فاضي لك.. أنا عندي مهرجانات.

ثم استدرت لأعود للاستوديو، فقذفت ظهري بعبارة: أنا عاوزة أشتري عزبة الوقف.

توقفت والتفت نحوها، وأنا أقول: ودي فين وتطلع بكام ومين اللي هيبيع لك؟

قالت: ماعرفش.. قالوا لي إنك هتساعدني.

قلت وأنا أعطيها ظهري وأبتعد عنها: شوفي سمسار.

٦

ثم إنها بدأت تأتي كل يوم تقريبًا وتلتقي بناس.

أراقبها بحذر، كانت تدخل المنطقة في الصباح، تتجول وحدها مثل التائهة، المشعوذة، كنت أجلس يوميًّا في القهوة على ناصية شارع المرور، أنتظرها بينما تأتي ماشية من ناحية الدقي، تبدو كما لو كانت في مهمة ما، تبحث عن شيء ضاع منها، تنبش في حكاية ماتت، تدخل منطقة بين السرايات من مختلف مداخلها وشوارعها الضيقة، مرة من شارع المرور، وتظل تمشي فيه بطوله بلا هدف، تقطعه ذهابا وإيابًا، حتى شعرت أنني سأسقط من التعب من ذهابها وإيابها المتواصل، كانت تتحاشى النظر إليَّ، فيما أقتحمها بنظراتي كأنني أحاول أن أحاصرها، وأجبرها على مغادرة المنطقة، بدأ تجوالها الدائم، بلا هدف، وبلا سبب يضايقني، ويضغط على أعصابي، هزمتني هي حينما جعلتني أترك القهوة إلى الاستوديو، كان الولد حمدي ميكس مستغرقًا في حلقاته، وفي تجربة لوبس

جديدة، وقفت في النافذة، رأيتها تدخل شارع السكري، وتغيب فيه، ظللت واقفًا في فضول منتظرا عودتها، وأنا أفكر في سرها، وراءها حكاية، لكنها كانت قد غابت تماما في شارع السكري، شعرت بالقلق، أين عزبة الوقف التي حدثتني عنها، وهل لها أصلا وجود؟ أم أن الحتة تتوهم خيالات؟

لأول مرة أشعر بقلة الحيلة عن معرفة شيء في منطقتي، ثم ماذا ستفعل بشرائها العزبة المزعومة؟ حتى إذا عثرت عليها، ربما بنت فيها برجًا، أو مشروعًا استثماريًّا، أو مطعمًا من مطاعم التيك آواي، أو مكتبة حديثة لتصوير الملازم وكتابة الرسائل العلمية، أم أنها تبحث عن كنز؟ معقولة؟ بين السرايات تحتضن أرضها كنزًا ما؟ ليه لأ؟ قلت بصوت عالٍ، وظلت أفكاري تعصف بي، مثل خطوات الحتة في المنطقة، إيابًا وذهابًا، ركز في همك ومهرجاناتك، ركز يا خريشة وحياة أبوك، كنت أهمس لنفسي، لكن الست لم تتركنا في حالنا.

عادت بعد أسابيع، وبصحبتها رجل في منتصف الخمسينيات، أظن أنني رأيت ملامحه من قبل، ملامحه ليست غريبة عني، أظنه داعية، أو شيخ، أشعر أنني لمحته مرة في قناة دينية، أو أحدهم كان يتحدث عنه بإجلال، المهم، أنهما جاءا المنطقة، ودخلا مكتب الولد حسبو، الرجل كان يحدق المنطقة بنظرة متعالية، صحت على الولد دسوقي: دسوقي، أنت ياض.

كنت أرمق مكتب حسبو في اهتمام وترقب، جاء الولد دسوقي، قلت بصوت خافت: ولاا.. فاكر الحتة اللي جت من شهور في فرح ابن شكري، الحتة اللي كانت بتعيط؟

تظاهر دسوقي بالتفكير، لكن علامات الغباء كانت واضحة، بينما يهز رأسه إيجابًا ليرضيني، قلت وأنا أسلط عيني على مكتب حسبو: بص يا دسوقي.. اعمل نفسك هتودي شاي لحسبو، اعمل نفسك أي حاجة، دخان، دبان أزرق، عاوز اعرف الحتة والراجل الأليط اللي قاعدين مع حسبو بيتكلموا في إيه.

شعر دسوقي بجسامة المهمة، شعر بثقلها فعلا، لأنه استدار، وكاد أن يتحرك، فتوقف، فصحت ضائقا به: مالك متخشب ليه زي خيال المآتة؟ دوس.. شوف لك صرفة.

هي مهمة ثقيلة فعلا، حسبو رغم تظاهره بالتقوى والورع، إلا أنه تاجر، لو لم أكن أعرف أهله جيدا، لقلت إنه ابن حرام، أو غالبا تجارة الفلوس هي من لوثته، وسممته بالخبث والدناءة، الولد كان رياضيًّا ومحترمًا، وبيته كان قبلة كل شباب المنطقة بعدما حوله لصالة جيم، رفع أثقال وسويدي، إلى أن أغلقها فجأة في وجوه الشباب، وقال لهم: بطلناها.. هنشتغل شغل جامد. وعليه، فجأة روحه تبدلت، ارتدى البدلة، بعد «الترنجات»، ربى لحية قصيرة ناعمة، ونبتت في جبهته زبيبة صلاة داكنة، أخذ يعمق من حك جلد جبهته في حصير المسجد، لا ريب، ليسرع في عملية إنباتها بهذه السرعة.

المهم أن اجتماع حسبو بالحتة والرجل الأليط الذي أشعر أنني أعرفه، لم يُرِحني، ولم أعرف كيف سيتصرف دسوقي ليجلب لي الخبر اليقين، كان اختبارًا صعبًا فعلا، كأن كل همومي انتهت، ولم يعد متبقيًا لي سوى هذه الحكاية.

وأنت مالك يا عم خريشة.. إلا أمرك غريب فعلا.. ناس جاية تزورني.. مالك أنت؟!

قالها حسبو، كان جالسًا أمامي في مكتبه، بعدما طرد الولد دسوقي حينما شعر أنه يحاول أن يتجسس عليه، دسوقي بغبائه فضح نفسه طبعًا، وتصرف برعونة، وقف على عتبة مكتب حسبو وسأله أربع مرات عما يرغب فيه من مشروبات القهوة، غادر ضيوف حسبو؛ الحتة، والرجل الأليط، تظاهرت أنني أدافع عن الولد دسوقي بعدما عنفه حسبو بعنف، وطرده خارج مكتب الصرافة، اقتحمت المكتب في رعونة وغضب، صائحا: خير.. فيه إيه.. بتزعق للواد ليه؟

هب فيّ كأنه يرد الصياح: بذمتك مش عارف؟ ما هو أنت اللي باعته.. فاكرني غبي ولا أهبل وبريالة!

قلت: لا ده ولا ده.. فاكرك تاجر.. وعاوز أعرف قصة الولية دي إيه.. ومين المتآلط اللي معاها ده.. أنا شوفته قبل كده ومش فاكر فين.

غمغم: أستغفر الله العظيم.. بتقول على الشيخ حمزة متآلط.. الله يسامحك ويجعله في ميزانك يا عم خريشة.. روح الله لا يسيئك.. روح وسيبني في حالي.

تذكرت الرجل حينما قذف الاسم، الشيخ حمزة أبو نور، الداعية المعروف، لكن ماذا كان يفعل هنا، مع هذه السيدة، في

مكتب حسبو؟ وثب السؤال إلى لساني، فارتبك الأخير وواری توتره بانفعال زائف، هاتفا: والنبي يا عم خريشة خليك في حالك.. ناس وبتزورني في مكتبي.. سعادتك مالك بالحكاية دي؟

قلت وأنا أقف على عتبة المكتب: ماشي يا حسبو.. بس خليك فاكر.. المعلومة هتجيني هتجيني.. فأنت خسرت بنطة عندي.

وغادرت بينما يصيح خلفي: يا سبحان الله فيك يا عم خريشة.. ناس جاية تزورني أنت مالك أنت!

كلا، الأمر ليس مجرد زيارة، قلبي يحدثني أن هناك ملعوبًا، وصفافير، وعفاريت، وترقيدة، لكن ما طبيعة الملعوب، وما حقيقة الترقيدة، ومن خلفها؟ جززت على أسناني محدثًا نفسي: ورحمة أمي لو شفت الست دي تاني هنا، لأقطع خبرها.

لكنها اختفت بقدرة قادر، لم تعد للمنطقة، شهور وبدأت تحركات مريبة تحدث في بين السرايات، ناس بدأت تلم عفشها، وتغادر بيوتها، أول الأسر التي غادرت المنطقة كانت عائلة محروسة الشرقاوي، التي كانت تسكن مع أبنائها البيت الذي تملكه في شارع البطل مرسي سلطان، بعدها بأشهر، بدأت أسرة محمد حلمي الموظف في مجمع التحرير، وأبنائه الثلاثة الذين يسكنون البيت المجاور لبيت محروسة، في لم عفشهم، والانتقال، بيتان خلوَا من سكانهما في ظرف أشهر، من المالك الجديد؟ ظلت البيوت خالية، حتى بدأ هدمها ذات ليلة، ولد يا دسوقي.. اجرِ على شكري المحامي، شوف كده يمكن عنده علم، مين اللي بيفضي بين السرايات من أهلها.

شعرت بخطر، بل بقلق، لماذا يغادر الناس بين السرايات؟ المنطقة تتعرض لإخلاء؟ هيضربونا بالنووي؟ لماذا لم أستوقف أحدهم وأسأله عن الحكاية، على الرغم من كثرة الأسر التي غادرت المنطقة، إلا أنهم غادروا في هدوء زحف الأفاعي، الصفافير بدأت تدوي في أذني مثل أصوات غارات الحرب في الأفلام الأبيض والأسود، لم أستطع أن أركز في مهرجاناتي، المنطقة أحوالها تتبدل، هناك أمر مريب يحدث تحت الأسفلت، هناك من يحفر حفرة ويمد مواسير صدئة، مش حلو الإيفكت ده، قلت لنفسي وأنا أشرب القهوة المخلوطة بالقرفة والجنزبيل: الناس بتسيب بيوتها ليه، ولمين، وده إيه علاقته بالولية الموكوسة اللي عاوزة تشتري عزبة في بين السرايات؟

اعتصرت قبضتي كوب القهوة، شعرت بالغيظ، كدت أحطمها مثل سابقتها، لولا دسوقي الذي هلّ عليّ فجأة، كأن الأرض انشقت عنه، كان يلهث، قال في خفوت: عم أحمد.. مش هتصدق.. عم شكري باع بيته راخر.. وبيلم في عفشه.. وماشي من المنطقة.

قذفت الكوب بأقصى قوتي كأنني فقدت السيطرة على كل شيء.. ثم نهضت من على المقعد متجها إلى بيت شكري.

٨

توبوا بقى.. توبوا.. الله يحرقكم.. هنلاقيها منكم ولا من الحكومة.. مبارك وابنه باعوا مصانع بين السرايات وشركاتها القديمة وأنتو بتبيعوا بيوت الناس، توبوا بقى.. توبوا الله يحرقكم.

كنت أقولها منفعلا، متأججا بغضب عارم، اليوم كشف لي شكري بعدما ضغطت عليه، خطة شد أكباس الناس من المنطقة واحدة واحدة، التي يعمل عليها حسبو والحتة والشيخ الداعية الذي يعشقه كأنه أبوه، البهوات الثلاثة يقنعون الناس ببيع بيوتهم، من أجل مشروع استثماري كبير، طبعًا لأني التقيت المدام الحزينة قبل حسبو وشيخه، فأنا الوحيد من بين الأهالي الذي يعرف أنه لا يوجد مشروع استثماري ولا يحزنون، إنما المدام تبحث عن عزبة مجهولة تسمى عزبة الوقف، كنت في مكتب حسبو أواجهه بالحقيقة، قال منفعلا في غضب ورذاذ كلماته يتطاير معها: دي تجارة يا عم خريشة، ولو حد طلب منك تبيع بيتك، ما تبعش يا سيدي، أنت حر.

قلت وأنا أقترب منه تأهبًا حتى يكون في متناول يدي إذا أردت أن أضربه: باقولك إيه يا حسبو.. دي مش تجارة.. ده إيفكت نخاسة.. فكرك بالساهل تطفشوا الناس من بيوتها، عشان تفضوا المنطقة من أهلها، وتقعدوا فيها لوحدكم.. أنتم طماعين يا حسبو.. طماعين وعاملين نفسكم بتعرفوا ربنا.

ضحك حسبو ضحكة عصبية حاول أن يستفزني بها، فأمسكته من ياقته في غيظ، نجح فعلا في استفزازي، وأسرع يطلق صرخة مدوية، كأنه امرأة تولول على زوجها الميت، غريبة.. لماذا لم يستخدم قوته ضدي؟ كأنه يخشى أن يضربني فيظهر في هيئة المعتدي، تدافع أهل المنطقة إلى مكتب الصرافة، ونجحوا في تخليصه من يدي، فصرخت وهم يدفعونني خارج المكتب:

يا ابن الوسخة.. هتبيعونا بيوتنا وهدومنا.. ما بقاش فاضل لنا غير الهوا والنفس اللي داخل طالع.. يا ولاد الكلب.

ردد حسبو البسملة والحوقلة، وأخذ يحسبن، بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا مزيكاتي يا بتاع المساخر والرقاصات.. حسبي الله ونعم الوكيل.. يا رب المنطقة تنضف من أمثالك.

صحت فيه مزمجرا، والناس تحول بيني وبينه: أنا؟ المنطقة تنضف من أمثالي أنا يا ابو دقن عيرة.. ياللي بتروح تركعها وعقلك في الآلة الحاسبة.. أنا اللي عامل للمنطقة حس وروح.. وأنت وأمثالك عاوزينها حصالة مضلمة.. يا ولاد الو...

وضع أحدهم كفه على فمي، محتجزا الشتيمة بين أسناني، كان جاري عبد الله صديقي القديم العائد من الجزائر بجلابية وزبيبة، وضع كفه على فمي في حدة بدت كلطمة، وقال في صرامة: كفاياك غلط في الناس الطيبين بقى يا خريشة.. جرى إيه؟ ما تنساش نفسك.. خليك في حالك وفي مسخرتك.. الناس الطيبة عارفة مصلحتنا كويس.. وإحنا راضيين.. اللي عاوز يبيع يبيع.. واللي عاوز يعزل من المنطقة ياكش يغور.. أنت مالك.. خليك في طبلتك.

عزيز بطرس فيني

١

سألني بلهجة باردة: اسم حضرتك؟

قلت: عزيز بطرس فيني.

دوَّن الاسم في ورقة، كنت أرمق الضوء الخافت الذي يغلفه، ودخان سيجارته الذي تجمع فوق رأسه، رمقني بنظرات ساهمة ناعسة، وهو يعاود سؤالي، كأنني أسطوانة قديمة يستمع لها في ضجر: المطلوب؟

قلت مرتعشا: مراتي مختفية.. مش عارف طريقها فين.

كتب في بلادة كأنه يتعلم الكتابة لأول مرة، ثم غمغم: مراتك، بس... ثم رفع صوته مضيفا: اختفت إمتى؟

قلت: ٢ يوليو اللي فات.

هز رأسه مغمغما: ليلة عزل مرسي؟

قلت وأنا أبلع ريقي. أيوه.

دوّن ذلك، ثم سألني: راحت فين، نزلت في مظاهرة، كانت إخوان ولا ظروفها إيه؟

قلت محاولا إخفاء ضيقي وغيظي: شفق قبطية.. ماكانتش بتمشي في مظاهرات.. ولا كانت إخوان.

لم أستطع مصارحته بالمصيبة، شفق أشهرت إسلامها قبل فترة كبيرة من اختفائها، ومن عزل مرسي، كأنني أنكر فعلتها، لكنها الحقيقة، أسلمت على يد حمزة أبو نور، قبل أن يتزوجها، المصيبة مصيبتان، وهمّي مضاعف، شعرت أن معرفته بهذه المعلومة سيزيد الطين بلة، خاصة أنه هز رأسه في استهانة كأنني لم أقدم جديدًا، محاولا إخفاء غبائه، قال: أيوه يعني فيه ناس اتخدت عاطل مع باطل.. جربت تسأل عليها فين، شُفت الأقسام، المستشفيات.. آخر مرة يعني اختفت كانت فين؟

كدت أفقد أعصابي من سيل الأسئلة التي عجزت عن الإجابة عنها، تماسكت قائلا: ماعرفش غير إنها آخر مرة كانت في بين السرايات.. يوم ٢ يوليو، كل اللي أعرفه إنها نزلت قبل ما الإخوان يحاولوا اقتحام المنطقة، حاولت تدخل شارع من شوارع بين السرايات، ماعرفش أي حاجة تاني.

شعر بضجري، وغضبي، قال في استفزاز: باقول لك إيه.. إحنا ما نمناش من خمستاشر يوم.. ومش ناقصين.. اكتب أوصافها في الورقة دي وإحنا هندور.

قالها ثم تراجع بظهره إلى مقعده مسترخيًا ومسبلا جفنيه، ثمة ارتعاشة خفيفة في رموشهما، شعرت باليأس والحنق، ماذا أفعل.. ماذا أفعل؟ يا أبانا الذي في السماوات.. فليتقدس اسمك.. فليأت ملكوتك.. فلتكن مشيئتك.

أنا عزيز الذي هجرته زوجته بعدما غيرت دينها، تركتني وتركتك يا يسوع.. يا حسرتي.. الآن تذكرت ربك يا عزيز حينما هجرتك شفق؟ هل كانت قاصرًا، أو فتاة مخبولة حتى ينجح حمزة أبو نور في التأثير عليها بهذا الشكل، ويجعلها تهجرني، ويجعلني أرضخ؟

العار أولى بي، بل ليس العار، لماذا أظلم نفسي؟ أنا ضحية، وجانٍ، جنيت على شفق فجعلتها تهرب مني، وجنيت على الراهب وقتلته بعدما رفض أن يمنحني تصريحًا للزواج من مارينا التي جنيت عليها هي أيضا، بعدما جذبتها معي في مغامرة الزواج اليائسة، وأستحق كل ما ينتظرني من عذاب، أتذكر الرب في جحيم محنتي، ولم أتذكره من قبل في عز نعيمي.

لم أتصور من قبل أنني سأمسك ورقة بالية قد يمسحون بها مؤخراتهم، أو زجاج سياراتهم، لأكتب أوصاف شفق في محضر شرطة بائس، ورقة بالية ستتوه بعد قليل، وسط أوصاف المفقودين، والمقتولين والجثث المجهولة بالمشرحة، الورقة بما تحويه من جداول وأسئلة كئيبة باردة تطلب مني أوصاف المفقود وطوله وعرضه ولون عينيه وشعره والعلامات المميزة في جسده ويوم اختفائه، والأسباب المحتملة وراء تغيبه، كل ما تحويه الورقة من أسئلة جعلني أفقد الأمل في استعادة شفق. البلد على كف عفريت، الهيجان والهستيريا في كل ناصية وركن، رئيس للتو سقط، بعد مبارك الذي لم نكن نظنه يسقط أو يموت، تركتني شفق، تركتني وحيدا.. دوامة هذيانها قادتها للتورط في المعركة الشهيرة التي جرت في بين السرايات، يومها غادرت منزل حمزة أبو نور بدون

أوراق هويتها، بدون بطاقتها الشخصية، أو كارنيه نقابة المهندسين، بدون كارت الـ«ATM» أو رخصة القيادة، بدون تليفونها المحمول القديم نوكيا ٣٣١٠، في صباح اليوم الذي انقطعت فيه أخبارها عني، بحثت بين طيات ملابسها، وجدت حقيبتها الجلدية الثمينة التي اشترتها من ألمانيا. بحثت أصابعي في لهفة داخل الحقيبة، فعثرت على محفظتها الجلدية، تحوي صورها التي كانت تحب أن تصطحبها أينما حلت.

على الرغم أن هذه الأشياء تركتها منذ هجرتني، وغيرت دينها، إلا أنني أعيد اكتشافها مرة بعد مرة، كأنها تركت منزلي أمس، شعرت بالتيه، اكتشفت أنني مضطرب، توقفت لحظات، وامتقع وجهي، لطمني السؤال بغتة: أين شفق؟ أين؟ أين؟ هل سأجدها في المشرحة؟ هل ستكون مجرد جثة هامدة؟ هل قُتلت فعلا؟ أين أجدها؟ كانت هذه الأسئلة تطرق عقلي وتعصف به. متى تورطنا هكذا؟

ترددت وأنا أكتب أوصافها، هل أكتب أنها كانت قبطية، مثلما قلت للضابط، أم أعترف بحقيقة الكارثة التي جرت بعد ذلك، بإشهارها إسلامها في لحظة جنونية، وليست لحظة إيمان، كما حاولت أن تقنعني، غيرت دينها، وهجرتنا جميعا، قالت لي إنه لم يعد بيننا رابط زواج، بمجرد إشهارها إسلامها، تلقيت رسالة من مشيخة الأزهر تخطرني بإسلامها بعد شهر من دخولها المشيخة، ثم تلقيت زيارات عدة من أمين شرطة، يخطرني بتغييرها دينها، وطلب مني توقيعي على إقرار عدم التعرض لها، كل مرة كنت أسمع دقات أمين الشرطة على بابي، أتعرف شخصيته من طريقة طرقه

الباب، يدق الباب بقبضة ثقيلة، تفصح عن شخصيته، ويطلب مني سيجارة، ويتأملني مليا، ويحاول أن يدس نظراته إلى بهو شقتي، كل مرة كنت أستقبله فيها، كنت أتجاهل رغبته في الدخول، واحتساء كوب شاي، كنت أناوله سيجارة، فيدسها في حرص خلف أذنه، عجيبة، ألا يزالون يضعون السيجارة خلف آذانهم؟

تركت شفق لعائلتها خيار أن يصلوها، أو يقاطعوها، فاختاروا هم أن يهجروها، ويغلقوا أبوابهم إزاءها، وإزائي، حمّلوني مسئولية انحرافها وجنونها، على الرغم من أن حمزة أبو نور هو من ساعدها في إلقاء نفسها باتجاه الطوفان.

حينما دخلتُ الكنيسة لأول مرة بعدما هجرتني شفق، قال لي أبونا: يمكنك أن تخبرني كل شيء يا بني، يجب أن تخبر الرب كل شيء، لم أعرف طقوس الاعتراف، المعترف أمام الكاهن هو ابن أمام أبيه، هكذا قرأت في أحد المواقع المسيحية، الكاهن كوكيل لله، وكممثل للكنيسة يشهد على التوبة القلبية، والكاهن يستطيع أن يعرف هل هذا الشخص تائب أم لا، هل أعترف أنني أهملت شفق وأنني لم أرها أبدًا، وكنت أرى فقط أرصدتي في البنك، وأراقبها وهي تنمو، وتتزايد، وتكبر مثل النساء الحبلى بالعفاريت، في حين أنني لم أستطع أن أنجب، لم أستطع أن أصنع طفلا، مثلما صنعت ثروتي، روح شفق كانت تحترق كسجائر مشتعلة في مطفأة ضيقة، ولم ألتفت لعذاب نفسها، وتأجج لهيبها، بينما يلتهمني العمل مثل سيجارة تحترق وحدها.

ظهرت علامات شغف شفق وجنونها في الفترة التي تلت

عودتنا إلى مصر، زاد الفراغ في حياتنا، وتعملق مثل جراد انفرد بالحقول. تسبب حضورنا الفرح الذي ساقتنا أقدامنا إليه خطأ في بين السرايات، في ضياعها في غابة هوسها الشائكة، كانت تلك الليلة بداية لكل شيء، أي قبل معركة بين السرايات بأربع سنوات، قبل تحولها الجنوني بتغيير دينها، وقبل أن أتورط في جريمة قتل الراهب، منذ ليلة الفرح بدأت الأحداث، ولم تنته باختفاء شفق في مساء دامٍ؛ ليلة عزل مرسي.

دائما أعمل على المخططات الهندسية، وقوالب الطوب، والمباني، والطين، والزلط، هكذا هو المهندس، يودع أسراره وحكايته في الرمل ويدفنها للأبد حينما يصب عليها أساساته، البعض كان يلمحني بينما أتحسس الأحجار، بشغف، قبل أن أسلمها للعمال والبنائين للمرة الأخيرة، كأنني أودعها، أو أتأكد من حفظها أسراري، قبل أن تختفي ضمن آلاف القوالب الأخرى في البنايات، ولكنها المرة الأولى التي أتعامل فيها مع الورقة والقلم، لأكتب أوصاف زوجتي، كيف أصفها؟ أنها كانت متمردة تمردًا خفيًّا، لم أكتشفه إلا بعد سنوات من زواجنا؟ ماذا أكتب في وصفها؟ أنها كانت رشيقة، وروحها هائمة، لا تستطيع أن تسيطر عليها؟ أم أكتب أنها كانت تبدو من الخارج موزونة العقل، لكن رأسها كان مجرد كيس فارغ، محشو بالأساطير؟

كنت سعيدًا وناجحًا في حياتي، إلى أن سقطت شفق في متاهة أفكارها، هي وحدها التي تستطيع التعرف على دروبها، بدأت تسعى بدأب خلف هدف لم أتوقعه حينما عدنا إلى مصر، قبل أن نجد أنفسنا

في قلب ذلك الفرح عام ٢٠٠٩، اضطرتنا الظروف آنذاك لحضوره على الرغم من أننا لم نكن بصدد ذلك في الحقيقة، عرجنا عليه، أثناء بحثنا عن عنوان صديقنا الذي يسكن خلف المدينة الجامعية، مرقنا في شوارع كنت أظنني أعرفها، لكنني فوجئت بتغير معالم المنطقة، شوارع ضيقة ظهرت فجأة جعلت منطقة بين السرايات أشبه برسم هندسي غير مكتمل، التيه كان مصيرنا، فوجئنا بأنفسنا أمام مولد، في البداية ظنناه هكذا، ثم لم يلبث أن اكتشفنا حقيقة الأمر، ألقانا حظنا في قلب فرح شعبي، وفي أشد مواضعه سخونة، كان المطرب الذي يحيي الحفل شهيرًا، ونجمًا سينمائيًّا اشتهر بحبه منافسة الراقصات في الرقص خلال أفلامه، أما الراقصة التي كانت تجاوره على المنصة، فكانت مغمورة، ليست من هؤلاء اللواتي يشاركنه أفلامه السينمائية، نزلت شفق من السيارة، وجذبها الهتاف الحماسي كأنه مغناطيس، زحام شديد، وأضواء مبهرة في المكان، الذي كان عبارة عن سرادق ضخم، سد مدخل الشارع، المفتوح على اتساعه على جامعة القاهرة، هذا الفرح الشعبي الضخم، وزجاجات البيرة المتناثرة على موائده بكل وضوح، يواجه الجامعة، أين نحن فعلا، وفي أي زمان؟

كنت أتقدم خطوة، وأؤخر خطوات، لكن شفق سبقتني بفضولها الذي كان يقودها، الكل كان يتابعها باستغراب، ودهشة، سيدة أربعينية أنيقة، تتقدم في حماس بملابسها الثمينة، وعطرها يتطاير حولها، نحو فرح شعبي، يتبعها رجل من نفس عمرها، يحاول أن يستوقفها دون جدوى، تتقدم في ثقة وثبات، فتلاحقها أعين الموجودين في الفرح بشغف وشهوة، بعض الشباب المتناثر بين موائد تراصت عليها زجاجات البيرة، كانوا يدخنون سجائر حشيش

في شبق، لم أدرك في البداية أنها سجائر حشيش إلا بعدما لحظت أحدهم يفرد التبغ في طبق مسطح ويفرك قطع الحشيش في التبغ، ثم يشعل النار أسفل ملعقة معدنية تحوي الخليط، قبل أن يعيد رصه في حرص وأناة داخل ورق البفرة، كأنه يعمل على فصوص من الماس، دلني ذلك على أنهم يدخنون حشيشًا، آخرون استقبلونا في ترحاب، هتف أحدهم في سوقية: أهلا يا أبلة، على فين؟ أما ذلك الرجل الخمسيني، الذي كانت تبدو عليه صفات الود والحكمة، فرمقنا في حذر، قبل أن يشير لأحدهم بنظرة ارتعش لها حاجباه، أن يضع عينه علينا، لم أستطع أن أرفع نظراتي من عليه، بدلا من متابعة خطوات شفق، شعرت أنه والد العريس، أو والد العروس، أو أنه زعيم ما، أو صاحب الفرح، كأنه كبير المقام، كان يجلس وحيدًا، لكن الكل يومئ له بالسلام، والبعض يتقدم منه وينحني أمامه، سمعت اسمه يتردد في خفوت وإجلال: الحاج أحمد خريشة، رددها أكثر من مرة المطرب الشعبي الشهير، فيرد عليه بابتسامات متعالية، يهز رأسه هزات بطيئة، بينما المطرب الشعبي الشهير يهتف: الحاج أحمد خريشة.. ألف تحية وسلام للراجل اللي مجمعنا، بنصبح على المعلم خريشة، على أبوكو حرية، على أبوكو حرية، عليك يا خريشة، اصحَ معايا ما تنامشي، اصحى معايا ما تنامشي، ألف سلام وتحية، ألف سلام وتحية، لحامي السعادة والفرفشة، المعلم أحمد خريشة، وأرجع تاني وأقول لك، أرجع تاني وأقول لك، مرحب برجوعك لينا، يا خرييييييشة.

كان يرددها في صياح لزج رتيب، وموسيقى معدنية شعرتها صدئة تنبعث من ميكسر إلكتروني، متصل بجهاز لاب توب يجلس

أمامه شاب قصير يرتدي ملابس ثقيلة، فيما كان أحدهم يعزف بحماس منقطع النظير على أورج كهربائي، رجحت أنه مصدر الضجيج، كانت أصوات النغمات الصادرة من الأورج تتداخل مع دقات طبول، تتصاعد من الميكسر، تندمج معها كلمات المطرب الشعبي، الذي كان يتراقص على منصة الفرح، بخفة تتناسب مع الجمل المتلاحقة التي كان يقذفها في آذاننا، ويتفاعل معها جمهوره، الذين صرنا بينهم في هذه اللحظة.

كان المطرب الشعبي يصيح في وجه الراقصة المغمورة: نفسي أعمل كده، وأحب أعمل كده، سايب نفسي خالص، أنا سايب نفسي خالص، كان يصيح بالكلمات، ووجهه يقترب من وجهها، الذي كان يلمع بألوان مكياجها، وأضواء الفرح المبهرة، أوقف المطرب الموسيقى بغتة، وهو يحملق في صدرها الممتلئ، قبل أن ينحني على نهديها فجأة، ويقطف قبلة في الشق اللدن بينهما، مما أثار حماس حضور الفرح، وتعالى صياحهم، بينما المطرب يغمغم بحماس عقب القبلة الخاطفة: أنا كنت باقول إيه؟ فيجيبه حماس هستيري من أهل الفرح، فيعاود الصياح وهو يحتضن الراقصة من خصرها، وأصابعه تتحسسه في شهوة مكررا عبارة: أحب أعمل واحد، أحب أعمل واحد، أحب أعمل واحد، أحب أعمل واحد شاي.

تراجعنا مبهوتين، أنا وشفق، فيما صخب اللحم البشري من حولنا يعلو، تدافعت الأجساد أمام منصة المسرح في فرحة طفولية وشهوة كأن حركات المطرب المثيرة وتحسسه المتتالي لجسد الراقصة مغناطيس يجتذب الأجساد، التي تتصاعد منها رائحة العرق العطنة،

شعرت أنني غرزت في بركة طين، تجمدت عاجزًا عن انتشال شفق من بين الأجساد الصاخبة، بينما المطرب الشعبي يواصل تحسس خصر الراقصة في شهوة، مخاطبا جمهوره المستثار: البت دي قليلة الأدب.

فجأة ربتت على كتفي أصابع نحيلة، التفتُّ، كان أحد الأشخاص التابعين لكبير الفرح؛ أحمد خريشة، كان يجلس محدقًا فيَّ، أنا وشفق، التي كانت دموعها قد سالت خطوطًا من الكحل الأسود، لماذا بكت؟ كان رد فعلها أقوى من المفاجأة التي صعقتني من تصرفات المطرب والراقصة، لكن قبضة الفتى النحيلة لم تتخل عن كتفي، لم يقل الفتى شيئًا، كانت أصابعه امتدادًا لنظرات أحمد خريشة المحملقة فينا، باغتني بابتسامة غامضة، كأنه يقول لي: إنتو إيه اللي جابكم هنا؟ أو كأنه يقول. اخرجوا فورا، لكن الجملة التي جذبتني مثل مغناطيس كهربائي، وجعلتني أجذب شفق، كانت مكونة من كلمة واحدة: تعالوا.

٢

هل كانت هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها أحمد خريشة؟ التقته شفق وحدها مرات، بعدما تعلقت بالمنطقة، وخاضت مغامرة إخلائها من أهلها، ومشاركة حمزة أبو نور في شراء المنازل وطرد سكانها، ربما كانت هذه الكارثة بداية العاصفة التي هبت فيما بعد، واقتلعت كل شيء، فأطاحت بأحلام حمزة في السيطرة، وفي شهوة شفق للانتقام من ثأر تاريخي.

في الأيام التالية للفرح، بدأت تبحث في استماتة عن شيء لم أعرفه، شيء كان هناك في أوراق جدها، ثم ترددت وحدها على أحد أساتذة التاريخ الأجانب، وحصلت منه على خرائط نادرة لمنطقة بين السرايات، وزارتها مرارًا، والتقت بأحمد خريشة، قبل أن تعود وتفجر في وجهي المفاجأة، حينما حاولت إقناعي بمقاضاة الدولة، وأصحاب المكتبات والأهالي القاطنين في محيط نصف كيلو بمواجهة جامعة القاهرة بمنطقة بين السرايات لطردهم من مساكنهم ومحالهم، ونزع أملاكهم وإخلائها منهم.

كانت قد تعرفت على المخبول المدعو شاندور عالم الآثار الألماني، الذي يعرف أصل وفصل المنطقة، وأمدها بخرائط لها تعود لعام ١٨٧٠ ميلادية، الوغد!! من أين جلب هذه الخرائط الملعونة؟ بل كيف وجدته شفق؟

قضت شهرين كاملين تبحث في المكتبات وفي أقسام التاريخ بالجامعات عن أشياء لم أعرفها، شهران كاملان، ونحن نعيش في فوضى، هستيريا عصبية تنتابها في أوقات غير محددة، وفي أشكال مختلفة، مثل زلازل تهز الأرض فجأة، أولى هذه الأزمات، انتابتها بعد مغادرتنا الفرح مباشرة، سقطت فجأة في دوامة من النسيان، تنسى كل شيء، تنسى ارتداء ملابس ثقيلة قبل مغادرتها للمنزل، تنسى اصطحاب المفاتيح، وتضطر لانتظاري جالسة في استسلام أمام باب الشقة حتى أعود، تنسى اصطحاب هاتفها المحمول، وتنسى حينما تتعرض لهذه الأزمات جميعا، أنني ملاذها الوحيد.

كنت أعجب لحيرتها الشديدة التي أبدتها ذات مرة بينما تقص

عليَّ كيف فتحت حقيبتها فلم تجد المفاتيح، ولم تجد نقودها، ولم تجد هاتفها، ولم تدر ماذا تفعل! قلت متحيرا: ببساطة تحاولي تتصلي بي.. حتى من كشك سجاير.. أو من أي تليفون محمول مع أي جار من جيرانا.. نظرت لي ببلاهة كأنها تتعجب كيف لم يخطر ببالها هذا الحل، تسير مجردة بلا عقل، امرأة برأس أجوف، عيناها ساهمتان، تحدقان في الفراغ، إذا اعترض أحدهم طريقها، ربما تمرق داخله، لتواصل رحلتها، لا أعرف إن كان أحدهم قد تحرش بها مستغلا حالة الذهول التي تعتريها، لا أشعر بتنفسها حينما تخلد للنوم بجواري، تباعد مفاجئ أصابنا في الفراش، لم ألمسها طوال شهرين بعد حضورنا الفرح، ولم ألمسها بعد ذلك لسنوات، كنت أرقد بجوارها كل ليلة شغوفا برائحتها، أحاول أن ألمسها، فتنتفض كأني شحنة كهربائية، قبل أن تنهض وتغادر الفراش، وتذهب إلى حجرة أخرى، وفي الصباح تنهض متوترة، متبرمة بدون سبب، تشتكي من الصداع الحاد، تمرق سريعا إلى المطبخ، تختفي فيه، قبل أن تعود بكوب كبير ممتلئ عن آخره بالقهوة السوداء غامقة اللون، لم تكن تشرب إلا الإكسبرسو، فجأة بدأت تشرب القهوة التركي من بن غامق محوج، هكذا بدون إفطار، أتأملها متمعنا، بينما تمرق كشبح إلى حجرة جدي، أشعر أنني أعيش مع امرأة أخرى غير التي تزوجتها في الإمارات، تبدلت أحوالها بشكل عجيب، لم تعد شفق الممتلئة حيوية وحبًّا ومرحًا.

فوجئت بها بعد عودتنا من الفرح بشهور تغادر المنزل وهي ترتدي ملابس الصيف، وتعود تعوي من البرد الذي يطحن عظامها، مُطلِقة سعالا مجروحا قويا، كنا في يناير، البرد قارس، ونوبات

النسيان تضرب عقلها مثل نوات البحر التي تحاول أن تتخطى المكعبات الحجرية حول شاطئ الإسكندرية، وددت لو أستطيع أن أبني حول عقلها أسوارًا منيعة مثل تلك التي بنيتها حول البرج في الإمارات، لكني سرعان ما اكتشفت أن النوبة التي تصيبها، لا تمتلكها تمامًا، حينما عرضتها على أحد الأطباء النفسيين وتابعت معه العلاج، بدأت تنتبه لمفاتيحها، وملابسها الثقيلة، أتى العلاج مفعولا سريعًا، جعلني أؤمن بالأطباء النفسيين، الذين لم أزرهم من قبل، حياتي كانت كلها بهجة ونجاح، ما الذي يجعلني أخطو عتبات العيادات النفسية؟ عدت لانهماكي في خرائط الرسم الهندسي، وعملي المرهق في المواقع، كانت شفق قد توقفت عن العمل في شركات المقاولات منذ عدنا من الإمارات، كان ذلك قبل ليلة فرح بين السرايات بشهور، ترتاد عيادات الأطباء لتبحث مشكلة تأخر الإنجاب، حياتنا كانت باردة لخلوها من الأطفال، لا أنكر، لكن الشهرين اللذين مرا بعد خروجنا من الفرح، قلبا كل شيء رأسًا على عقب، بدأت شفق فجأة تبحث عن أصل وفصل بين السرايات، فجأة تحولت حياتنا لماراثون غير معلوم الهدف، لم أكن أعرف عما تبحث، تعطلت بسبب نوبة النسيان التي أصابتها، ثم عادت أكثر من قبل، أكثر عزمًا وإصرارًا على معرفة كل شيء يخص المنطقة ونسيان أي شيء آخر في حياتنا، أسألها: عاوزة تعرفي إيه بالظبط، تاريخ المنطقة مثلا؟ آثارها؟ قصة بناء جامعة القاهرة؟

كانت تهز رأسها نفيا، تهزها مرتين متتابعتين لتؤكد عدم فهمي، تهز رأسها مرتين متتابعتين، كلما أصرت على خطأ استيعابي، لم تكن هذه الإشارة جديدة عليها، الجديد الذي طرأ عليها بعد نوبة النسيان

التي شفيت منها، أنها نسيت للأبد طريقتها المفضلة في تصفيف شعرها، كانت تفضل تحويله إلى ضفيرة طويلة سميكة كطالبة بالمدرسة، شعرها الطويل كان يميزها، ويجعلها ساحرة وفاتنة لكن بعد شفائها من النسيان، صارت تترك شعرها محلولا طول اليوم، أو تجمعه في خصلة شعر واحدة قبل أن تعقدها بعقدة في نهايتها.

تهز رأسها مرتين متتابعتين، قبل أن تقول: فجأة اكتشفت حاجة بتربطني بالمنطقة، كأني عشت فيها قبل كده، أو كأني عاوزة أعيش فيها.

في البداية، آثرت السلامة، ولم أعقب على ما قالته، لو كنا في الإمارات لكنت هتفت في وجهها: إنتِ اتجننتِ يا شفق؟ لكن طبيبها النفسي نصحني ألا أثيرها، وأن أتعامل مع غرابة أطوارها بصبر وحنكة.

لكن أي صبر وحنكة أتعامل بهما، والتباعد يزداد بيننا يوميا؟ أعود من العمل، فأجد البيت خاويًا، والفوضى عارمة، أوراق شفق متناثرة في كل مكان، بعض وسائد الأرائك ملقاة على الأرض حيث كانت تجلس بين مئات الصفحات، والأوراق القديمة والبالية، ملابسها المنزلية تعانق أدوات المائدة، كأنها كانت تمسحها بها، أو خلعتها على عجالة وألقتها على السفرة، بين الأطباق، والأكواب، كنت أنظر لكل هذه التغييرات، وأزيل آثارها في صبر، وأسأل نفسي: ماذا حدث؟ أي عاصفة انتابت حياتنا؟ وكيف تحولت شفق إلى هذا الشغف بسبب فرح شعبي؟

كل شيء في حياتي كان مرتبًا، قبل أن تضربه الفوضى، شفق

تطارد عبثًا، وتغرقني معها شيئًا فشيئًا في الجنون، كل شيء كان متجانسًا، طوال فترة طويلة من حياتي، إلى أن اقتحمت الأفكار العبثية رأس شفق.

ظللت أعمل بشكل مضنٍ أكثر من ١٠ سنوات، إلى أن حانت فرصتي فجأة عام ٢٠٠٦، كان ذلك في دبي حينما قرر أحدهم أن يبني ناطحة سحاب في قلب البحر، فشلت كل محاولات المهندسين الذين حضروا قبلي، مئات الاختبارات لطرح أفكارهم حول تنفيذ المهمة، فكرتي كانت بسيطة، وفتحت أمامي أبواب النجاح المباغت، قدمت لهم الحلقة الصعبة في السلسلة، الحلقة التي تحمي البرج العظيم من الأمواج العاتية، بتفتيتها على دفاعات بحرية ساحلية مبتكرة من نوعها، باستخدام سلسلة من الصخور، على شكل ألعاب الجاكس التي كنت ألعبها صغيرًا في كندا، فكرت في نحت مجموعة من الصخور على نفس شكل هذه الألعاب وتركيبها على نحو يخلق فراغات بينها، تفتت دانات الأمواج الهادرة، لتجردها من قوتها، فتتفتت وتنهزم إلى ذرات صغيرة، وتظل ناطحة السحاب منتصبة متحدية البحر ترمقه بشموخ.

كانت فكرتي عبقرية، انضممت لفريق عمل المهندسين البريطانيين، الذين بنوا ناطحة السحاب، منذ هذه اللحظة وأبواب الحظ مفتوحة، هناك وسط الفريق، كانت شفق تعمل في حماس، مهندسة عمارة، تزاملنا أثناء تشييد الناطحة العملاقة، حتى قررنا الزواج في الإمارات، بمجرد معانقة السحاب للبرج، كنت قد نلت ترقية مع زواجي من شفق، أوصى المهندسون البريطانيون بتكليفي

بالعمل في مشروعات أخرى، مع طاقم من المهندسين المدنيين والمعماريين، تضاعفت مكافآتي، خاصة بعدما عملت بعدها في تشييد ثلاث ناطحات سحاب في الإمارات، قبل أن أعود إلى مصر عام ٢٠٠٩، كان قد مر عامان على زواجنا، رصيدي في البنك تضاعف، واقترب من رقم الاحتياطي الأجنبي لثلاث دول إفريقية متوسطة الحال، شفق كانت مهمومة بفكرة الإنجاب، لم تكن ترى غيرها، رحلات طويلة قطعناها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، كانت في الظاهر رحلات عروسين مرّ على زواجهما عامان، يجددان شهر عسلهما، لكن الحقيقة كانت غير ذلك، في طلبات التأشيرات كنا نضع رغبة السياحة كهدف من الزيارة، لكننا في الحقيقة، كنا نتوقف كثيرًا عند أسماء أطباء، وعيادات شهيرة بحالات العقم، كان ترديد الكلمة صعبًا: عقم، يا لقساوة الأحرف الثلاثة، كنا نستبدل البحث عن العيادات التي تحمل في أسمائها كلمة خصوبة، بدلا من عقم، ليتنا أفلحنا، هل وجود طفل في حياتنا كان من الممكن أن يمنع الكارثة؟ أن يمنع شفق من تغيير دينها، وتحطيم حياتها، وحياتي؟

٣

عدنا عام ٢٠٠٩، لنستقر في مصر، اخترنا في البداية شقة جدي الراحل بطرس فيني الواقعة في الدقي سكنا مؤقتًا، أسرة شفق كانت تلح عليّ للإقامة معهم في شقتهم بجاردن سيتي، في الحقيقة لم أفضل الفكرتين، شقة جدي كانت تخيم عليها روحه،

أيقونات العذراء والمسيح متناثرة في كل مكان، بالإضافة لكتبه عن العمارة، ولوحاته الكثيرة عن القصور والسرايات التي شارك في تشييدها، وسرايات تاريخية أخرى لم يشارك بالطبع في بنائها، مثل سرايا الجيزة التي شيدها الخديوي إسماعيل، والتي لم يعد لها أثر، وسرايا الجزيرة التي تحولت لفندق ماريوت. كانت شقته مزيجًا من المتحف المفتوح ومذبحًا كنسيًّا للصلاة، لم أؤمن يومًا بأداء حركات للتقرب إلى الله، أو الوقوف متصنعًا الخشوع، وترديد مقاطع معينة من الإنجيل، لماذا أذهب للكنيسة لأتصل بالرب؟ إنه هناك، إنه هنا، إنه فوقي، أسفل مني، على يميني، على يساري، أمامي وخلفي، إذا أرادني، فسيقبضني، فقط زواجي من شفق هو الذي أجريناه داخل كنيسة، أرثوذكسية كانت، فيما كنت كاثوليكيًّا، لكنها كانت مثلي ترى أنها تقاليد يمكن التغاضي عنها أمام الحب الذي ربط بيننا، أتذكر أول مرة التقينا فيها، كانت تقف في أحد طوابق ناطحة السحاب العملاقة، بين عمال وملاحظين هنود على سقالة وتمسك في يديها مخططاتها المعمارية، كنت أعمل مع فريق المهندسين المدنيين، وأراقبها من بعيد، جسدها ممشوق، تحرص على ضفائر تتدلى في فتنة أسفل خوذتها التي تحمي رأسها من أي رايش أو ردم، كنت أقضي ليالي كاملة أتخيلني أعانقها، قبل أن أفاتحها في الزواج.

أشعر أن بداية العبث الذي أصابها كان بسبب عودتنا إلى مصر، واستقرارنا بها، لم أعرف هذا البلد حق المعرفة، لم أعرفه وربما لم أحاول أن أعرفه، كان الأمر بالنسبة لي أرقامًا محسوبة على الآلة الحاسبة، العودة إلى مصر، أفضل بكثير من الإقامة في بلد غالٍ مثل

الإمارات، فرص الاستثمار أعلى في بلد فقير مثل مصر، يمكننا أن نبني الشركة أو المصنع دون أن ننتهي من سداد أقساط الأرض، سوق مفتوحة لكل شيء وينمو بسرعة، قيم البيع تتزايد مع كل خطوة ويشجعها شغف الناس بالاستهلاك والشراء، هذه كانت مصر بالنسبة لي، وليست الوثائق والمخطوطات والكتب واللوحات التي رأيتها في شقة جدي، هنا مشروعي سيظهر، وسيراه الناس، لم أحاول أبدا دخول حجرة جدي على الرغم من اكتظاظ مكتبته بكتب الهندسة والتاريخ، ترك المهندس المعماري بطرس فيني المتوفى عام ١٩٧٣ عن عمر يناهز الثمانين عاما، كنزًا من الكتب والمخطوطات، حافلة كلها، إذ كان أحد أبرز مهندسي قصور أمراء الأسرة المالكة، التي انتهى زمنها، وتحولت إلى مقار سفراء، أو وزارات وهيئات حكومية، أو استولى عليها آخرون، لكن جدي كان يعشق هذه القصور، ويتتبع أخبارها في وحدته أثناء إقامة أبي في كندا، الذي اختار الهجرة إليها بعد اندلاع ثورة يوليو، كان أبي وقتها في الثانية والعشرين من عمره، يافعًا غضًّا، اختار أن يكمل دراسة الهندسة في كندا، وظل يقنع جدي أن يلحق به دون جدوى، إلى أن توفي عام الحرب، وعام مولدي، تلقى أبي نبأ وفاته، ممتزجا بفرحة قدومي، حاول بعدها الاتصال بمحامين لتأمين ملكية قصره الذي ورثه في الدقي، لكنه فوجئ أنه تم هدمه بعد وفاة جدي مباشرة، أحاطت القصر مزارع عائلتنا الوارفة، تحولت لشوارع منطقة الدقي المعروفة، أتذكر أن إحدى حدائق مزارعنا تم اقتطاعها بعد الثورة لإنشاء مسجد كبير في الدقي، لست متأكدا من هذه الرواية، لكن والدي حكاها لي بتهكم، أو ربما بشكل انتقامي ساخط، لم يعد أبي

لمصر، مات في كندا عام ١٩٩٣، عكس جدي بطرس فيني الذي عشق هذا البلد، ولم يغادره، حتى بعد تأميم مزارعه، وبناء مسجد على جزء آخر منها.

أما أنا، فقررت ألا أعود إلى مصر، إلا بعد أن أبني نفسي فعلا، سافرت إلى الإمارات عام ١٩٩٧، لأعمل مهندسا مدنيًّا هناك، كان راتبي معقولًا، بالنسبة لخريج الهندسة من كندا، عملت تسع سنوات كاملة، حتى كان بناء الناطحة التي كنت أعلو معها إلى أبواب الفردوس كلما ارتفعت طابقًا.

داخلي كنت أشعر بحاجتي للثراء الشديد، لم أصارح نفسي أبدًا بهذه الفكرة، كأنني أخجل من مصارحتها بجشعي، لكنني كنت أشعر بالغبطة واللهفة كلما تلقيت خطابًا من البنك عن ارتفاع رصيدي بالدولار، أتكتم رغبة الثراء عن نفسي، كأنني أخشى ألا يعرف سائر أعضائي بما يتمناه عقلي، أحيانا كنت أشعر أن قلبي نفسه لا يعرف ما أتمناه، وأرغب فيه بشدة، إلى أن التقيت شفق، فإذا بقلبي يجد ما ينافس به عقلي، الذي ازداد حماسه لأمنية الثراء، في داخلي دائما كنت أخشى ألا أعيش في نفس المستوى الذي كنت أعيش فيه مع أبي في كندا، أو ما يفوقه، لكن ليس أقل من هذا، كنا نعيش هناك في بيت كبير من طابقين، أشبه بالقصر، بحديقة كبيرة واسعة، سيارة فارهة كانت تقل أبي إلى عمله، وتقلني إلى مدرستي، كل شيء حولنا كان لامعًا مصقولًا، بواسطة شرائط الفيديو القديمة بمكتبة أبي أشاهد أفلامًا مصرية بالأبيض والأسود، أو أفلامًا ملونة، كئيبة أو كوميدية، كانت فكرتي عن مصر دائما تتعاظم أنها بلد فقير،

والمسيحيين فيها ضيوف، فإذا كانوا فقراء، فهم فعلا في مأزق، أما إذا كانوا أثرياء، فربما يكون لهم امتيازات، لم يتكفل أبي بتشكيل هذه الأفكار وغرزها في رأسي، لكنها كانت تتسلل من بين شفتيه، ربما بالتواطؤ، وربما دون قصد، تتناهى إليّ تفاصيل المكالمات القليلة المتبادلة بينه وبين بعض أفراد عائلته في مصر، كان يشعر بالضجر من استقبال مكالمة من مصر، الضجر ليست الكلمة المناسبة، ربما التأفف، أو الرغبة في الإفلات من قيد ما، كان يكره كل مكالمة تأتيه من مصر، وأخبار مصر، والمقارنات المستمرة التي يعقدها المصريون في كندا، بين أحوالهم المستقرة الآمنة فيها، وبين أحوال مصر المضطربة، وتحديدا أحوال الأقباط وحياتهم المهددة دائما، وممتلكاتهم، ذات مرة تلقى نبأ مذبحة بشعة في قرية تسمى ديروط بمحافظة أسيوط، كان ذلك عام ١٩٩٢، أتذكر هذه الواقعة جيدًا، لأن أبي أرسل آنذاك يشتري جريدة الأهرام الصادرة يوم السادس من مايو نفس العام، كان المانشيت الرئيسي للصحيفة الرسمية يقول بفنط أسود دام. «احتواء أحداث أسيوط»، بجوار ذلك الفنط، صورة لوزير الداخليّة آنذاك، واقفًا في مجلس الشعب، ويحاول أن ينسب المذبحة التي ارتكبها إرهابيون إسلاميون ينتمون للجماعات المتطرفة، إلى الخصومة الثأرية، خصومة ثأرية تحصد ١٤ روحًا دفعة واحدة! أتذكر أن أبي ظل يبكي حينما وصلته نسخة الجريدة بعد الحادث بعدة أيام، سألته في فضول وحيرة: مات لنا حد؟ لم يجب، ولم تضع الدولة شريطًا أسود على أوراق الصحف.

كانت أخبار المذبحة تتصدر الصفحة الأولى، دون أن يعترف المحرر الصحفي للخبر، أنها مذبحة، فيما اعترف كاتب التقرير في

صفحة ٧ من الصحيفة بالكلمة، ظل أبي يقرؤها عدة أيام، يتأمل تفاصيل المذبحة التي نفذها ١٥ متطرفًا، قتلوا خلالها ١٤ قبطيًّا، كتب المحرر في أعلى تقريره:

> في موكب جنائزي مهيب، شيع أهالي ديروط أمس جثث حادث الإرهاب الأسود، واتشحت منشية ناصر بالسواد، وخلت الشوارع والطرقات من الحركة، وأعلِن حظر التجوال حتى بين منازل العائلات الريفية، بعد أن أحكمت قوات الأمن السيطرة على الموقف، وشرعت في حملة تمشيط واسعة، بحثا عن الجناة، وكشفت الصفة التشريحية لمعظم القتلى، أن الإصابات تركزت في رءوسهم، مما يؤكد أن الجناة تدربوا جيدا على استخدام الأسلحة الآلية، وتكشف أبعادًا جديدة تشير إلى أن الحادث ثأري تحول إلى فتنة طائفية، وبينما غاب السياسيون في المحافظة عن الشارع، وانشغلوا بقضايا هامشية، كانت الدماء تسيل، والذعر يسيطر على تلاميذ المدرسة الابتدائية، وبدا واضحا أن المذبحة ارتكبت بدقة، بعد انصراف الدورية، ونتيجة لسطوة المتطرفين، أحجم الأهالي عن الإدلاء بشهاداتهم في الحادث الذي تسبب في مصرع ١٤ شخصا.

لم تنته الصحيفة هنا عن رواية وقائع المذبحة البشعة، التي تعد واحدة ضمن مئات المذابح التي فوجئت بهوس والدي في جمع أخبارها، رغم تأففه الظاهر من تلقي أخبار مصر، واصلت الأهرام، رواية وقائع المذبحة المخيفة، قالت في تقريرها الذي حرره صحفيان هما موسى بولس ومريد صبحي، إن الإرهابيين توجهوا إلى حقل عائلة ألفي سمعان الذي يبعد عن البلدة ٥٠٠ متر، ثم قتلوا

١٠ من أفراد العائلة، وتوجهت مجموعة أخرى إلى مفتش صحة المدينة، الذي كان يدعى صبحي نجيب، حاصروه داخل جراج منزله، أثناء تسخين سيارته، وضربوه بالساطور، أما المجموعة الثالثة، فتوجهت إلى مدرسة منشية ناصر الابتدائية، وصعدوا للطابق الرابع من المدرسة، حيث كان مدرس المواد الاجتماعية منصور قديس، واقفا في الفصل، يشرح للطلبة، فاقتحموا عليه الفصل عنوة، وأمطروه بست وثلاثين رصاصة، في عملية إعدام بشعة على مرأى من تلاميذه الصغار.

امتلك أبي هذه الهواية وجعلها تسليته في الأوقات التي لا يستقبل فيها نساءه، هواية تجميع أحداث الفتن والمذابح، والتي ضاعفت من حزنه الشديد على هذه الوقائع، وجعلني تأثره الغامض بها أحجم عن نقل رفاته إلى مصر، هل من الممكن أن يكون آمنا في ثراها؟ ربما نبش قبره أحدهم وألقى به في المجاري انتقاما من هوايته تجميع قصاصات مذابح الأقباط، حينما توفي عام ١٩٩٣، ارتحت لدفنه بعيدا عن مصر، دفنته بالقرب من حبيباته الكثيرات اللواتي كن يترددن على منزلنا باستمرار، وانتظرت حتى عام ١٩٩٧، لأنطلق إلى الإمارات وأحقق الثراء الذي كنت آمله.

لكن منذ أن عدنا إلى القاهرة، بدأت شفق تهاجم كل شيء، وتنتقد كل شيء، وترفض المشي في الشوارع، أو الحياة داخل مصر، استشرت البعض، فنصحوني بالعيش في الكمباوندس المتناثرة على أطراف القاهرة، كنت قد شرعت فعلا في بناء فيلا فاخرة لنا في الشيخ زايد بالقرب من السادس من أكتوبر، بجانب تأسيس

مشروع مكتب هندسي لأعمال المقاولات والإنشاءات، لكن هذا لم يعجب شفق أيضًا، اقترحت عليها أن نبني فيلا في التجمع الخامس، مؤثثة على أحدث طراز، تهكمت من فكرتي، وسخرت من تمسكي بالحياة في مصر أصلا، وداخل كمباوند، كانت تقول: طالما هتعيش جوة جيتو.. إيه اللي يعيشك في مصر أصلا؟

أقمنا في شقة جدي بالدقي، التي نجح محاميه في السبعينيات، في توفيرها بسرعة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أوراقه، قبل استيلاء الدولة على قصره، وهدمه، حينما عدنا إلى مصر، كانت أكوام الأتربة والغبار المتراكمة على أثاثها القديم، قد التهمت تفاصيلها، واحتوت معالمها، فصارت الشقة كهفًا كبيرا من التراب، جعل شفق تهرب للإقامة في شقة عائلتها بجاردن سيتي، أقنعتها بالعودة، بعدما استعنت بمكتب ديكور، تولى كل شيء، تنظيف الشقة، والقضاء على أكوام التراب، وإزالة الحشرات منها، وإعادة ترتيبها، وتأثيثها بأثاث عصري، بدلا من أثاث جدي العتيق، الذي تخلصت منه لإحدى صالات المزادات، أبقيت فقط على أوراقه وكتبه وخرائطه، مكدسة في حجرة كبيرة من حجرات الشقة، أغلقتها حتى لا تثير حفيظة شفق، أعددت مائدة شهية لاستقبالها بالشقة، جلبت أصناف الطعام من أفخم مطاعم الزمالك، ومضيت إلى أسرتها لإقناعها حتى بزيارتها لمدة ليلة، كانت صعبة المراس، أكثر من أي وقت مضى خلال حياتنا، عادت معي، لكن غطرستها وسخريتها اللاذعتين لم تتوقفا.

كانت تصب نار انتقاداتها لي على وَلَعي بالتكنولوجيا، واقتناء أحدث الصيحات الإلكترونية، سواء أجهزة الآيباد، أو كل موديل

جديد تطرحه آبل للآي فون، فاجأتني بأنها تخلت عن الآي فون، وعادت تستخدم نوكيا ٣٣١٠، كيف أمكنها أن تعثر على موديل قديم من هذا النوع؟ في النهاية عثرت عليه، وحرمني ذلك من تواصلها معي يوميا، أثناء مشاويرها في القاهرة، وغيابي في العمل بالساعات الطوال، كنت أضطر للاتصال بها كل ساعة أو ساعتين، بدلا من ملاحقتها على فيس بوك أو واتس أب، فجأة اختفت من على خريطة الشبكات الاجتماعية التي تربطني بها، وكلما طالبتها بالعودة لاستخدام الآي فون، سخرت مني قائلة: إحنا مش بنتواصل يا عزيز؟ الوسائل الخبيثة دي بتبعدنا أكتر عن بعض، بتحولنا لعبيد شاشات، قريب كمان هتلاقيني بطلت استخدام المحمول، لو عاوزني، كلمني على التليفون الأرضي.

٤

تقضي ساعات طويلة في حجرة جدي.

الحجرة التي وضعت فيها أوراق المهندس بطرس فيني، تختفي داخلها شفق ساعات طويلة، أعود من العمل، فأجدها جالسة على الأرض، وسط أوراق جدي، وكتبه، ولوحاته العتيقة، التي تصور شوارع مصر وسراياتها القديمة التاريخية، وقصورها الأثرية، فوجئت بشغفها يتقد، تعمل بحماس بجوارها كوب صيني كبير ممتلئ بقهوتها المغلية، نسيتها بجوارها فتبخرت سخونتها، تفتح عدة كتب في آن، تفترش الأرض حولها في نصف دائرة، كأنها كاهنة تتعبد، أو تمارس

شعيرة غامضة، يتأجج شغفها يوما بعد يوم بتفحص أوراق جدي، وكتبه. كان هذا بداية طريقها للشغف بتاريخ مصر المعاصر، أسرة محمد علي باشا تحديدا، لكن أي فترة؟ لم أعرف، لكنني اطمأننت عندما وجدتها مشغولة بشيء ما، كأنني تخلصت من هم ثقيل. كنت منهمكا حتى النخاع في مشروعي الجديد، وتأثيث المكتب، وإطلاق الدعاية اللائقة له، والاتفاق مع المهندسين المعاونين، والترويج لأفكاري الجديدة، كل هذا استغرقني تماما، أياما كاملة قضيتها خارج البيت منذ مطلع الشمس، حتى منتصف الليل. أعود فأرى شفق نائمة لتنجو بنفسها من حكاياتي عن يوم كامل من الإرهاق والعمل والضغط العصبي مع التعقيدات البيروقراطية، والرشاوى العديدة التي يتعين عليّ دفعها لتمرير العديد من التوقيعات على الأوراق، حتى مع كون إصدار هذه الأوراق والتوقيع عليها غير مخالف، ولا اغتصاب لأي حق. لم ألجأ أبدا لإجراء قد يهدمني مستقبلا، الخوض في هذه القصص فعلا موجع، وهو ما جعلني ظننت أن شفق تتجنبني، كنت منهمكا جدا، لا أعرف تقريبا أي شيء عنها وعن اهتماماتها، حتى عدنا من الفرح.

بعد تلك الليلة، بدت مشغولة تماما بالمنطقة، والبحث في آثار أسرة محمد علي باشا بها، أو فترة الخديوي إسماعيل، كانت تتغيب ساعات طويلة خارج المنزل، كنت أظن نفسي أقضي أكثر من اثنتي عشرة ساعة متصلة بالمكتب، إلا أن شفق كانت تقضي أكثر من ذلك في البحث عن أشياء لا أعرفها، كنا نغادر معًا في الثامنة صباحا، وأعود وحدي في الثامنة مساء، وأنتظرها حتى منتصف الليل، كنتِ فين يا شفق؟

كنت مع شاندور.

تقولها لا مبالية بانتظاري الساعات الطوال، وعذاب جوعي خلال هذه الفترة، تغير ملابسها الخفيفة، على الرغم من برد الشتاء، وتضع أوراقًا كثيرة وخرائط بجعبتها على مائدة السفرة، أقول بحيرة: مين شاندور؟

تخلع قميصها الجينز الخفيف دون أن تستجيب لنبرتي المتحيرة، تمر فترة من الصمت قبل أن تقول مترددة: عالم آثار ألماني وأستاذ زائر بكلية الآثار جامعة القاهرة.

قلت: الدنيا برد النهارده.. إنتِ خارجة باللبس ده بس؟

ارتدت منامتها، وصففت شعرها، وتفحصت ملامحها في المرآة ومررت أصابعها في بعض مواضعها المجهدة كأنها تحاول أن تعتذر لها، متحسسة بأناملها خطوطًا وهمية ببشرتها، كأنها تبحث عن خلايا مفقودة في ثنايا جلدها، قبل أن تلتقط فوطة، وتتجه نحو الحمام وهي تقول: نسيت آخد الجاكيت.

كانت هذه أول أعراض نوبة النسيان، لم أنتبه وقتها، كنت ملتفتا للعلاقة الجديدة التي نشأت بينها وبين المدعو شاندور، قلت: وليه بتقابلي عالم آثار ألماني؟

أغلقت باب الحمام، سمعت أصوات ماء خفيف، اكتفت تلك الليلة بغسل وجهها، تجاهلت أخذ حمام سريع على الرغم من هواجس تغلغل أتربة القاهرة في مسامها، غادرت الحمام مسرعة، فبادرتها: إنتِ سمعتيني؟ كنت باسأل.. بتقابلي عالم آثار ألماني ليه يا شفق؟

نظرت لي نظرة متفحصة قلقة، كأنها تراني في الشقة للمرة الأولى، قالت كلمتين مقتضبتين: باعمل بحث.

مضت إلى حجرة النوم، ودست جسدها تحت الأغطية، كأنها تريد أن تهرب من المناقشة، أغلقت نور الحجرة مستخدمة الريموت كنترول، قلت بخيبة أمل. إنتِ أتعشيتي؟ أنا مستنيكي عشان نتعشى.

قالت في خفوت، وهي تعطيني ظهرها: كلت مع شاندور.

شاندور؟ ماذا أقول لنفسي؟ اخبط راسك في الحيط يا عزيز، غمغمت بالعبارة في صدري ساخطا، في الظروف العادية لن يقبل أي زوج متزمت أن تخبره زوجته بتناولها العشاء مع رجل غيره، لكن هذه الأفكار لا يمكن أن تخطر لي على بال، أفكار الزوج المتزمت، الذي تدفعه الغيرة على زوجته إلى محاسبتها حسابا عسيرا لأنها تناولت الطعام مع رجل آخر خارج المنزل، وتقضي معه وقتا طويلا بينما زوجها ينتظرها في يأس.

تربيت في بيئات غربية، لا تدين بالأفكار المصرية، إلا أن شيئًا ما داخل جيناتنا بقي يربطنا بشرقيتنا، لعلها الجينات الدينية، لكنني لم أخط عتبة كنيسة من قبل إلا حينما تزوجنا، فكيف أستدعي الدين الآن لأتزمت، وأتعسف عليها؟ كيف أفكر أو أغضب مثل أي زوج مصري عادي؟ يجب أن أكون متخلفًا ومتزمتًا في بعض الأحيان، الأفكار الرجعية تكون مفيدة في بعض الأوقات، لكن إذا كانت حياتك كلها متحررة، فكيف تستدعي الرجعية الآن؟ لم تكن الأزمات قد عصفت بحياتنا من قبل، كنت أحنو دائما على شفق، لم أتصور نفسي أتعرض لها بالسوء، هي أيضا لم تكن غريبة الأطوار

هكذا من قبل، تناولت طعامًا باردًا، كانت شهيتي قد ضاعت بالفعل، نمت تلك الليلة مغتما، في الصباح وجدتها تستعد للخروج، وترتدي ملابس الأمس، للمرة الأولى لم تغير ملابس ارتدتها من قبل، تحرص كل صباح أن ترتدي ملابس جديدة، وترسل تلك التي استخدمتها في الليلة السابقة إلى المغسلة، قلت: لازم تلبسي جاكيت، الجو برد.. إيه حكايتك؟

قالت متبرمة وهي تسبقني إلى باب المنزل: الجو كويس.

استوقفتها متسائلا في فضول: هتقابلي شاندور النهارده؟ لاحقها السؤال بعدما كانت أغلقت الباب بالفعل، فعادت تفتحه قائلة بتبرم: لا مش رايحة الجامعة النهارده، ثم أغلقت الباب بطريقة حاولت أن تجعلها عادية، كي لا يصدر صوتا يفضح تبرمها. شعرت بالاستياء، نهضت متجهما، وارتديت ملابسي على عجل، ها هو يوم كامل يمر علينا دون أن نتناول معًا لقمة في المنزل، لم تكن المرة الأولى، لكنها هي من تتركني هذه المرة، هل ترد لي إهمالي لها منذ جئنا مصر، توجهت عابسا إلى العمل، فكرت في البداية بتتبعها، والتعرف على وجهتها، دون أن تشعر، لكنني لم أكن خبيرا في مثل هذه الأعمال، كما أنها ستشعر بالتأكيد بوجودي، عدلت عن الفكرة بسرعة، وتوجهت إلى عملي، شاردا تقريبا.. ما هي حكاية شاندور؟ عالم آثار ألماني! لماذا تعرفت عليه؟

هكذا كنت أغمغم في نفسي طوال ساعات النهار. الليالي الماضية تقريبا كانت غائبة عني، على الرغم من قربها مني بجسدها، أكاد أشمها، أكاد ألمسها، لكنني لا أراها، أحيانا كنت أراقبها في نومها،

وتتسلل أصابعي لتتحسس أناملها في خفوت، ظللت أفكر طيلة هذا النهار وأنا أمسك ذقني المدبب، في هذه اللحظة، قبل أن يأتيني هذا التليفون، كنت أفكر هل يجب أن يكون هناك دائما شيء ناقص؟ لماذا لا تكتمل هذه الدنيا مثل الرسم الهندسي، مثل الأساسات الخرسانية الراسخة، التي تحمل المبنى، أو مثل العضلات المفتولة لرياضي متمرس؟ دائما نعمل بكد واجتهاد، لكن يأبى الرب أن تستقيم الأمور مثل الخطوط على صفحة الرسم، فجأة تصيبنا علة، حادث أو وفاة، انعطاف خطير، يُحول مجرى الرسم تمامًا، يقول المسلمون. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، إنها كلمات من قرآنهم، لكنني بطبيعة الحال لا أستطيع أن أرددها، أنا أعرف جيدًا الشكل النهائي للتصميم الهندسي، هو بالتأكيد أفضل في ذهني من رسم غامض لا أعرفه، حتى إذا كان الرب هو من يرسمه، فلماذا تعلمت الهندسة إذا كنت سأعتمد على ما يرسمه الرب؟ أؤمن أن الرب موجود حقًا، أؤمن بقدراته العاتية، أؤمن أنه قادر على أن يتدخل لإنقاذي من شر، من حادث على الطريق، من مرض خطير، أو عدوى فيروسية، إيماني أناني، لأني أؤمن أيضا أن خطتي التي أضعها بنفسي، هي أفضل من أي خطة أخرى قد تكون مجهولة، قد تحوي انعطافًا لا أحبه، حتى إذا أدى بي إلى طريق أفضل من الطريق الذي أتمناه وأخطط له.

اجتاحتني هذه الأفكار المتمردة بعتو شديد، بعدما تلقيت التليفون الذي فاجأني بمصيبة نسيانها، ووقوفها على أولى عتبات جنونها، كان أحدهم يتصل بي من مستشفى، على هاتف المكتب الهندسي الذي أسسته حديثًا في القاهرة، يقول إنه عثر على رقم هاتفي من ١٤٠ أون لاين. قلت في رهبة: خير؟ و١٤٠ أون لاين مسجل رقمي ليه؟

باغتني الصوت: مرات حضرتك في المستشفى راقدة.. قالت لنا اسمك بالعافية.. إحنا بقالنا ساعتين بندور على رقمك في الدليل...

قاطعته: مش فاكرة اسمي إزاي، وتليفونها المحمول.. آي فون.. قصدي نوكيا!

قال الصوت: ماكانش معاها تليفون محمول، أو بطاقة شخصية، أو أي حاجة تدل على هويتها.. بالعافية قالت لنا اسمك، وبصعوبة كمان.

جمدتنى المفاجأة، سألته في ذعر: خير، مالها، حد عمل لها حاجة؟

كنت ألقي بالأسئلة في جزع، وأنا أفكر أنه ربما اعتدى عليها أحدهم، أو حاول التحرش بها. لم يضف الرجل المزيد، ألقى لي عنوان المستشفى. كان مستشفى أميريًّا بالجيزة، يقع بمنطقة بين السرايات، نقلتها لمستشفى آخر، فقدت وعيها إثر نزلة شعَبية حادة، نتيجة البرد الشديد، وملابسها الخفيفة، بالإضافة لحالة إعياء شديدة، لتجاهلها تناول الطعام أكثر من يومين، علقوا لها محاليل، ودفئوا جسدها، وحقنوها بالأدوية المناسبة.

التقاني طبيب بالمستشفى، فاجأني بالسؤال. إيه الحكاية.. هي الهانم مش بتلبس تقيل ليه؟

عجزت عن الإجابة، قلت واجما: نسيت تاخد الجاكيت.

فتابع أسئلته وهو يكتب ملحوظات على بطاقة شفق المرضية المعلقة بفراشها: ومش بتاكل ليه؟ نسيت تاخد إيه كمان؟

حملقت فيه عاجزا عن الإجابة، فنظر لي نظرة مستفهمة، مطالبًا بالرد في إصرار دون أن يتفوه بشيء، فقلت مترددا: آخر مرة كلت فيها إمبارح العصر.. أو بالليل.. مش عارف.

فتعجب الطبيب، قائلا: مش عارف؟ هو حضرتك تقرب لها؟

شعرت بالضيق من السؤال، السؤال الذي فضحني أمام نفسي أنني فعلا لا أمتلك إجابات، لا أعرف أي شيء عن أحوال زوجتي، الطبيب يعاجلني بالأسئلة مثل وكيل نيابة نجح في القبض على أحدهم متلبسا، ويوجه له مئات اللكمات خلال أسئلته. في الحقيقة لست أنا الذي يجب أن أتلقى هذه الأسئلة، بل هي، شفق التي وضعتني ووضعت نفسها في هذا المأزق. قلت صائحا في وجهه: هو استجواب؟ أسئلة أسئلة أسئلة.. إيه.. وكيل نيابة؟ أنا هنا في قسم ولا في مستشفى؟

انتظر الطبيب حتى انتهى صياحي، ثم علق الملحوظات المرضية، على حامل بجوار فراش شفق، والتفت لي مغمغما ببرود: آخر سؤال.. أنت بتعاملها بالطريقة دي؟

ثم تركني غاضبا محتقن الملامح وغادر الحجرة.

٥

كنت أقود السيارة ساهما حزينا، أحاول تفادي الزحام قدر الإمكان، بينما نعود إلى الدقي من المستشفى، كانت ملتحفة بالعديد من الملابس الشتوية الثقيلة التي اشتريتها لها من أحد المحالّ

المجاورة للمستشفى، قضت يومين بها، فحصها خلالهما طبيب نفسي، جلبته من أشهر مصح في القاهرة، تحدث معها الرجل حينما التقاها مرتين، خلال اليومين، ثم عاد إليَّ واثقًا، وتحدث بكلمات ممتلئة باليقين مشحونة بطاقة بطء عجيبة، كأنه يقبل أحرفه قبل أن يتلفظها، كان يتحدث، ويحدق في نقطة بعيدة خلف كتفي، كما لو كان عرافا يقرأ من صفحة كتاب معلقة في الفراغ. قال الطبيب: هي لا تعاني فقدان ذاكرة، عندها حالة انفصال مؤقتة عن الواقع، أحيانا حينما تحاصرنا المشاكل، نهرب بأي طريقة، ويكون ذلك بتجاهل التفاصيل الأخرى المسببة لمصدر تخوفنا، ونركز في أمر ما، مثل استذكار منهج علمي صعب، أو استعادة ذكريات قديمة، هل تفهمني؟ هي لم تنس حياتك كلها، والدليل أنها منحتهم اسمك، لكنها لم تستطع أن تتذكر رقم هاتفك المحمول، هناك قضية ما في حياتها، لكن من المبكر الآن أن نشخص، أحتاج لقاءها عدة مرات، كما أنني لم أعرف كيف عثرتم عليها!

ألقى كلماته، دون أن تلتقي عيناه بعيني، كدت أجذبه من وجهه ليواجهني، لم أفهم شيئًا مما قال، شعرت بالغيظ، قلت: أنا مش فاهم حاجة يا دكتور.. أحكي لك ظروفنا؟ إحنا في مصر من فترة، شفق من ساعة ما جت، وأحوالها غير السنتين اللي مروا على جوازنا، لدينا كل شيء: الفلوس، راحة البال، سكن مريح، من فترة حضرنا فرح في بين السرايات، من ساعتها واهتمامها بالمنطقة زاد، فجأة اتصلوا بي من المستشفى، قالوا لي إنهم لقيوها واقعة في شارع من شوارع المنطقة، فنقلوها إلى مستشفى أميري، قبل أن أنقلها هنا.

لا أعلم إن كنت قد نجحت في تقديم مختصر عن حياتنا، لكنني بالتأكيد لم أكن صادقا فيما يتعلق براحة البال، نعم كنا نفتقدها على نحو ما، باغتني الطبيب فجأة كأنه يقرأ أفكاري: عندكم أولاد.. أطفال؟

أجبت متخوفا من الحقيقة التي أغفلتها: لا   حاولنا نخلف.

صمت الطبيب، وهو يعاود التحديق في النقطة البعيدة الواقعة خلف كتفي، قال مرة أخرى. بتقضوا مع بعض وقت كويس.. كزوجين متحابين؟ جبت لها هدية آخر مرة إمتى؟

انخفض صوتي وأنا أجيبه متلعثما: في الحقيقة.. مش أوي.. مش زي الأول.. في الإمارات كنا تقريبا مع بعض طول الوقت.. هنا أنا مشغول بمشروعي الجديد في مصر، هذا استغرقني فعلا.. بالإضافة إلى أني بابني فيلا جديدة بعيدة عن زحمة القاهرة.

ربت الطبيب على كتفي في رفق، وقال ناصحا وهو يتأهب للمغادرة: خد أجازة وسافروا.. اقعد معاها شوية.. نمرتي معاك لو الحالة رجعت.. لكن مؤقتا الأدوية هتريحها.

غادرنا المستشفى، عدنا إلى الشقة، كانت تتحرك في بطء، كأنها تدخلها للمرة الأولى. توجهت مباشرة لأغير ملابسي لكنني ظللت أراقبها بنظراتي، متأهبًا، أنتظر خطوتها التالية، هل ستغير ملابسها، أم ستنام بملابس الخروج؟ كأنها سمعت أفكاري، قالت بينما تحدق فيّ عبر مرآة التسريحة: ما تقلقش يا عزيز.. أنا مش ناسية.. هغير هدومي.. وهحضر لك تتعشى كمان لو حبيت.. مش ناسية.

قلت في سرعة، متظاهرا أن ظنها ليس في محله: أنا واثق في عقلك يا شفق، بس أنا مش عارف أنا قصرت في حقك إزاي.. قولي لي ممكن أساعدك إزاي، وأنا هكون جنبك.

حاولت أن تدافع عن نفسها، كانت تغير ملابسها بينما تقول: أنت ما عملتش حاجة، أنا أجهدت نفسي بس شوية، لكن اهتماماتي مش المفروض تشوشر عليك، وتقلقك، أنا آسفة.

قلت: لو تحبي نسافر نغير جو، إيه رأيك نروح باريس أسبوع، ونرجع بسرعة، أو أبو ظبي.. إيه رأيك نزور زمايلنا هناك؟

كانت قد استلقت، وحدقت في سقف الحجرة، لم تجذب الغطاء على جسدها، الحجرة باردة، فاتجهت صوب المدفأة، إلا أنني توقفت عندما قالت: في الحقيقة.. حاسة إني مش عاوزة أسيب مصر خالص.. عندي شغل كتير هنا.

جلست قلقا، مرتابا، أتذكر ما قاله الطبيب في تفسيرات حالتها، ربما لم يصارحني أنها قد تكون مشغولة بشخص ما، الهاجس كان مؤلما فحاولت دفعه بعيدا عن ذهني، قلت: شغل.. شغل إيه يا شفق، إنتِ ما كنتيش طايقة مصر، دلوقتي بقى عندك فيها شغل؟

ابتسمت ابتسامة لم أفهمها، قبل أن تقول: ومش هتصدق إيه كمان.. مش عاوزة أسيب الدقي.. أنا مرتاحة هنا أكتر.

ظللت محدقا في ابتسامتها الغامضة، تناولت الريموت كنترول، ازداد شكي بغتة، ربما يكون هناك رجل مشغولة به، فصارت غريبة الأطوار، تهيأت لإغلاق النور، اقتربت منها، وتحسست كفها،

قائلا: اللي يريحك، أنا بكرة مش هاروح المكتب، إيه رأيك نعزم شاندور على الغداء، ونقعد نتكلم على الحاجات اللي إنتِ عاوزة تعملي عليها بحث؟ كنت أنتظر رد فعلها بفارغ الصبر، ربما ارتبطت بعلاقة عاطفية مع هذا المدعو شاندور، فوجئت بقولها في هدوء مريب: موافقة.

٦

من اللحظة الأولى التي دخل فيها شاندور البيت، تضاعفت شكوكي في أن يكون الرجل على علاقة بشفق، أو أن يكون قد أعجبها، دون أن يبذل مجهودًا كبيرًا، أو حتى يحاول أن يلفت انتباهها، هل عجزت أن تكبح جماح نفسها تجاه شاندور؟ أنا نفسي لم أستطع أن أمنعني من الإعجاب به، كلا بالتأكيد لا توجد داخلي بذور للشذوذ، لكنه كان وسيما فعلا، أنيقًا جدًّا يرتدي قميصا قطنيًّا أبيض اللون، ياقته بها بعض الخطوط الكحلية المتوازية الأنيقة، هذه الأشياء لم يكن من المفترض أن تثير غيرتي، أو حفيظتي، خاصة أن دولابي يمتلئ بها، لكن لأنها مع شاندور تمثل المعادلة «أنا +»، أنا الذي أمتلك المال الذي يوفر لي شراء مثل هذه الأطقم الغالية، من أشهر محال أوربا والخليج، لكن الإضافي فيه، هو.. أي شاندور، أنه العالم الأجنبي، القادم من ثقافة أخرى، كأنه هبط من مركبة فضائية، قادما من كوكبه النظيف دائما، شديد اللمعان والبريق الزجاجي في آن، غازيا بعالمه الأسطوري، الذي يثير زوجتي شفق، ولديه معرفة بتاريخ أجهله، ولديه أوراق وخرائط

مثيرة، وضعها بجواره، في اللحظة الأولى التي دخل فيها إلى شقتنا، ليتفرغ لتأملها.

كنت قد أعددت مائدة فاخرة، جلبت الطعام من أحد مطاعمي المفضلة بالزمالك، لكنه بدا ملهوفا على دخول حجرة جدي، لرؤية أوراقها القديمة، قلت مبتسما، ابتسامة بلهاء حاولت أن أداري بها غيظي: يمكن للطعام أن ينتظر، المهم الفضول العلمي.

لم يعقب، كانت شفق تقوده مثل مرشدة سياحية، عبر أيقونات جدي المسيحية، ولوحاته، وصور السرايات التي يحتفظ بها في الحجرة، اكتشفت أنها قضت الليلة السابقة، تنظف الحجرة بنفسها في همة ونشاط، وتعيد ترتيب اللوحات، وتعليقها على الحائط، فتحولت الحجرة بعد ساعات إلى متحف صغير، أطر الأيقونات كانت لامعة، تبرق في الإضاءة الخافتة التي زودت بها الحجرة، وقفت النادلة التي جلبتها من المطعم الشهير مع الطعام تنظر نحوي في ضجر تحاول أن تخفيه، لكنه كان يطل من نظرات عينيها، ترمق شفق بنظرات ملولة، شعرت بالخجل من نفسي وأنا أتذكر استعداد شفق لزيارة شاندور، استعدادات عاشقة وتهيؤ حبيبة، تنتظر الزيارة الأولى لحبيبها، لكنني في نفس الوقت لم أستطع أن أصرّح بما يعتمل داخلي، داريت خجلي بالاقتراب من النادلة، تظاهرت بانشغالي في إضفاء لمسات أخيرة على الأطباق فوق المائدة، وتحسس زجاجات الشامبانيا والواين الأحمر، والأبيض، وكذلك علب البيرة، لم تكن لديَّ فكرة عن الضيف، وميوله، وما يفضل أن يشربه، أخذت أتحسس الزجاجات، والنادلة ترمقني بنظرات

فضولية، ترى زوجين، أحدهما يقف أمامها تاركا زوجته مع رجل أجنبي داخل حجرة أخرى، من حقها أن تتعجب.

حينما دخل شاندور الشقة، ابتسم لي ابتسامة واسعة، وقال باللغة العربية: لديَّ حكايات عديدة سأحكيها لك، ستثير اهتمامك، أظن أنني وطأت مناطق في بلدك، لم ترها، ولن تفكر في زيارتها من فرط خطورتها.

جاءت كلماته استعلائية في البداية، لكنني ابتلعتها، كنت أشعر أنني متوجس من الرجل، لذلك أقابل كل تصرف وكل كلمة بحنق، وسخط، فكرت أنني يجب أن أصبر عليه قليلا، حتى تتكشف كل الحقائق، قلت بالإنجليزية: هل ذهبت إلى مناطق شعبية أم تقصد مناطق أثرية؟

أجابني. لن تتخيل، من المفروض بحكم كوني دارسا للتاريخ أن أذهب للمناطق الأثرية التاريخية، التي عكفت على دراستها وأعيد تدريسها، فوجئت أن هذه المناطق أغلبها تحول إلى مناطق شعبية، للأسف، أنتم تأكلون كل شيء يا صديقي العزيز، حتى التاريخ، وليتكم تأكلونه بعقولكم، بل تأكلونه بطمسه، وهرسه، وتحويله إلى عجين ورماد، لا يصلح حتى للمضغ، ثم للأسف، تتغوطونه، وتعيدون أكله مرة أخرى، وهكذا باستمرار حتى لا تستطيع أن تعثر على تاريخكم الحقيقي، في أكوام خراء التزييف والتدليس المستمرين.

صدمتني كلمات الرجل، ظهر على وجهي الامتعاض، فضحك ضحكة مجلجلة، ثم قال: سامحني، أنا لا أقصد إفساد هذه الأمسية، ولا الطعام الجميل الذي أعددتموه من أجلي، علماء

التاريخ أحيانًا يتلفظون بألفاظ بذيئة من انفعالهم بتسرب التاريخ من بين أصابعهم، لكن ما تعرضتُ له في مصر منذ وصولي للمطار صدمني حقا، خاصة عندما زرت أحياء أثرية قديمة، فوجدت الناس يستوطنونها، ويعيشون فوقها، كأنهم لا يعرفون قيمة الكنوز التي أسفل مؤخراتهم.

قلت في نفسي: ما شأني بالمناطق التي لم تعجبه، ثم استدركت: لا بأس، دعه يحكي، ثم قلت بصوت مسموع بالعربية: يعني أنت مش مبسوط في مصر؟

قال: بالعكس، مبسوط، وسعيد جدا، وأكثر شيء أبهجني، تعرضي ذات مرة لعملية نصب واحتيال مثيرة، كان ذلك عقب نزولي من الطائرة بساعة، لولاها ما كنت عرفت المدينة على حقيقتها، ثم أطلق ضحكة مضيفا: يمكنك أن تقول إنني استمتعت بالمغامرة.

استرعت حكايته اهتمامي، كانت شفق في هذه الأثناء تراجع اللمسات الأخيرة في حجرة الطعام مع النادلة، نظر شاندور في أنحاء الشقة، كأنه يعاين كهفًا، شعرت بالغيظ، إلا أنني كظمته، يعرف أشياء كثيرة، حتى عن جدي، لمَ أقحمَته شفق في حياتنا بهذا الشكل؟ بدا لي السؤال هزليا، لكن جدي يخصني ولا يخص شفق وليس من حقها أن تجلب أحدهم ليقلب في مقتنياته كما يحلو له، قلت محاولا التغلب على هذه الفكرة: اهتمامات شفق الجديدة بالتاريخ خلتني شغوفًا لمقابلتك.

قلتها في لهفة كمن يلقي خيط صنارة في الماء، فقال وهو يهز كتفيه في استهانة كأنه لا يبالي بكشف سر شفق: آه، زوجتك تزعم

أن معها حجة عزبة أثرية قديمة في منطقة بين السرايات في الجيزة، في الحقيقة الحُجة مثيرة للاهتمام، لكونها مكتوبة بنفس الأسلوب الذي كانوا يكتبون به الحجج القديمة زمن الخديوي إسماعيل، حيث ترجع الحُجة لعهده، جلبت لزوجتك خرائط قديمة لمنطقة بين السرايات، عثرنا فيها على موقع العين المشار إليه في الحجة، عزبة تسمى عزبة الوقف، لكن لا أعرف ما تنتويه شفق بالضبط، إنه ليس كشفا أثريا على أي حال، آلاف المناطق القديمة التي ترجع لعهد محمد علي وأبنائه مطمورة أسفل شوارعكم الجديدة، شيء مؤسف أن التخطيط لم يراع أثرية هذه الأماكن.

قلت وأنا أرنو بنظرات عابسة نحو شفق: جيد، أشكرك على هذه المعلومات، شفق لم تخبرني بها مطلقا.. تخيل.. عندنا في مصر يقولون مثلا دارجا: الزوج آخر من يعلم.

أقبلت شفق في هذه اللحظة وقالت: بالتأكيد كنت ستعرف كل حاجة يا عزيز، لكنني فقط انتظرت التأكد منها، بالأدلة العلمية والتاريخية، والورق والخرائط اللي مع شاندور، أحسن تفتكرني مخبولة.

وضعت ذراعي على كتفها وطوقتها في حنان، قائلا في رقة، محاولا كتمان قلقي وغيظي: إزاي بس يا حبيبتي تظني فيَّ كده، أنا برضه يا شفق أفتكرك مخبولة، إيه الكلام ده؟!

كلماتي كانت فاشلة تماما في مواراة مشاعري الحقيقية، كان مفضوحًا أنني أتظاهر بعكس ما يحدث في أعماقي، فضولي يتأجج داخلي، لكنني شئت التمهل، حاولت إحاطتها بقدر من الطمأنينة،

لكنها شعرت بالحرج من معانقتي لها أمام شاندور، اطمأننت لهذا الشعور، قصدت أن أحتضنها كي أردعه عن التفكير في اختطافها مني. تحرّكت عائدة إلى غرفة الطعام، وهي تومئ للضيف قائلة: اتفضل يا شاندور وبعد الأكل نشوف الهدية اللي معاك.

تحرك شاندور نحو الغرفة، وهو يقول لي: زوجتك لديها فضول علمي نادر، خاصة أن تخصصها حسبما كشفت لي، لا يمت لعلم التاريخ بصلة.

قلت: المسألة تبدو أكبر من هذا، كنت أقولها قلقا، فالتفتت لي شفق وقالت: هي فعلا أكبر من فضول علمي.. خلينا نأكل الأول. والتمعت عيناها ببريق سريعا ما انزوى، بينما تستدير نحو غرفة الطعام.

أي مفاجآت تخبئينها لي يا شفق؟!

٧

حينما دخل حمزة أبو نور حياتنا، كان ذلك بعد عشائنا مع شاندور بعدة أشهر، لم أكن أعرف أنه سيتسبب في الطوفان الذي انفجر فيما بعد، وجرف شفق من حياتي للأبد، وورطني في جريمة قتل.

في اليوم الذي التقيت به شاندور لأول مرة، كشفت لي شفق مشروعها الخطير، كشفت لي رغبتها في استعادة عزبة الوقف، الأراضي التي كتبها الخديوي إسماعيل لجدها بقطر الجاولي. قلت لها: شفق.. إنتِ واعية بتقولي إيه؟ البلاد دي كلها كانت

ملك ناس تانية، أجانب وأرمن، أتراك وباشوات، كلهم هجروها وسكنها السفلة، والمنحطون، اللي منهم بقى الوزير، واللي منهم لسه مستني يبقى وزير، إيه حكاية المطالبة بأرض جدك دي؟ طب ما ييجي الإنجليز يطالبوا بالسكة الحديد.

كان شاندور يتابع مناقشتنا في بدايتها صامتًا، بعدما فض أوراقه، وكشفت خرائطه حقيقة وجود عزبة الوقف في منطقة بين السرايات القديمة، لم أكن أعرف أن المنطقة اسم على مسمى، وأنها حوت في يوم من الأيام سرايتين، لأبناء الخديوي إسماعيل، في المنطقة المواجهة لجامعة القاهرة، التي كانت آنذاك أراضي زراعية مترامية تمتلكها البرنسيسة فاطمة بنت الخديوي، شقيقة البرنسين، حسن وحسين، مالكَي السرايتين، سرايا حسين الأمير الذي صار فيما بعد سلطانًا، كانت في المنطقة التي تحتلها حاليا كلية الفنون التطبيقية، أما سرايا حسن، فهي في المنطقة التي يحويها مصنع الكحوليات القديم، الذي كان مملوكا لشركة الأهرام للمشروبات، والذي تحول الآن إلى أراضٍ مهجورة، تحوي المبنى القديم للمصنع، وتمتلكها الجامعة، بين السرايتين، كانت هناك العزبة المزعومة التي تمتلك شفق حجتها.

قلت غاضبا: حسنا، العزبة كانت موجودة، وعندك في أوراق جدك ما يفيد أنها كانت ملككم يومًا ما، إيه اللي فكرك بيها دلوقتي؟ إنتِ عاوزة تدمري حياتنا!

كانت تنظر إليّ بينما أقول هذه الكلمات، كأني من المريخ، كائن فضائي يسير على أنبوب متصل بأنفه، بينما نظراتها هي التي كانت

ذاهلة، تحدق في الفراغ، كأنها تقول لنفسها: اصبري على المجنون، افتعل شاندور سعالا، لينبهني إلى وجوده، نجحت محاولته، كبحت غضبي، قبل أن يتطور أمام السيد الأجنبي، لا داعي لأن يحتقرنا كما احتقر المناطق القديمة التي زارها، لكن شاندور كان ينوي التدخل في الحديث، قال: أظن أن زوجتك لا ترغب فعلا في استعادة المنطقة، لأن هذا أمر صعب، كما أظن يا سيدة شفق، لكن على الأقل، الكشف عن هذه الأوراق الآن، سيؤكد أن هناك انتهاكات مستمرة للتاريخ...

قاطعته قائلا في حدة: ده كلام فارغ، دي بلاد لا بيهمها تاريخ ولا جغرافيا، ولا حد أصلا عارف بكرة فيه إيه، ولا فيه أي خطة أصلا لأي حاجة، أنا عايش حياة هادية يا شفق، وماعنديش استعداد أهِدها ورا سراب.

لم ترد أو تشتبك مع غضبي، اكتفت بالصمت، كنا قد انتهينا من تناول الطعام، لملمت أوراقها، وخرائط شاندور ووضعتها في ملف بلاستيك محكم الغلق، ومضت به إلى حجرة جدي، انتهت الأمسية بتناول المشروبات الكحولية، والتسامر الحذر في أي موضوعات اجتماعية وسياسية. حاولنا تجنب قدر الإمكان فتح الموضوع مرة أخرى، لكن ذلك لم يُطفئ ناري، بالعكس ازداد حنقي، غادرنا شاندور، وظللت الليل قلقا، خاصة أن شفق لم تبادر بالاحتجاج، أو الغضب ردا على حدتي أمام الأجنبي، كأنها صارت مانيكانًا لا يشعر، ولا يثور. غيرت ملابسها، ودخلت حجرتها، ونامت، ظللت واقفًا في الشرفة أحتسي كئوس

الواين، غضبي لم يزل كامنا، ليتها احتجت، أو ثارت بعد مغادرة شاندور، كان ذلك سيهدئني قليلا، حاولت أن أدخل الحجرة، حجرة جدي التي وضعت فيها الأوراق، في الملف البلاستيك المحكم، شعرت بالحيرة، الحجرة مرتبة، لكنها مع ذلك مكتظة بالأشياء، الأوراق مرتبة فعلا، لكنها مصفوفة صفوفا تحتاج لمسة واحدة لتتهاوى، وتحدث ضجة، لا أريدها أن تضبطني محاولا العبث في أوراق جدي. النبيذ الذي يجري في عروقي أوجس لي بفكرة حرق الغرفة، تخيلت الفكرة، النار تتأجج في الأوراق، وتحاصرنا، أحاول الفرار، بينما زوجتي تحترق نائمة، أفشل في الهروب من الحريق، فأقفز من النافذة، لكنني أهوي ويصطدم جسدي بالأسفلت.

جبنت حينما مرت على رأسي هذه الخواطر، حانت مني نظرة إلى الأيقونات واللوحات المتناثرة على الحيطان، المسيح كان معلقا هناك مصلوبا، تحين من وجهه نظرة متألمة، وجهه محني على الكتب والأوراق، كأنه ينظر لها نظرات أخيرة قبل صلبه، كأنه يودع أوراق جدي، قبل اعتلائه الصليب، بجوار المسيح، كانت هناك لوحة لجدي، صورته باهتة، لكن عينيه تحتفظان بنظرات قوية، باسمة في سخرية، كأنه يسخر من حيرتي، وضعفي، وبؤسي، كأنه يقول لي: البؤس ليس ذنبك، بل لعنتي، حينما تركت والدك يترك البلاد، ليربيك في بلاد غريبة، فتنشأ ناقما على كل شيء، اختر شيئا يا حفيدي، اختر شيئًا، إما أن تكون نفسك، وإما أن تتبع هوى زوجتك.

لم ينجح احتجاجي في إيقاف طموح شفق المستعر، شعرت

أنني مقيد في عربة شديدة الجموح بجنزير ملتهب، تشتد سخونة حلقاته على صدري، ووجهي، لا أستطيع أن أوقف جموحها، ولا أستطيع أن أقفز وأحرر نفسي من العربة، أيام قليلة ووجدتها ترفع قضية أمام القضاء الإداري لإثبات حجة الخديوي، وإخلاء المساحة المعروفة بعزبة الوقف في خرائط وزارة الأشغال العمومية، التي مدها بها شاندور، القاضي حدق في الأوراق التي قدمتها شفق عبر محاميها، ثم نظر لها باستخفاف، وقضى برفض الدعوى، وإلزامها بالمصاريف، كل الخطوط الهندسية التي حاولت أن أرسمها للموضوع تقول إن القصة انتهت عند هذا الحد، لكن القصة لم تنته، بل بدأت، ففي قاعة المحاكمة كان يجلس المحامي حمزة أبو نور، الذي استمع إلى قرار القاضي، ورمق في فضول تلك السيدة التي تنوي طرد الآلاف من مساكنهم في بين السرايات، من أجل حجة أثرية عتيقة.

رمقها في فضول، وفي شهوة، كلا لم أره يفعل ذلك، بل خمنت أول مرة اقترب منها، خمنت أن أول فكرة جالت بخاطر زوجتي شفق في هذه اللحظة، هي كيف يبدو الرجل وسيما متأنقا على الرغم من سمته الديني المتشدد الواضح، كانت هذه الأفكار التي جالت بخاطري حينما التقيت حمزة أبو نور لأول مرة، مفتاح الكارثة، سبب الخراب الذي حل بحياتي، وحياة آخرين كما تبين لي بعد ذلك، بعد زيارة شاندور بأشهر، كان يحاول إسداء خدماته لشفق، كما فهمت منها، قلت لها في ضيق، في الليلة التي أرادت فيها أن تحصل على إذني لدعوته للمنزل: إحنا مش هنخلص، القضية وخسرتيها، أفكارك هتوديكي لحد فين؟

نظرت نحوي في حذر، كانت تقف أمام المرآة تخلع ملابسها، توقفت فجأة وجذبت ملابس النوم في حدة، وغادرت الحجرة في حركة عاصفة، كأنها تعاقبني بحرماني من مشاهدة جسدها بينما تغير ملابسها، نهضت إلى التليفون، هاتفت والدها، انتظرت دقائق، قبل أن يأتيني صوته على التليفون، يبدو متبرما، كان على وشك النوم كما ظننته، قلت غاضبًا دون أن أبدأ المكالمة بتحيته: عمي.. لو سمحت.. أنا خلاص، ما بقتش عارف أعمل إيه مع شفق.. لازم تتدخل.

لم يتأخر الرجل، وعدني بكلمات مقتضبة أن يزورنا في الغد، عادت شفق وقد ارتدت قميص نومها، راقتني، كانت قد وضعت مكياجا مثيرا، بالإضافة إلى ما كشفه قميصها من ثنايا لحمها، دققت النظر في تفاصيل جسدها المثيرة، كيف أصبر على كبح غريزتي نحوها بهذا الشكل، ربما هذا هو الحل، اقتربت منها في هدوء نمر غاضب يعجز عن التقاط أنفاسه بعد مطاردة فاشلة مع وليمته المستعصية، مددت أصابعي نحو جسدها مرتعشا، تحسست كفيها، استجابت لارتعاشي، التفتت نحوي، وقالت في خفوت: عاوز إيه مني يا عزيز، أنت مش كلمت بابا.. كأني عيلة صغيرة بتستدعي ولي أمرها.. أنا فعلا.. مش طايقاك.. ولا طايقة لمستك.

تراجعت خائب الأمل، صدمتني الكلمات، مش طايقاك.. لهذه الدرجة، ماذا جرى لعقلك يا شفق؟ من أي فتحة من فتحات مسامك تسرب إليكِ الجنون، الآن صرتِ لا تطيقين اقترابي ولمساتي! جلست حانقًا، ثم تناولت الجاكيت، وغادرت، لا أعرف وجهة، لكنني غادرت.

٨

فايف بيلز.

هنا تجتمع كل الآلام، وتجد ما يُسكّنها بين رشفات الكئوس، أحدق في السائل اللامع داخل كأسي، على سطحه الأحمر تنعكس ابتسامة مترقبة لمارينا.. لا أعرف إن كان هذا هو اسمها الحقيقي أم لا، لكنها كانت تترقب مني إشارة هذه الليلة، أو هكذا ظننت، يا له من مطعم هادئ جميل، كل ما فيه سحر، نساء فاتنات، تفوح منهن روائح مُسكرة، أفضل بالتأكيد من رائحة شفق، التي صار يغطيها تراب كتب جدي. ما أجمل النساء اللواتي يعرفن أن لديهن أنوثة يجب أن يتمتعن بها، يستثمرن ملامحهن الناضرة، وأجسادهن الممشوقة البضة، الملفوفة في طيات ملابسهن الحابكة بسحر وفتنة، والتي تهتز مع كل إيماءة وهمسة، ترتفع ضحكات، وأنا وحيد، وحيد هنا على المائدة الأنيقة، الباردة، التي تناولت عليها منذ لحظات طعاما شهيا للغاية، لكن ذلك لم يضيع وحدتي، كنت أود أن تشاركني فيه إحدى هذه السيدات اللواتي يجلسن بالتأكيد مع رجال سعداء، غير مقترنين بحمقاوات مثل شفق، بالتأكيد السعادة هي ألا تقترن بحمقاء تفكر في طرد سكان حي بأكمله لتحقيق حلم عابث، أي حلم، بل هو الجنون، كانت عيناي تدحرجان نظرات جائعة محرومة على أجساد النساء اللواتي يملأن المكان بهجة، ورائحة عطرة، وضحكات ناعمة، صاخبة، مثيرة، كنت أشعر بعينَي مارينا، لكن اليونيفورم يخبئ كثيرًا من لحمها، يظهر تكور ثدييها، أسفل

القميص الحابك، كما يظهر كذلك خصرها الملفوف الممتلئ، وعجيزتها المثيرة، لكن لحم وجهها الممتلئ، لا يشي أبدا بكونها عاملة في بار، أو حتى مشرفة على العاملات، إنها بنت عز لا ريب، أو أحدهم ينفق عليها ببذخ، ويملأ هذا اللحم بدأب وسخاء.

اقتربت مني مارينا بخفوت، تمشي وكأنها لا تمشي، بل تتحرك بحنو، خطواتها كطبطبات هادئة من قدميها على الأرض، لا أظنها ترتدي حذاء بكعب مدبب قد يؤلم وجه الأرض، إنها رقراقة، كل تفاصيلها تهمس، قوامها الممتلئ لا يرتج بينما تتحرك، تفرض سيطرة هائلة على تفاصيل جسدها، لكن لا يظهر على وجهها أي معاناة من هذا التحكم المفرط في أعصابها، وخلجاتها، وجهها صبوح، وجدتها على رأس مائدتي، لم أنتبه إلا حينما همست، وشفتاها تكادان لا تنطبقان، كأنها لا تريد أن تخنق كلماتها بأن تلملم شتات حروفها، قالت: حضرتك شربت كتير.

قلت ولم أكن قد انتبهت بعد إلى أنني أكثرت في الشراب: وماله؟ ما أنا واكل كويس.

قالت بعطف مريب، لكنني أحببته: لكن ده كتير قوي على حضرتك.

شعرت بحيرة، من المفترض أن تكون سعيدة بسقوطي في دوامة لا نهائية من الشراب، فلماذا تبدي اعتراضًا، قلت محاولا الابتسام: حظ المبتدئين.

قالت في حزم رقيق، لم يستفزني: لكن ده كتير.. لو حضرتك بيتك بعيد.. أنا ممكن أوصلك.

ضحكت بصخب، ثم كتمت الضحكة خشية أن تشعر بالحرج، قلت: العكس هو اللي المفروض، إني أنا اللي أوصلك، لو محتاجة توصيلة.

قالت في هدوء، وعيناها ترمقاني بنظرة لائمة: أنا مش بخلّي حد يوصلني أي حتة، لكن ممكن أساعد حد محتاج فعلا إنه يروح بيته.

اعتدلت في مقعدي، تراجعت بظهري إلى الوراء، فشعرت بثقل الشراب، هنا فعلا شعرت أنني أكثرت من الخمر، قلت بنظرة جزعة: الظاهر إني تعبان.. معلش هو الحمام فين؟

ثم ندمت على ما قلته، يا للعار، طالما لن أحتمل الشراب، لماذا ورطت نفسي في تجرع هذه الكمية؟ امتدت كفاها نحوي، كأني طفلها تعينه على أن يخطو خطوته الأولى، أمسكتني في حزم، وعاونتني على النهوض بهدوء دون أن نلفت أنظار الناس حولنا، قادتني إلى الحمام الرجالي بشجاعة، ودخلت معي دون تردد، ما فعلته معي مارينا في تلك الليلة، عوضني عن أمي فعلا، أمي التي لم أرها، ولا أعرفها، وعن شفق التي هجرت حياتنا إلى عبث، أمسكتني مارينا من خصري، بينما مصاريني تتلوى وتجلد أحشائي، ظللت محنيا على قاعدة الحمام، تقبضني مارينا بقبضتيها، تسندني على الأصح، تحميني من السقوط مغشيا عليّ، كأنها تعينني على إتمام ولادة جنين، ظلت معدتي تلفظ الشراب، وكل الطعام الشهي الذي تناولته، والذي دفعت فاتورته في نهاية الليلة، الطعام والشراب لم يغادرا المطعم، من الشيف إلى معدتي، ومن معدتي إلى حمام المطعم مرة أخرى.

متى انتهت هذه الليلة؟ لا أتذكر متى نمت أصلا، آخر شيء أتذكره أنني عدت منهكا إلى مائدتي تلاحقني نظرات ساخرة، ثم أظلمت الدنيا بغتة حينما جلست على مقعدي.

استيقظت في الظهيرة، كنت راقدا على فراش وثير، في منزل غريب، إضاءة الحجرة خافتة، كيف جئت إلى هنا؟ متى جئت؟ متى نمت؟ كيف نمت؟ كنت أرتدي جاكيت بيجامة، بدلا من قميصي وجاكيت البدلة، لم أزل أرتدي بنطلوني، كأن من استبدل ملابسي خشي أن يحرجني بخلعه من على جسدي، لكنه فك الحزام، ليحرر معدتي من أي وجع أو قيد. لم أعرف ما يجب عليَّ أن أفعله، تنحنحت بصوت عالٍ، فانطلق سعال مباغت من حنجرتي، شعرت باحتقان مفاجئ في حلقي، كأن بقايا قطرات الكحول لم تزل هناك، دخلت مارينا على سعالي، كانت ترتدي ملابس نوم أسفل روب منزلي تلفه حول جسدها في حرص لكنه مع ذلك حدد منحنيات جسدها، بدت أكثر فتنة في الروب الذي تطل منه بعض تفاصيل قميص نومها، بدت أكثر فتنة من اليونيفورم الذي كان حابكا على لحمها أمس في البار. ظللت أتأملها بنظرة ممتنة، محرجا من أن أقول شيئا، منحتني ابتسامة هادئة مطمئنة، وقالت: مش هقول لك طبعا قد إيه أنت كان نفسك تنام، ودا تقل وزنك أكتر، ماعرفتش أشيلك إلا بمساعدة ثلاثة من زمايلي، جبناك هنا البيت، وبعد كده حاولوا يستنوك يمكن تصحا، لكن كان من الواضح إنك ما نمتش بقالك سنة.

إذن فزملاؤها يعرفون أنني معها في البيت، وهذا لم يسئ لها؟ قلت محاذرا: يا رب ما أكونش عملت تصرفات مزعجة وأنا نايم...

ضحكت ضحكة خافتة، وقالت: خالص.. بالعكس أنت كنت في إيدينا زي الطفل الصغير اللي عاوز حد يطبطب عليه.. المهم، معدتك دلوقتي كويسة؟

أي نوع من النساء هي، متهتكة؟ أم وقورة وبنت ناس؟ وهل هناك بنت ناس تعمل في بار ومطعم مثل ذلك الذي تعرفت عليها فيه، إلا إذا كان المطعم يشترط أن يكون العاملون فيه من أولاد الناس؟ هل ستطلب مقابلًا لمساعدتها لي؟ هل تصلح أن أرافقها أم أنها مرتبطة بأحدهم؟ لا يمكن أن تكون مع أحدهم؟ بالتأكيد لا، لن يتركها أحدهم تصطحب المخمورين كل ليلة إلى فراشها، لم نتبادل سوى خمس عبارات، وأفكر فيها بهذه الطريقة، لعل سبب ذلك أنني أرقد في فراشها، مرتديا «بيجاما رجالي» وأصابعها لا ريب هي التي فكت قيد حزامي، قلت وأنا أحاول أن أجس نبضها بحيلة طالب في الإعدادي: أنا آسف إني حرمتك من سريرك.

جلست في مواجهتي على مقعد بجوار باب الحجرة، وهي تقول بابتسامة طفولية: لا خالص.. أنت ضيفي.. المهم إنك تكون ارتحت، لو أعرف عنوانك والله كنت وصلتك.

كدت أقول: الحمد لله إنك ما تعرفيهوش، لكنني تراجعت، ثم فكرت قليلا، إذا كانت فعلا تعني ما تقول، لبحثت فيِ محفظتي، وأوراقي الشخصية، وعرفت بسهولة عنواني، تخلت هي عن بسمتها الطفولية وهي تسأل باهتمام: أنت متجوز؟ أنا شايفة في إيدك دبلة.

تذكرت تليفوني.. شفق.. نظرت بجواري، لم أجده، نهضت مارينا

كأنها فهمت، توجهت إلى دولابها، من بين ملابسها التي كشفتها ضلفة الدولاب الذي فتحته، أمسكت الجاكيت وأخرجته من الدولاب، شعرت بالتفاؤل، ها هي قطعة من ملابسي تقترب من ملابسها، قطعت هواجسي بقولها كأنها تتأكد من ظنها: عاوز تليفونك؟

مغمغما: آه.

ناولتني التليفون، فحصته بنظرة، ثم أغلقته وأعدته إلى جانبي في يأس، لم تقلق شفق لغيابي، ظهر على ملامحي الأسى، شعرت بحزني، فقالت في خفوت، كأنها تواسيني: أحضر لك تفطر؟

باغتها متسائلا في محاولة فاشلة لإخفاء ضيقي: إحنا فين صحيح.. بيتك قريب من مكان شغلك؟

قالت ضاحكة: لا بعيد شوية.. إحنا هنا في منطقة الطوبجي.. أكيد تعرفها.. دي أشيك منطقة في بين السرايات، غير المنطقة القديمة منها، اللي اسمها الخرطة، أكيد أنت ما تعرفش المنطقة دي، شكلك ساكن في مدينة نصر، أو في مصر الجديدة، عموما شوف تحب إمتى تقوم تفطر، مش هسيبك تمشي إلا لما تاكل.. أنت تعبان ومعدتك فاضية من بعد ما تعبت في المطعم.

تركتها تتحدث دون أن أعلق، كنت ساهما، مصيري يبدو كأنه ارتبط بهذه المنطقة، ها أنا أعود إليها رغما عن أنفي، محمولا على الأعناق، مثل الذبيحة، لا أحد يدري، ربما يحين الدور على مارينا، وترغب شفق بطردها من منزلها، من أجل استعادة حق جدها المزعوم في المنطقة، ساعتها سيكون من الأفضل أن أبادر بالاختفاء

من حياة مارينا إلى الأبد، أغادرها كما دخلت بيتها ضيفا عابرا، أو لعل وجودي إلى جوارها يعطيني سببا جديدا لمواصلة المعركة ضد أحلام شفق التوسعية، يا للبؤس: «مهندسة قبطية ترفع دعوى قضائية لطرد سكان منطقة بين السرايات من بيوتهم»، تخيلت ذلك عنوانا في صفحة المنوعات والموضوعات المضحكة بجريدة ما، مسكينة يا شفق.. مسكينة؟ أم أنا المسكين؟

٩

أنا المسكين.. أنا المسكين الذي لم تمتد إليه يد أنثى منذ صغره، لتربط له حذاءه، أو لتصفف له شعره، أو حتى لتدس له ساندوتشات المدرسة في حقيبته، أو حتى لتذاكر له دروسه، أو لتقضي له حاجته، وتمسح له مؤخرته، أنا المسكين وليس شفق، أنا المسكين الذي نشأ وترعرع في بيت الرجال، متى ماتت أمي؟ لا أعرف، كان ذلك مع مولدي، أو بعده بقليل، لم تستطع كندا بتقدمها الطبي في إنقاذها من الموت، أصيبت بحمى ما بعد ولادتي بأيام، لا أعرف الحكاية وتفاصيلها، أبي أخفاها عني، أو لعله قصد ألا يذكرها كي لا يتهمني بالتسبب في وفاتها، كان يحرص على تذكرها، كان يتظاهر أحيانا بكتمان حبه لي، كأنه يخجل من أن يربت على رأسي، أو يتحسس خدي في حنو، كل عام كانت لنا هذه الزيارة المقبضة إلى قبرها، ثم لا شيء آخر، لا امرأة تهدهدني، تضمني إلى صدرها، لا أم عطوفًا ترفق بي، من كان يمسح مؤخرتي، من كان يغير لي الحفاضات، من؟

تجارب أبي النسائية كانت معظمها فاشلة، كأنه كان يرغب في الانتقام من ذكرى ما في حياته، البيت خلا من النساء المقيمات به فترات طويلة. في صغري أتذكره حينما جلب امرأة ذات مرة إلى البيت، وأصدرا ضجيجا لم أعرف سببه بينما أنكمش في فراشي في الحجرة الواسعة التي كنت أنام فيها وحيدا. كان أبي يزودني بالألعاب التي كانت تناسبه هو، كلها كانت ألعابًا إلكترونية من أحدث الطرز المطروحة في الأسواق الكندية آنذاك، لم يعرف حقا ما هي اللعب التي أتمنى شراءها، لم نكن نتوقف أبدا في محل ألعاب، لم يحرص في أي يوم على أن يصطحبني إلى الملاهي، أو محالّ أكل الأطفال التي تزخر بها أوتاوا، تخيلوا معي، أن طفلًا مثلي، لم يذهب أبدا لحدائق الأطفال، لم يتدلل على يد امرأة، وحيدا مهملا، يعود من المدرسة، فيستقبله خادم أنيق، يشرف على المنزل، ويشرف على نظافة أظافري، وغسيل طبقي بنفسي بعد انتهائي من تناول الطعام، يتيح لي نصف ساعة فقط للهو واللعب، ومعانقة الدمى، وساعتين في المقابل لاستذكار دروسي، وساعة أسبوعية لرياضة الجري، ونصف ساعة أسبوعية للسباحة، يضاعفها بعد وصولي سن الثالثة عشرة إلى ساعة كاملة أسبوعيا. خادم أنيق، يحرمني من مشاهدة مؤخرات السيدات في مراهقتي، وكذلك من مشاهدة الأفلام البورنو، أو المجلات الإباحية، له أساليب فريدة في معاقبتي، لم يبلغ أبي أنه ضبط بحوزتي مجلة بورنو، بل طبخ لي طعاما خاليا من البهارات والملح، أصرخ شاكيا: الأكل سيئ يا هيسلوب.. مفيش ملح، يقول هيسلوب خادم أبي الأنيق، الذي تولى رعايتي وتنشئتي تنشئة كاثوليكية قويمة: اسمع يا عزيز.. لا يمكنني أن أتحمل مشاوير

إضافية للكنيسة كل أسبوع لتعترف أمام الكاهن، يجب أن تبقى طاهرا، وتظل كذلك، إياك والاختلاط بالنساء، ليست هذه السن المناسبة لهذه الحماقات، يكفي ما يفعله أبوك.. تكفيني حماقاته.

لا أعرف من منهما كان مثليا، أبي؟ أم هيسلوب؟ بالتأكيد أبي لا يمكن أن يكون مثليا، لقد رأيت نساء بصحبته، لقد أنجبني، بالتأكيد هو هيسلوب الذي كان يحرّم عليَّ الاقتراب من النساء، كان هذا قاسيا ومؤلما، كنت أحيانا أسرق أكياس الملح من بعض الوجبات التي تباع في كانتين المدرسة، لأحاذر هذا العقاب المؤلم، فوجئت به يبتكر طرقا أشد وجعا في العقاب، يجردني من شرائط الأتاري الذي جلبه لي أبي من الولايات المتحدة حينما كنت في العاشرة من عمري، بحثت عنها في كل مكان حينما عدت ذات ليلة متأخرا، ولم أجد الشرائط، ذهبت لأوقظه، وأسأله، فتح لي باب حجرته بوجه متبرم، وقال في صوت صارم: لن تجدها.. هذا جزاؤك على تأخرك أمس حتى وقت متأخر أنت وأصدقائك، وجزاء رائحة الكحول التي شممتها في فانلتك التي نمت بها سكيرا، وغسلتها هذا الصباح قبل أن يجدها أبوك، ويكتشف أن ابنه الوحيد يشرب الواين، ويسكبه على ملابسه، أي أنك تشربه بكل صخب.

لم أستطع أن أقول المزيد أمام منطقه الصارم، أمام حسرتي ووحدتي تماما، كنت محاصرا بإجراءاته العقابية كأنني في مصحة نفسية لعلاج الأطفال المشاغبين، أو لعلاج المجانين الحمقى، الذين يرغبون في عزلهم، أتذكر حتى الآن، ليالي داكنة، كنت أبكي فيها بحرقة، بعد مشاهدتي أمهات يلتقطن أبناءهن من المدرسة،

يحتضن زملائي المحظوظين، يربتن على شعر أبنائهن، ماذا فعلتم اليوم في المدرسة، كيف كان يومكم؟ لا أحد سألني من قبل هذين السؤالين، كنت أعاني من هذه الحالة البكائية الليلية على الرغم من تجاوزي السن التي يجب أن تصطحبني فيها أمي من المدرسة، ببساطة توقفت عن تعاطي الخمر بسبب هيسلوب الذي كان يضرب حولي حصارا حال أحيانا بيني وبين أبي، أبي الذي لم يهتم يوما أن يسألني ماذا فعلت؟ أين تذهب؟ أين تقضي سهرتك؟ من تصاحب؟ ماذا تحب أن تدرس؟ هل تحب؟ هل تعرف فتاة؟ هل ضاجعت؟

فقط يسأل هيسلوب، الذي يقدم له أيضا كل شهر شهادتي وتقرير المدرسة عن أدائي الدراسي، كأن هيسلوب يقدم له تقريرا عن أدائه المنزلي، هذه درجاتي أنا، مستواي الدراسي أنا، لماذا يتلقى هيسلوب وحده الثناء؟ لماذا يتلقى هو المكافآت على راتبه، فيما بالكاد أحظى أنا بقطعة شوكولاتة؛ من ضمن المشتريات التي يجلبها هيسلوب للبيت كل أسبوع؟ لم يقدم لي أبي يوما هدية، لم يصحبني سوى مرات نادرة إلى ناديه الذي يلتقي فيه أصدقاءه، وعشيقاته، وحيدا، منزويا كنت دائما أجلس، حتى عشيقاته، لم يعطفن عليَّ بنظرة حانية، أو يمنحوني تدليلا طفوليا عذبا، كان التدليل كله من نصيب أبي، الذي كان يتحول إلى طفل، يكاد ينافسني في الحاجة إلى التدليل، يطلق ضحكات صاخبة، أعجب حينما أراها، وأسمعها، وترتسم على ملامحي علامات الاستنكار، فيقرر ألا يصطحبني فيما بعد معه، إلا في أضيق الحدود، حينما يختفي هيسلوب اختفاءاته المتكررة غير المبررة، أذهب بصحبة أبي، لأراه يرتمي في أحضان نسائه: كنديات، أو سيدات مصريات، يعشن

وحيدات في كندا بعد وفاة أزواجهن أو بعد طلاقهن، تهتك حياة أبي جعلني مشتاقًا لامرأة، ثم فيما بعد في فترة مراهقتي.. للزواج، قررت أن أخاصم حياة اللهو، هل قررت حقا؟ أم أنه هيسلوب الذي تصدى لي في صرامة وحدّة، كأنه يحمي عفتي؟

كانت هناك رغبة عارمة لديه في منعي من الانحراف، حينما اخترت دراسة الهندسة في كندا، كان سعيدا ومبتهجا بهذا الاختيار، كأنه يتمنى أن أتحول إلى خط مستقيم، قال لي يومها وخصلة من شعره الأشيب تنسدل على جبينه: صدقني يا عزيز لا أمل إلا في الطريق المستقيم.. ستعلمك دراستك للهندسة أن المعادلات الحسابية أصدق بكثير من العواطف، ومن خفقات القلوب، حتى قلبك هذا، يدق وفقا لمعادلة حسابية ما، هي حاصل جمع حالة جسدك، فإذا كنت مستقيما، فلا تدخن، لا تشرب الخمر، لا ترتكب المنكرات، ولا تسهر الليل، ولا تدخل أعضاء من جسدك في فتحات المومسات، ولا تخلط سوائلك بسوائلهن، ولا تثقل على قلبك بالدهون، ولا تثقل على كبدك بالكحوليات، فإن معدلات خفقان قلبك ستظل كما حددها لك الخالق العظيم، الرب في ملكوته، كن مثل خطوطك الهندسية التي ستتعلمها في الكلية، مستقيما، كن مستقيما، واعرف أن الشرور تكمن كلها في الخطوط المتعرجة، الغواية مبعثها الوحيد على الأرض هن الإناث، الإناث اللواتي أخرجونا من النعيم، نحن نخرج من أسوأ فتحة في أجسادهن، تذكر هذا جيدا يا عزيز.

قلت له في استنكار: أنا لا أتفق معك يا هيسلوب.. أنت تبدو

منحرفا، أبي يعشق النساء، وعمري كله قضيته أحلم بلمسة امرأة، والآن تأتيني تحذرني من فتحات أجسادهن، ألا يكفي التضييق الذي فرضته عليَّ عمركـ كله؟

امتقعت ملامح هيسلوب، شعر بالاشمئزاز وامتعضت شفتاه عندما وصفته بالمنحرف، وردد سبة بالفرنسية، تناهت إليَّ غمغمتها، ثم قال في شفقة: يبدو أن لديك ميولًا منحرفة مثل أبيك، إذا أردت الانحراف، إذا أردت أن تتذوقه، فسأمنحك ما تريد، لكنك ستندم على هذه التجربة.. صدقني يا عزيز

ثم منحني الانحراف فعلا، لا أعرف كيف دبر ذلك، وكيف واتته الجرأة، كيف تحمل تجاهل كراهيته للنساء كما لحظت، وأن يذهب بي إلى هذا المنزل، الذي من خارجه كان يبدو مهيبا، لا يشف أبدا عن طبيعته، وطبيعة ما يتم داخله من ممارسات الغانيات، تركت هذه التجربة في حياتي أثرا واحدا، مثل ندبة طويلة خلفتها ضربة سكين في مشاجرة سكير في حانة سيئة التهوية رطبة، أن النساء وعاء، وعاء فقط، لتلقي السوائل الضاغطة. تخلصت من سوائلي، ورمقني هيسلوب بنظرات متسائلة، مشفقة، تجاهلت نظراته، وقررت المضي في طريقي، انتهيت من دراستي الهندسة بالجامعة، التي تخللتها علاقات نسائية عديدة، لم تسفر عن شيء، سوى النظرية السابقة، نظرية التخلص من السوائل، حتى حينما التقيت شفق للمرة الأولى، إنها نفس النظرية التي جعلت مني رجلا لم يغادر طفولته الجائعة لثدي، نهمًا دائما لعملية رضاعة جديدة في محاولة يائسة لفطام لا يتحقق مطلقا، أنا المسكين الذي لم تمتد إليه

يد أنثى حانية تطبطب على كتفيه، وتضمه إلى صدر أم، أنا المسكين الذي تعامل مع زوجته بصفتها وعاء للتخلص من السوائل، ها هي سوائلي وشفق يخزياني معا، خزي وإخفاق، جعلني أتطلع للتخلص من المزيد من السوائل مع مارينا، التي تسببت علاقتي بها إلى أن أستل مسدسا، وأنهي وجود أحدهم، مارينا لم تتعمد دفعي إلى الهاوية، بالعكس، كانت تظهر بمظهر الأم الطيبة التي لم تكن في حياتي، أم أنني من يتمنى أن تكون هكذا؟! أنا المسكين الذي لم يعرف الأنثى إلا على أنها ثقب نما له كائن ما.

الأنبـــا

١

أرقد الآن والدم الذي طالما رأيته منطبعا على سجاد غرفتي، يسيل من بقعة في صدري يتسع قطرها الدامي، بينما الرصاصة التي سببتها تستقر في مركزها بين ضلوعي، ربما نجحت في هتك بطين قلبي الأيمن، لست متأكدا، لكن صمتا غريبا غلفني في هذه اللحظة، على الرغم من الصراخ حولي، بدأت دقات قلبي تبطئ في علامة دالة على فقده بطينه الأيمن، أو الأيسر، لست متأكدا، دقات قلبي التي كانت تسير على وتيرة واحدة، بدأت تبطئ الآن مثل محرك طائرة قديمة عطب فجأة بعد مرورها بسحابة قوية، أحدهم يقترب مني ممسكا مسدسه وهو يرمقني بنظرات ملتاعة ودامعة من أثر ما أرتكب، هل كانت هي نفس نظرات قايين؟

مر عليَّ عامان لم أجد دواء شافيا لنوبة التقيؤ التي أصابتني بعد رؤية آثار الدماء على سجاد غرفتي في الصباح، في الصباح وكل صباح، منذ عامين، ترتعش أمعائي في نوبة التقيؤ الشديدة التي بدأت تنتابني بعد شهور من يوم ٩ أكتوبر، هل لما جرى في ذلك اليوم علاقة بما أصابني؟

لم أذهب إلى المستشفيات التي استقبلت جثث الضحايا، فقط رأيت صورا، ثم بعدها بشهور بدأت أستيقظ في الصباح، فأرى دماء متجلطة في كل بقعة من سجاد الغرفة، فأصاب فورا بنوبات عارمة من التقيؤ، يكفيني هذا، يكفيني ولا تنقصني حكاية شفق وعتوها وانحراف عقلها عن ملكوت الرب لتضيف إلى همومنا وبؤسنا همًّا وبؤسا جديدين.

لا ينقصني جنون شفق، وشطحات زوجها عزيز الذي ظننت أن علاقتي معه انتهت ببصقة قذرة مثله على وجهي ولحيتي، لكنه كان مجرد ظن، كنت أقول داخل نفسي: يكفيني ما أراه من دم مجهول المصدر، ينطبع كل ليلة، كأن أحدهم يخرج من بانيو ممتلئ بالدماء، ويأتي ليخطو على سجادي، كيف تتلطخ أرض حجرتي بها كل ليلة؟ هل تهبط بقع الدم من السماء؟ ألا تعرف أنها تلطخ سجادة رجل دين مسيحي؟!

أربع سنوات وملف شفق لم يزل مفتوحا، أربع سنوات توفي خلالها البابا، وجلس على كرسي مارمرقص الرسول سيّدان، وسقط خلالها رئيسان، وحكم من بعدها رئيسان، أربع سنوات تتقلب الأبدان، تنزاح هموم، فتولد أخرى، مات خلق، وبُعثوا، وهدمت بيوت للرب، وبُنيت أخرى، ولا تزال حدوتة شفق هي شاغل بال البعض، بل لا يزال جرح حكايتها متقيحا مليئا بالصديد، أربع سنوات تختفي هذه الضالة عن ملكوت الرب، وتستدعي الشرطة بعضًا من أبنائنا، وشعبنا، لسؤالنا عن ورطتها، مع الشيخ الداعية المتطرف. أربع سنوات، لا يهتم السادة إلا بضالة، كأنهم يرغبون في استعراض قوتهم وجبروتهم مثلما كانوا يفعلون قبل

الثورة مع الهاربات، اللواتي كن يخرجن عن الملكوت، يخرجن ويهربن من الحب الصادق، إلى الضياع، ثم يأتيني أزواجهن يبكون. أربع سنوات مرت منذ التقيت عزيز للمرة الأولى، تقريبا كانت المرة الأولى التي يدخل فيها كنيسة، لم يكن يعرف أن له ربًّا، وأن لربه بيتًا، وأنه يجب أن يثوب ويعود إليه يوما.

قبل شجارنا، كان عزيز بالنسبة لي كالعائد إلى المسيحية بعد ضلال كبير، حينما أخبرني أول مرة التقيته فيها، أنه لم يدخل كنيسة من قبل إلا حينما تزوج شفق، قلت في سري. إنه مثل المرتد عن المسيحية، وها هو قد عاد، وسألته عن اسمه بالكامل، فقال: عزيز بطرس فيني، فوضعت كفي على رأسه، وقرأت عليه أوشية ـ صلاة ـ تقول كلماتها:

«أيها السيد الرب الإله ضابط الكل، ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي يريد أن يحيا جميع الناس، وأن يقبلوا كلهم على معرفة الحق. أنت يا سيدنا نسألك عن عبدك «عزيز» الذي أحنى رأسه والتجأ إليك لتحله من رباطات إبليس».

ثم طلبت منه أن يردد. أبانا الذي في السماوات ـ شعرت أنها المرة الأولى التي يسمع عنها، فساعدته ورددتها معه ـ أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضا للمذنبين، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير.

لم تبد على وجهه علامات الرضى والطمأنينة، بدا عليه الذبول والحيرة. قلت له في إشفاق. مأساتك يا بني صعبة.. لكن الرب

معك، يسوع يستمع لخفقات قلبك، أخبره كل شيء، وهو له الملك والمجد والقوة إلى الأبد.

بدت كلماتي له مثل مُسكّن ليس بوسعه أن يداويه، وقتها كانت قضية كاميليا مشتعلة، كان ذلك منتصف عام ٢٠١٠، انفجرت حكايتها، وامتدت نارها إلى كل رداء طاهر من أردية الكهنة، هل سيحتمل بيت الرب ضربتين موجعتين في نفس الوقت، قلت في خفوت يائس وأنا أرمقه في حذر: لعلها لم تغير دينها، لعلها هجرتك فقط.. اصبر وستعود.

ثم إنه انقطع عن زيارتي، لم أره بعد ذلك، حتى بعد اندلاع الثورة، وانهماك الكنيسة في الملمات التي ضربت بيوت الرب في مواضع كثيرة، نزل شعبنا، وتظاهر في حماس، ضد صديق سيدنا، كان الأمر محرجا لسيدنا، اشتد عليه المرض، كأنه شعر بالحزن على الرجل الذي كرمه، وأخرجه من محنته بعد عنت سابقه، كان يحفظ له هذا الجميل، رغم المشكلات العديدة التي ألمّت بشعب الكنيسة خلال فترة تسيده، سنين من البؤس والشقاء، وهدم بيوت العبادة، وقتل أبناء الرب، وخطف بناتهم القصّر، وإجبارهن على تغيير دينهن، وعشرات الفتن، ومئات الحكايات عن الأمهات الثكالى في أبناء قتلوا غدرا وغيلة في الحقول وفي الفصول، وفي بناتهن اللواتي تم خطفهن، أو تم إغواؤهن، مواجهات كثيرة، وحكايات بائسة، وبيوت تصدعت من البكاء، والدموع، وشرفات وبلكونات لم يعلق أبناء الرب على حبال غسيلها لسنوات سوى ملابس الحداد القاتمة، وأرواح صارت كابية.

الشعب المسكين، الذي يعاني طول عمره، يعاني من سنوات بطش وإجحاف، تعسف فيها سيدنا قبل تنحيه، يرفض تجديد ماء اللوائح، وهو الذي أتى بأحلام التغيير إلى الكرسي البابوي، فسقى أبناءه من الآلام ما سقته لهم بلادهم، تعسف في إصلاح أحوال بيت الرب، رفض الأفكار الجديدة، أو الإصلاح، وهو الذي نادى به، صفق وبارك في القداسات المتتالية لرجال الدولة، على الرغم من سلبيتهم في قضايا أودت بحياة بعض أبناء الرب، في المواجهات الطائفية المتتالية، وشعب الكنيسة واهن ضعيف، يصفق وراءه ويدعو لقداسته، ويتمنى رضاه، ونيل بركته. وسط كل هذا، هنا في الداخل، كان من الصعب على المقربين منه ـ وأنا منهم ـ أن يروا الجانب الآخر للرجل الذي يعبده شعبه، الرجل الذي يبكي من أجل أبناء شعبه حينما يُقتلون في الفتن، نغض الطرف عنه بينما نراه يدفع بهم إليها، يزجهم فيها مثل الحطب، من أجل أن تشتعل نار نوره، فيظل صامدا، أسدا بين الأسدين، جالسا على كرسي مار مرقص الرسول، الذي جلب المسيحية إلى مصر، ونسي محبته، تغاضى عن تسامحه، اصطدم بالسادات، كلاهما كان قد جاء إلى مقعده في وقت متقارب تقريبا، فظهر الأمر صراعًا بين زعيمين، رجلين يحاول أن يفرض كلاهما هيمنته على شعبه، أحدهما اختار أن يخلع عباءته السياسية ويرتدي عباءة دينية ليقود شعبه المسلم، فيما خلع الآخر عباءته الدينية، ليقود شعبه القبطي إلى صدام مع قطار أهوج يطيل قائده السجود أثناء انطلاقه السريع.

سيستنكر الكثيرون أن أقول هذا الكلام، لهذا لن أذكر اسمي أبدا، يكفي أن تعرفوا درجتي الكهنوتية، التي بلغتها بعد مشاق، وبعد الكثير

من الصلوات، والدعاء للرب، هل كانت صلوات ودعوات للرب، أم نفاقًا للسيد الجالس على كرسي مارمرقص الرسول؟ وهل يمكن للمنافق أن يقول على نفسه منافقا؟ إنه يسمي نفسه طائعا، مستجيبا لرغبات الرب التي تجسدت في روح سيدنا.

كنت أرى تناقضات سيدنا، وأكتمها في داخلي، ثم أطيّب هموم ومشاعر البائسين بسبب ظلمه، وأشفق على نفسي من معارضته، أو البوح بما يعتمل داخلي، أو حتى نقل شكوى إليه، كنت قريبا منه، خاصة في الأيام الأخيرة قبل تنحيه، جاء ذلك بعد الثورة بعام، وبعدما خارت قواه في معركته الأخيرة الأشد، ضد الحكم القضائي الذي يلزم الكنيسة بتطليق رعاياها، ومنحهم حق الزواج الثاني. الرجل لم يلتفت للبيوت التي تهدمت، وتخربت، والأسر التي تشتتت، وانفرط عقدها، وعقد أبنائها، وظل هو يمنع إتمام التفرقة، بدعوى اقتصار الطلاق على الزنا، ظل جامدا، رافضا عصيان شعب الكنيسة له، ولأوامره، أي صلف، أي صلف وتجبر يا سيدنا؟

أغمغمها في نفسي حزينا مغتاظا، وأنا أعض شفتي السفلى داخل فمي، محاذرا أن يرى غيظي وقنوطي من رحمته. أعلم أن ما أقوله سيغل كثيرين نحوي، لذلك لن أذكر اسمي الحقيقي، المهم أنه رفض بشدة الحكم القضائي الذي صدر لتطليق إحدى المسيحيات من زوجها. يئست المرأة، فهجرت الكنيسة، قالت لي إنها لن تظل ذليلة مثل اللواتي يترددن يوميا طلبا لشفاعة قداسته، حاولت إثناءها عن عزمها، قلت لها: يا ست.. يا ست ما تحرجيش قداسته.. عيب كده.. خلّي عندك من بركة يسوع.. عيب.

ضربت المرأة بتوسلاتي عرض الحائط، إما أن تقع في الخطيئة، وإما تصم نفسها بها، إما أن تقتل زوجها، وإما تشهر إسلامها، قررت هي ألا تختار أيا من هذه الحلول، وأن تتوجه إلى المحكمة، حسنا، إنها رائحة العناد، والتكبر، والتسلط، والتجبر، هل من المعقول أن أصف سيدنا بهذا؟ وكيف لا وهو من رضي لسيدات طاهرات أن يشوهن سيرتهن الطاهرة بوصمة الزنا، في سبيل التخلص من زيجات لا تحتمل، لماذا يا سيدنا تجادل في الحق؟

اندلعت الثورة، وأتت ريح الشعبين على كل شيء، ثار المسلمون على مبارك ووجدها المسيحيون فرصة، وهجروا البطريركية إلى ميدان التحرير، بعدما ظلوا سنوات يتظاهرون داخلها، بكينا على بكاء سيدنا وتوسله للرب من أجل البلاد وصديقه سيد البلاد بعدما اندلعت الثورة ضده، لكننا كنا في الداخل نرتجف، وتهفو أنفسنا إلى خلع ملابسنا الدينية، واللحاق بالناس في الميدان، كأنه حرم الكعبة في مكة، التي يحج إليها المسلمون، كنا نشعر بقوة مغناطيس تجذبنا إلى الميدان، اشتد مرض سيدنا، بينما مبارك مثل فأر مذعور، يلقي خطبا مستسلمة تارة، ومهددة تارة أخرى، لقد انتهى عصر الرجلين، مبارك وسيدنا.

٢

لا تبلغ الأمن يا عزيز.

كانت هذه نصيحتي للرجل، النصيحة التي قلتها ولم يستمع لها، وذهب بالفعل ليبلغ عن اختفائها بعد ذلك بسنوات، قلتها بلهجة

أقرب إلى الأمر منها إلى الرجاء، وقتها كنا في شهر سبتمبر ٢٠١٠، أروقة الكنيسة ساخنة بقضية كاميليا في المنيا، مظاهرات الإسلاميين في كل بقعة حول الكاتدرائية تطالب باسترداد زوجة كاهن دير مواس، النيابة تطالب بمثولها أمامها، اختفاء زوجة الكاهن أشعل الدنيا، معركة جديدة مع الكنيسة تحرك البلد، جذوة لهب، لا يعرف أحد إلا الرب كيف تنطفئ، إنها حرب يتبادل فيها الطرفان ضربات المنجنيق، صاحب الرمية الأقوى، يهدم الجدار، وجدار الكاتدرائية خرساني يحتمل الضربات، ولا يتقوض بسهولة، داخله يتظاهر الشعب مطالبين بعودة كاميليا، وخارجه يتظاهر شعب آخر يطالب بأخته كاميليا، وكلاهما يعرف أو لا يعرف أن زوجة الكاهن في حوزة رجال قساة عتاة، يديرون جولات من المساومة، على ماذا يساومون؟ على إخضاع سيدنا، أم على إلهاء الشعبين عن مخطط أكبر؟

بعد غضبته الشديدة بسبب الحكم القضائي، كانت معركة الزواج الثاني قد استفزت سيد البلاد، تحدي سيدنا للقضاء، وما استتبعها من هجوم بعض الصحفيين العرائس الخشبية، الذين انتهزوها فرصة للنيل من عباءة سيدنا، لفت كل هذا الأنظار إلى أن البطريرك يحاول استعادة رداء المتمرد القديم، لكنه لم يعد سيدنا الذي كان آنذاك، كانت قدرته على إدارة صراع مثل ذلك الذي أداره في السبعينيات قد ولت، رددت في قنوط: أبانا الذي في السماوات نجنا من الشرير، حسنا يا ابن الرب عزيز، صدقني نحن لن نحتمل فضيحة جديدة، ثم إن الرجل الذي تظنه اختطف زوجتك، داعية كبير، وله أنصاره، ولا بد أنهم أيضا سيتحركون، ويثورون، ويتظاهرون، قلت في تردد: اصبر، وستعود.

لكن شفق لم تعد، مرت أشهر، غاب فيها عزيز عن زيارتي، وارتحت لانقطاعه، كنا نمر بشهور سيئة، عام قاتم، مريع، مواجهات وانشغال دائم بتدبير الردود والأوراق والفاكسات المرسلة للصحف العالمية، ومظاهرات ترج أركان الكاتدرائية والبلد، والظهور في محطتَي «سي تي في» و«مارمرقص» القبطيتين، والهروب من مطاردات الصحفيين الذين يغطون الشأن القبطي وتجاهل الرد على الآلاف من رسائلهم، كل هذا لم يسفر في النهاية عن شيء، هناك من يعمل أفضل منا، هناك من يدبر السوء ولا يقطع الرب دابره أبدا، لماذا تنجح المعادلات الشريرة؟

في نهاية العام يقع انفجار بشع، يودي بالمزيد والمزيد من أبناء الرب، من اخترع البارود؟ ومن دسه في أيدي المخبولين؟ الكآبة خيمت على أرواحنا. كنا على ثقة أن هناك خطأ ما، تفجير بشع ينهش أبدان ٢٣ روحا طاهرة بغتة، تقلصت ملامحي وأنا أتابع صور الوجوه الصرعى في الانفجار، روح الظلام كست ملامحنا، بدأنا في إعداد ما نعده عند كل حادث بشع، من مساعدات لأهالي الشهداء، وبحث أحوال أسرهم، وكيفية مساندتهم، كنت منهمكا في العمل، أنا وكافة الأساقفة، اتصالات بالخارج وأحاديث مع الصحافة، استنفار عام في المكاتب، ظهر قداسته حزينا يتحدث عن المذبحة وسط أكبر أسطونين من أساطين النظام، رئيسَي غرفتَي البرلمان، اللذَين تهاويا بعد الحادث بخمسة وعشرين يومًا، القلق كان باديا على وجهيهما، حتى في الغرف الخلفية للمكروفونات، كانا قلقين، يتحسسان كلماتهما القليلة، قبل أن يظهرا على الملأ

مع سيدنا، كأن الانفجار أسطوانة الأكسجين الأخيرة التي أفرغت محتوياتها ليسقط المنطاد.

عاد عزيز، كانت ملامحه قد تغضنت، كأنه وثب سنوات فجأة، قال لي. مارينا.. مارينا فقدت أهلها في انفجار الإسكندرية.

جزعت، لم تكن صداقتنا قد مر عليها شهور، لكنني سمحت له أن يتصل بي، ويلتقيني وقتما شاء، أحيانا كنت أقدم هذه الامتيازات لبعض القادرين، لظني أنهم سينفعونني حينما أحتاجهم لمساعدة المحتاجين والفقراء، كانت ملابسه رثة، وعيناه جاحظتين، لم ينم منذ أيام كما خمنت، شعرت بالقلق والتوتر، قلت في خفوت كعادتي: من هي مارينا؟

تهدج صوته، وهو يقول: مارينا التي كانت تعيل أسرتها الفقيرة بالإسكندرية، كانت تعمل هنا في القاهرة، في مطعم، التقيتها في ظروفي السيئة، وساعدتني، أنقذتني من السقوط في الشارع.

شعرت بالأسى والفضول، تابعته وأنا أحاول التحكم في أعصابي، لأعرف منه التفاصيل ثم قلت: لكن كيف ارتبطت بها؟ لم تخبرني من قبل بهذه القصة!

كان حزينا على أهل مارينا، لم أفهم ما علاقة ذلك بقصة زوجته شفق، ربتّ على كتفه، كان واضحا عليه الإعياء، بدا ملحوظا أنه فقد من وزنه بضعة كيلو جرامات، نمَت لحيته دون رغبته، خمنت باقي القصة، الناس تموت في كل مكان، أو تختطف، ونعجز عن فعل أي شيء إيجابي من أجلهم، إلا التصفيق في القداس.

انتظرته حتى تمالك نفسه ومسح دمعتين فرتا من عينيه، احمرار عينيه بلون الدم بعث القشعريرة في جسدي، شعرت بثقل عباءتي على لحمي. نحن لا نستحق أن نرتدي القلنسوة الدينية، غمغمت في نفسي، يالنا من بؤساء، نظن أنفسنا قادرين على إسعاد شعبنا وإرشاده لطريق الحق وهدايته، فيما الكوارث تطبق أنيابها عليه ونحن عاجزون على أن نجعله يتملص. قال عزيز منكسرا: مارينا كانت بتصرف على أهلها من شغلها في المطعم بالقاهرة.. ماروحتش ليلة رأس السنة وأجلت زيارتهم ليوم سبعة يناير، دلوقتي بقى حالها من حالي.. مالهاش أهل.

قلت في اهتمام: اهدأ يا عزيز.. أنت لك أهل.. زوجك هي أهلك.. وستعود إلى رشدها وإليك.

قال في أسى: شفق الملعونة؟ اللي تهجر جوزها تكون إيه؟ ملعونة يا أبونا.

غادرني حزينا، مثقلا كأنه يجرجر حمولة ثقيلة، كنت أشعر بمسئولية عارمة تجاهه، هل حقا كنت أشعر بذلك، أم أنني كنت أتظاهر بذلك؟ لكنني عاجز، عاجز أن أتدخل، في أدراجي ملفات لبنات اختفين، ولا أحد يعرف عنهن شيئا، قاصرات في عمر الزواج، اختفين كلهن في وقائع غامضة عبثية كأنهن قصاري زرع، لا أحد يعرف ما حكاياتهن، ولم تنته مآسيهن حتى بعد مبارك، ما جدوى احتفاظي بأوراقهن، وصورهن، فقط لأن الأدراج يجب أن تكون ممتلئة بهذه القصص، سيدنا يحرص عليها مثلما يحرص على عظته تماما. هل أخرج لكم الملفات، صور البنات الضائعات؟

يمكنني بكل سهولة أن أخرجها، يمكنني أيضا أن ألوح بها وقتما أشاء، صور الفتيات، وآلام آبائهن، وأمهاتهن الثكالى، هي كروت مساومة سيدنا.

تبحث الآن عن زوجتك يا عزيز.. شفق التي جاءت بحكاية عجيبة عن جدها الأكبر الذي يمتلك قطعة أرض في بين السرايات، إذا كان البلد كله كان يملكه الأقباط: شركات إخوان مقار والأسيوطي وحكيم مرجان كلها كانت ملك رجال أعمال أقباط وأممها عبد الناصر، الذي لم يكتف بهذا، بل استولى على مصانع فؤاد جرجس، وعطية شنودة، وكحلا وغيرهم من رجال الأعمال الأقباط الكبار، والأعيان الأثرياء، الذين أفلسوا، وصاروا خدما عند خدامهم المسلمين الذين مارسوا عليهم التشفي والحقد والغل. موريس موسى، رجل الأعيان صاحب رأس المال الأكبر في بنك القاهرة، مات محسورا على ضياع أملاكه، وتأميم أسهمه، ثم تأتي زوجتك يا عزيز وتناضل من أجل قطعة أرض ضئيلة في بين السرايات.. بناقص.

قبل عيد الميلاد، فوجئت به يطلب زيارتي في الكاتدرائية، وحضر وبصحبته مارينا، كانت المرة الأولى التي أراها، ممتلئة الجسد، وافرة اللحم، رقبتها شامخة، وكتفاها ممشوقتين، وملامحها رغم حزنها الشديد البادي على وجهها لم تتهدل، بل احتفظ خداها بتوردهما، وعيناها الذابلتان بدتا مغويتين أكثر باتساعهما الفاتن، ضبطت نفسي محملقا فيها، وفي جسدها، فغضضت بصري، متفرسا في الأرض متوترا، عاجزا تماما عن ضبط روحي التي كانت تهفو إلى معاودة التفرس في ملامحها.

تظاهرت أنني أود أن أسأله عن سبب الزيارة، رفعت له وجهي، وقلت مجاملا: ليشملكما الرب برعايته.

تهللت أساريره، وابتسم مطمئنا، كأن كلماتي شجعته على أن يفصح، فشعرت أنني تسرعت ولم ينبغِ أن أقول ما قلت، قال: اعذرني يا أبونا.. أنا محتاج مشورتك.

ابتسمت في اهتمام، ولم أعقب، فانتظر هو أن أقول شيئا، ثم حانت منه نظرة إلى مارينا، وعاود النظر إليّ قائلا: أنا ومارينا قررنا الزواج يا أبونا.

امتقع وجهي بغتة، ثم حاولت أن أواري انفعالي اللحظي، ارتبك وأطرقت بنظري إلى الأرض، لحظ هو توتري وانفعالي، وتبادل بسمة مرتبكة مع مارينا، ثم واصل مرتبكا: وأريد أن يحدث ذلك في عيد الميلاد القادم يا أبونا.

٣

مجد سيدك يا عزيز زوجتك لم تزل على قيد الحياة.. ما جمعه الرب لا يفرقه إنسان، لا يمكن أن تتزوج غيرها.

حدق فيّ بوجه كله استنكار. كان بمقدوري أن ألمح انقباضات ملامحه بينما يستنكر ما أقول، شعرت بغضبه قبل أن ينفثه في وجهي، حاول أن يتمالك نفسه، لكن صوته خرج خشنا: يعني هي تهجرني وتتصرمح على مزاجها، وأنا أفضل مترهبن منتظر رجوعها وهدايتها!

قلت في إصرار: مالها الرهبنة؟ ثم إنها لم تمت، ولم تزنِ، ولم تغير دينها، هي لم تزل في نظر الكنيسة زوجتك.. لا يمكنك أن تتزوج غيرها، متعجب منك، مسيحي وتظن أن هذه الأمور بهذه السهولة! حتى مارينا كيف طاوعتك وظنت أن الأمر بهذه السهولة؟

دارت هذه المناقشة بيني وبينه فقط، لاحظ ارتباكي في المرة السابقة، وتجاهلي لطلبه، فانصرف هو ومارينا، وعاد وحده، قال: لكنني فعليا لا أعرف مكانها، لقد هجرت البيت، وأسرتها لا تعرف أين هي، تتصل بهم على فترات متباعدة، ومن هاتف مجهول، لا يستطيعون التوصل إليه، وأنت طلبت مني ألا أبلغ الشرطة، وأنا استجبت لرغبتك.. الآن تطلب مني أن أدفن روحي بالحياة؟

نظرت إليه عاتبا، لائما، لم أعرف كيف أختار كلماتي، غضبه وانفعاله يغطيان على أي محاولة مني للشرح، قلت: يمكننا أن نواصل هذه المناقشة بعدما تهدأ.

زمجر قائلا: لن أهدأ.. أولا منعتني من أن أبلغ الشرطة.. ثم تمنعني الآن من الزواج.. بأي حق تمنع وتسمح؟

قاطعته قائلا في صوت حاسم مناقضًا لخفوتي المعهود: والمسيح.. غضبك لن يحل الأمر، ولا ملجأ لك سوى أن تصبر. وعدتك أن مشكلتك هتتحل مع الصبر، عد إلى بيتك، والتزم السكينة، وستجد زوجتك تطرق بابك عائدة من جنونها.

نظر لي نظرات مستنكرة تحمل استخفافًا وتهكمًا، قال: هل تظنني سأرضخ لهذا الهراء الذي تقوله يا أبونا؟ تريدني أن أنتظر

مثل العاجز عودة زوجة طائشة، وأترك المرأة التي عطفت عليّ، وأهملها في محنتها، وأتجاهلها.

نهضت من مقعدي، قائلا: هذه المناقشة لن تصل بنا لشيء.. دعنا نكملها فيما بعد.

نهض غاضبا: أنا أصلا مش تبع ملتكم.. إيه اللي يجبرني على زيارتك ومقابلاتك العبثية؟

سارعت بالقول: لإنك تزوجت من أرثوذكسية في كنيستها، ولن تجد حلا لمشاكلك في أي ملة أخرى. قداسة البابا ألغى إجراءات تغيير الملة التي يجريها الأغنياء منكم مع الطوائف المسيحية الأخرى، لن تجد كنيسة أخرى تلجأ إليها تقبل بتحويلك إلى ملتها.

قال وقد ارتفع صوته: شكلك مش سامعني كويس، لجأت إليك في البداية نظرا لأن شفق أرثوذكسية، لكن زواجي بها في الكنيسة مش هيوقّفني، هسافر برة أنا ومارينا، وهنتجوز في أوربا...

قاطعته قائلا في حسم: ستكونان زناة في نظر الكنيسة.. ولن يقبل الرب توبتكم.

اقترب مني متنمرا، فشعرت بقشعريرة تسري في جسدي. قال هائجا، منفعلا ووجهه على بعد سنتيمترات من وجهي: أنت بتقول إيه؟ فاكرين روحكم إيه؟ معاكم مفاتيح أبواب السما؟ هه؟ اشتريتم أسهما في الجنة؟ ولا زرعتم نصف فدادينها لحساب الكنيسة؟ إيه التسلط ده؟

حدقت في عينيه ونظراتهما التي يتطاير منها الشرر، قلت مواصلا استفزازه: كل العباد العاصين يتقولون على الرب بهذا الهراء، أطلب

منك الانصراف.. لا فائدة من المناقشة معك وأنت بهذه الحالة من الإنكار. الغضب يجعلك تتقول بكلام تندم عليه.. وربما يبوئك مقعدك في الجحيم بسببه.

اتسعت ملامحه منفعلا، مطلقا شخرة من فمه، تعجبت لصوتها المجلجل، لم أصدق أنني يمكن أن أسمع مثلها داخل مكتبي وشعرت برذاذها على وجهي، ثم اكتشفت أن هذا الرذاذ للفعلة الدنيئة التي ارتكبها فيما بعد، بصق على وجهي، شعرت بالاستهجان والغضب، وصحت في انفعال متخليا عن وقاري وعن لغتي الفصيحة: ملعون أبوك.. يا جورجيوس.. يا ماهر.

دلف موظفا مكتبي إثر ندائي، اتسعت ملامحهما دهشة وهما يريان ملامحي جزعة منفعلة، وعلى لحيتي آثار بصقة عزيز تسمر الرجلان، صحت فيهما لأحررهما من صدمة منظري البائس. اطردوا اللئيم ده برة.

أمسك الرجلان بذراعَي عزيز في قوة وعنف، وجذباه في شدة إلى خارج مكتبي، فيما صياحه يعلو مطلقا عددًا من الشتائم مهددا ومتوعدا أن يفضحني في وسائل الإعلام والصحف، شعرت بالأسى، والحنق، تناولت منديلا لأمسح البصقة من على لحيتي ووجهي، ثم أيقنت بفشل المحاولة، فدخلت الحمام، وخلعت القلنسوة من على رأسي، وغسلت وجهي، ثم تأملت ملامحي المغسولة في ضيق، وغضب.

هذا ما نتحمله من أفعالك يا أبونا، غمغمت في نفسي، وأنا أرش بضع رشات من عطري على لحيتي لإزالة رائحة البصقة،

قلت: تتجاهل آلاف الأنفس الراغبة في إصلاح حياتها، وتذهب لتضيق عليهم الخناق، بالاتفاق مع الكنائس المسيحية الأخرى ألّا تقبل أحدهم في ملتهم، فليذهبوا إلى أوربا إذن، القادرون منهم سيسافرون إلى الكنائس في الخارج، لتغيير ملتهم، وغير القادرين منهم سيغيرون دينهم، وأنت يا سيدنا تصر على عنادك، وتصر على أن ينفروا من الكنيسة.. سحقا.

كنا في ظروف حالكة، لا نعرف فعلا ماذا ستسفر عنه الأيام المقبلة، اشتعلت ثورة عارمة في تونس والكل هنا يترقب، لا أحد يصدق أن ما حدث هناك ستنتقل عدواه إلى مصر، ظلت الصحف تطبل بهذه النغمة، الكل يقول العبارة المضحكة، كأنهم يغالبون بها وجع كابوس، مصر مش تونس، مصر مش تونس، لا أعرف ما هو الفيس بوك، كنت أظنه موقعا يتبع شركة أمريكية ما، مثل كنتاكي أو بيتزا هت، يروج لمنتجاتها، أو ما شابه، لكنني عرفته بعد الثورة، وبدأت أستخدمه كواجهة لأنشطتي الكنسية، لكن كل هذا كان زيفًا، كنا نحبس أشياء، داخل أرواحنا، فامتلأت بالخوف، والانكسار، وهؤلاء الفتية، فروا من كهفنا، إلى الشوارع، لم تعد الكهوف صالحة لأن تلجأ إليها مثلما فعل المؤمنون قديما، بل صارت الشوارع هي الملاجئ الجديدة، بينما نحن محبوسون داخل خوفنا، كان الفتية يصرخون ويهتفون في الشوارع، يقولون ما نتمنى قوله ونحبسه داخلنا، ولا يهمهم قداسته، ولا يخشونه، لا أعرف من دلني على دعوات المشاركة في مظاهرات في عيد الشرطة، استهجان يملأ ظاهر الجميع، وباطنهم يؤيد الدعوة إلى الغضب، حالة من الغليان تجتاح البلاد، ولن تؤدي إلى خير، بالتأكيد النفوس

المهملة في إناء مغلق فوق الموقد، مصيرها إلى الذوبان، أو التبخر، أو الانفجار، وطالما الراعي كان يتمنى أن تحدث الحالتان الأولى والثانية لرعيته، فلا يلومن إلا نفسه، إذا حدث الانفجار.

في صباح ٢٥ يناير ٢٠١١ أحاطت سيارات الأمن المركزي بالكاتدرائية، أحصيت من النافذة عشر سيارات، كان اليوم ثلاثاء، إجازة رسمية كالعادة بمناسبة عيد الشرطة، الشوارع خالية، وجنود الأمن المركزي ينتابهم الضجر في منطقة العباسية، من يجرؤ على أن يتظاهر في هذه المنطقة الحيوية التي تضم الكاتدرائية وعدة منشآت أخرى مهمة بجانبها مثل وزارة الدفاع وغيرها؟ الشمس ساطعة، والجو بارد، والهواء يتحسس الوجوه في حذر، أطللت من نافذة حجرتي، كانت تجمعات الجنود قلقة، لكنها مع ذلك تحاول أن تدفن قلقها في أطباق الفول المتناثرة أمامهم التي يتناولون منها إفطارهم، وسط همهمات صباحية تتغافل عن الانفجار الذي سيحدث بعد ساعات، ضباطهم وقادتهم يجلسون على مقربة منهم يتحدثون في همس، وتشي نظرات أعينهم بغطرسة ممزوجة بقلق دفين، حينما أطللت على هذا المشهد من نافذتي، أيقنت أن الانفجار وشيك، خاصة حينما رأيت أحد الضباط يجفل بعدما اقترب منه أحد الكلاب الضالة، امتدت قبضته في خوف إلى سلاحه، قبل أن ينحني في سخط ويمسك حجرًا ويقذفه على الكلب الضال وهو يطلق سبابا.

انفجرت البلاد، مثل تابوت تعفنت فيه جثة متحللة، فانطلقت منه ملايين الديدان، أين كان هؤلاء الخلق؟ سرت حالات متضادة

من الأمل والتفاؤل والخوف بعد فرار الحاكم التونسي، لم يصدق أحدهم أن هذا يمكن أن يحدث في بلد من البلدان الواقعة أسفل البحر وفوق الصحراء، قداسته في عزلته، مريض كعادته، منطوٍ على نفسه، لا يتحدث إلى أحد، لكن الكل كان يتبادل الهمس داخل بيت الرب، قلق جم، كيف ستكون الأيام المقبلة، والحلول؟ أنباء تتردد بقوة أن سيدنا يرفض أي حديث في المظاهرة الموعودة، همس يتردد عن مطالبات غير رسمية بإيضاح موقفه في شكل بيان، بيان مثل حاجز منيع يتمنى صاحبه أن يوقف هدير الموج، هكذا كانت تنظر إلينا السلطة، إذا استجاب الشعب القبطي لسيدنا، ولم يشارك في هذه المظاهرات، ربما استطعنا حصارها، الآن تتذكرون شعب الرب، الآن تتذكرون أن هناك آخرين يعيشون معكم في هذه البلاد، تتذكروننا فقط في الانتخابات وفي المظاهرات، وتتجاهلوننا في الأوقات العصيبة، حينما ينفرط الدم مثل ثمرات الطماطم في الخلاط، لا أحد يجرؤ على الهمس، أو حتى الاقتراح، لكن أصواتًا ارتفعت مؤيدة بتوضيح موقفنا، موقفنا هو الذي يقود شعب الرب، ويجب أن يكون معلنا، مستبقا يوم ٢٥ يناير، أصدر قداسته بيانا، وأعلن موقفنا فيه؛ لا تذهبوا.. لا تتظاهروا.. قاطعوا أي مظاهرة من أي نوع.

ليه بس يا سيدنا تخيب رجانا؟!

٤

وضعت على صفحتي في فيس بوك صورة للسيسي، وتحتها عبارة: مبروك على مصر، وكتبت رسالة تهنئة قلت فيها: الأنبا...

يهنئ الرئيس عبد الفتاح السيسي على ثقة الشعب واختياره رئيسا لجمهورية مصر العربية.

كتبت رسالة التهنئة وابتسمت، أو تظاهرت أنني أبتسم، كان داخلي وجع، كأنني لا أستطيع أن أبلع ريقي، شعرت بالألم، كأن مغصًا يهرس معدتي مثل البطاطس، وضعت كفي على بطني، وأخذت أردد: الذي تثبت يدي معه أيضا ذراعي تشدده، لا أعرف لماذا انتابني هذا الوجع، ثوانٍ ووضع أحدهم تعليقا بصورة قديمة لي، وضعتها منذ عام، صورة تهنئتي لمحمد مرسي بتوليه رئاسة البلاد، كانت تقريبا نفس الصورة، ما عدا صورة السيسي التي كانت تحل محلها آنذاك صورة لمحمد مرسي، أيضا العبارات اختلف، قلت فيها: فأطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس، لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب، لكي تقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار، نهنئ الدكتور محمد مرسي بالفوز في الانتخابات الرئاسية، فهو أول رئيس لمصر انتُخب بملء إرادة الشعب تطبيقا لحرية الاختيار، والديمقراطية، ومبادئ المواطنة.

لا أعرف لماذا جلب هذه الصورة، تجاهلت التعليق، لم أحذفها من الصفحة، فقط بعض الأحباب سيتكفلون به الآن، لكن أحدًا منهم لم يعلق، كتب صاحب الصورة عبارة أسفل صورة تهنئة محمد مرسي: الأنبا... لما كان بيمسح جوخًا للإخوان، ودلوقتي رجع يمسح جوخًا للرئيس الجديد.

عاودني الوجع مرة أخرى في معدتي حارقا أكثر هذه المرة،

أنا الأنبا المتهم بنفاق الجالسين على مقعد السلطة، أنا رجل الدين الذي يعني لقبه الأب الذي يحمل مشاعر الأبوة والمحبة والرعاية، أحمل عصا الرعاية، لأرعى بها قطيع السيد المسيح، وإذا ما عارضت سيدنا ونفّثت له عن ضيقي وعذابي من تعسفه، لظللت منبوذا ربما لأكثر من نصف قرن، مثل الأنبا إيساك الذي ظل حبيسا في رتبة خوري أبسكوبس منذ عقود، على الرغم من عضويته المجمع المقدس، وحصول جميع أقرانه على درجة الأسقفية، ظل موقوفا ممنوعا من الرسامة لدرجة الأسقفية، متهما بالترويج للفكر النسطوري، معزولا في دير السريان بأمر من سيدنا، لو أفصحت عن مكنون قلبي، للقيت مصيره، لكنني لم أفعل، فمرضت وصرت كالمقيد بسلاسل من حديد في أرض ساخنة ملتهبة الرمال تأكل ذرات رمالها لحم قدمي، كنت متيبسا أمام الشاشة، أتأمل تعليق المارق، الأنبا... يمسح جوخا للإخوان.

أنا لم أكن أمسح جوخًا لأي سلطة، كل جبهتين متصارعتين تحتاجان لرجال يلتفون حول الصفوف الأمامية المتقاتلة، ويدخلون معا غرفا مظلمة، تدار فيها المساومات القذرة، وتفتح فيها الصفحات التي لا يمكن أن يتم فتحها في النور، كل جبهتين متصارعتين تحتاجان رجالًا مثلي، أنا كنت صاحب هذه المهمة الثقيلة، ظهرت في الاجتماعات مع رجال المجلس العسكري، فنعتوني برجل الدين المسيحي عبد البيادة، أنا أيضا الذي وصموه باتهامات التقارب الإخواني، ورجل الجماعة في المقر الباباوي، والإخواني المتنصر، وغيرها من الألقاب البذيئة، ولكن ماذا أقول، إذا كنت أنفذ فقط أوامر سيدنا، اذهب يا... والتقِ فلانًا، نعلق عليك

آمالنا وأحلام شعبنا، بركات المسيح تصحبك في هذه المشاق، لا تعبأ بأي ضغوط يا... صدقني كلمة الرب حلت فيك، تذكر أن المسيح تعذب أكثر من عذابك وتقوّلوا عليه أكثر مما يتقولون عليك، بل سبوه ولعنوه، وشتموه، وقذفوه بالحجارة، وكللوه بتاج الشوك قبل أن يصلبوه، كانت كلمات سيدنا تخرج بطيئة، بصوت رخيم، ينفذ عبر مسام عباءتي، عبر التونية والصدرة الثقيلة التي أرتديها، ومع ذلك كنت أشعر أن صوته يتغلغل في أنحاء جسدي، يملكني، يزلزلني، كان سيدنا ضاحكا، مبتسما، رغم كل تعسفه وجبروته، ورغم وهنه، ومرضه، وبطء حركته، شفتاه كانتا ترتعشان، وهو يغمغم: لا يسيئك ما يقولون عليك، يكفي أن تظل هناك، عيوننا، وعقلنا، وسرّنا الذي نحيا به، تذكر، الرب يضيء ظلمتك، وثق أنه يرى محبتك، وسيكافئك، فلا تدع يدك تكف عن عمل الخير.

كنت أشعر بالجلال، وأنا واقف بين يديه، كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أنعم بلقائه قبل رحيله في مارس ٢٠١٢، كنت محظوظا لقربي منه منعما بينما أتلقى هذه الوصايا، وتحفني آياته، وبركاته، وصلواته، كان هذا يحولني إلى فيض أبيض غريب، يصب طاقته وضياءه في فمي، كنت أحيانا أشعر أن سيدنا حليم، مثل سحابة تمرق بجوار رموش عيني، شعرت آنذاك أنني أستطيع احتمال كل شيء، لكنه رحل، والتصقت بي النعوت القذرة، كأنها أوحال لا يمكن مسحها عن ردائي الكهنوتي، أو لعلي لم أبذل جهدا لمسحها، رحل سيدنا وبدءوا ينتقمون منه فيّ، نكلوا به، وبسيرته، بنقلي وإبعادي، وتجريدي من مفاتيح بيت الرب، إهانات متلاحقة، واتهامات وتضييق على روحي، شعرت أنني بحاجة للاعتراف،

للتواري في خورس التائبين ولكن ما هي خطيتي؟ أنا مثل كثيرين، انغمسوا في رداء الكهنوت، فوجدوا أنفسهم يرتدّون عائدين للدنيا، ويا للعجب، يناقشون أمورها الفانية، وليس أمور السماء، يتدخلون في أمور ليست من شأنهم، يتحدثون كأنهم خبراء في تسييس أمور البلاد، ويتحكمون في مصائر أبناء الرب كأنهم أصابع في قدمه، لا تتزوج بهذه، لا تستيقظ في الصباح وتكره دينك، لا تنم في المساء وأنت يائس قانط، فليفعلوا ما يشاءون، من نصبنا لنسوقهم إلى فوهة البركان، ونتحكم في يأسهم وقنوطهم ورضائهم وخنوعهم وتقبلهم الهزائم بقلب قوي، فلتنفلت أعصابهم، فلنتركهم يسبون الرب، ألم يخلقهم ويمنحهم القدرة على ارتكاب الانحرافات، من نحن لنتحدث باسمه، نحن حتى لا نرتفع لمكانة أظافر في أصابعه، ومع ذلك نتظاهر بالتقوى والعلم، وأن لدينا كل شيء: الحكمة، والعظة، واليقين، والإجابة الشافية للصدور مهما حوت من دموع.

٥

أستيقظ في الصباح، فأجد الخطوات الدامية منطبعة على السجاد، في كل مكان، أشعر بالرغبة في التقيؤ، أحاول تجنبها لكنني أخفق، أتقيأ فعلا على الفراش، هذا هو العام الثاني بعد المذبحة الذي تعاودني فيه هذه النوبة، نوبة التقيؤ تعتصر معدتي بعدما أرى دمًا متجلطًا تنطبع آثاره في كل مكان على سجاد غرفتي، لا أتذكر بالضبط أي شيء عن اختفاء شفق، كل الذي أتذكره أن اتصالا جاءني على هاتفي الخاص، قليلون يعرفون هذا الرقم، وهم

القليلون فقط الذين أتبادل معهم الاتصالات من الصفوف الأمامية المتقاتلة، قال لي صاحب الاتصال: يا أبونا.. إحنا مش مهم عندنا إنك تدي لعزيز تصريح بالزواج الثاني، خليه يتجوز، أو براحتك، اللي تشوفه، بس المهم عندنا دلوقتي، إن مراته القبطية ترجع، ترجع بيتها، أو ترجع وتحطوها عندكم، اللي تشوفه يا أبونا، وكل اللي تشوفه، هيحصل، بس تساعدنا.

تجمدت، لا أعرف لماذا تستيقظ الدنيا وتنام، ويظل هذا الأمر مواصلا الصحو رغم أنفنا، مدرعات دهست وهرست أبدانًا، وسارعنا بتأييد الأمن، وتحميل الشهداء الخطأ، بل والهجوم عليهم، سيدنا اعتكف، فيما تصدرت أنا للمواجهة، ومحاولة استصدار شهادات وفاة طبيعية، كي نحجز الدم، من خطا فوقه ببرود؟ لست وحدي فلماذا تحاصرني هذه الخطوات؟ أحيانا أعود إلى حجرتي بالكاتدرائية وأتجنب إضاءة الأنوار، من الغريب أنني في الصباح أجد آثارًا سوداء متجلطة بحذائي وخطواتي، أتعقبها، لعلها ليست لي، هي ليست لي، مرة خلعت حذائي، وأضأت النور، كان السجاد ناصعا مثل سحابة، خطوت في ثقة متثاقلا، همي وخوفي من رؤية البقع الدامية كان يتعاظم كلما اقتربت ساعة عودتي لحجرتي، أستيقظ في الصباح، وأنظر في حذر إلى السجاد، تسقط عيني على أطراف بقعة، أدعك عينيّ، وأرتدي نظارتي، أشعر أنني لا أرى جيدا، أعاود التحديق، نعم، هي بقعة، كلا إنها ليست بقعة واحدة، بل أكثر من بقعة، في كل مكان، تأخذ شكل حذاء مفلطح، هرس للتو في بركة دم، وجاء ليطبع آثار حذائه المفلطح على سجادي، نهضت في سرعة من على الفراش، منتفضا، وقذفت محتويات معدتي في

الحمام، هكذا أتعرض لهذه النوبة، بعد شهور من المذبحة الملعونة، قبل وفاة سيدنا بشهر، أعتقد أن ذلك كان في فبراير ٢٠١٢، دماء مَن التي تنطبع هنا على سجادة غرفتي وأراها كل ليلة؟ من يزورني كل ليلة هنا، ويطبع دماء قدميه في حماس وانتقام طير جارح؟ تتبعت بقع الدماء، وجدتها تبدأ من عند الباب، وتنتهي حيث خلعت حذائي، ولكن كيف؟! لم أخط في أي دماء، أو بقع طلاء حمراء، هل كان حذائي خاليا من هذه البقع أمس، حينما أضأت الأنوار، وتأملت السجاد النظيف؟ يتعين عليَّ أن أنتظر هذه الليلة، حتى أعود إلى حجرتي، تتكرر المأساة بحذافيرها، أعود إلى الحجرة، قبلها أؤخر نفسي ساعات، أخلع حذائي، أحدق فيه بإمعان، أدعك نعله بكُم ردائي، فيتلطخ الرداء الكنسي الأسود بالغبار والتراب العالق في الحذاء، ولكن لا آثار لأي بقع دماء في النعل، ولا بقعة واحدة، لو رآني أحدهم بينما أنهمك في دعك نعل الحذاء لظنني مخبولا لا ريب، المهم أن حذائي كان به أتربة فقط، كان نظيفا، وضعته قبل السجاد، وخطوت عليها حافيا، خلعت عباءتي، واستسلمت للرقاد، أطفأت الأنوار، وأنا أفكر، أن أسأل ذات ليلة العمال الذين ينظفون الحجرة بعد مغادرتي لها في الصباح إلى مكتبي بالكاتدرائية، أسألهم عن هذه البقع المتجلطة، وكيف ينجحون في تنظيفها كل ليلة، وتعاود الظهور مرة أخرى؟ وكيف تنبت هكذا من الفراغ مثل الشيطان؟ من يدخل إلى حجرتي ويلوثها؟

في الصباح كانت البقع هناك، تقيأت في الحمام هذه المرة، قيء خالٍ من أي أطعمة، وزني يتضاءل، أفقد كيلو جرامات من الإجهاد والضغوط، أكاد أجن، أمسح عرقي، وأتأمل لحيتي ووجهي في

مرآة الحمام، الذبول يرسم دوائر ويحفر أخاديد في ملامحي، ذهبت إلى مكتبي بأسقفية الشباب، جلست واجما، لم أتبادل كلمة مع سكرتيرتي الجالسة في الخارج، شعرت أن لديها كلمات تريد أن تقولها، تجاهلتها، كل شيء تغير، منذ جلس سيدنا الثاني على كرسي مار مرقص الرسول، همشني، نحاني عن كافة مهامي، انتزع مسئولياتي السابقة كأنه ينزع أظفاري، اتهمني أنني كنت أدير البطريركية مستغلا مرض سيدنا الراحل، جردني من مفاتيح بيت الرب كأنه ينزع ضروسي، كانت هذه أكبر إهانة لي، ثم إنه استبعدني من المركز الثقافي الذي تعبت فيه، وجعلته محط أنظار العالم، والمجتمع، ومناط اهتمام كبار رجالات البلاد. حينما كنت مسئولا عنه لم يخل من حركة، كان زوار المركز باستمرار يتطلعون إلى عقد لقاءات مجتمعية فيه، كنت أشعر أن خلايا ذهني منسحقة ومفكوكة هذا الصباح، أبوح بما أراه، وأجلب لنفسي متاعب أخرى، فوق متاعبي، أصمت، وأتعذب في غرفتي إلى أن يذوب جلدي من التقيؤ المستمر، نار قلاية في دير بعيد أهون.

تجددت المتاعب حينما استضافوني ذات مرة في أحد برامج التوك شو، حاولت أن أتجاهل الأمر برمته، لماذا سألوني عن المذبحة؟ قلت محاولا أن أتحسس طريق كلماتي: فلنصفح ولننس، لا بد أن نعمم التسامح، وهو ما نادى به السيد المسيح، كنت أحاول الهرب من الإجابة، لكن المذيع استمات في حصاري، ضقت ذرعا بمحاولاته، وهو يردد أسئلة عن المدهوسين أسفل المجنزرات الحربية، قلت آسفا من محاولاته، وليس من ذكري المذبحة: نحتاج لبناء الوطن، وبناء الوطن لن يكون إلا بالنظر إلى الأمام.

كانت كلمات سافلة، نعم أعرف أنها كانت سافلة ومنحطة أيضا، ولا أعرف كيف تلفظت بها، تلقيت استدعاء من المجمع المقدس، ولومًا وتقريعا، وطلبوا مني عدم الظهور مرة أخرى في أي فضائيات، ظنوا أنني أحاول لفت الأنظار للظهور مرة أخرى في الوسائل الإعلامية واسترداد مجدي القديم، لم يعرفوا أنني كنت أحاول فقط الهروب من السؤال، لكن الزوبعة لم تمر بسلام.

دخلت السكرتيرة إلى مكتبي، كنت واجما فاعتدلت، ووقفت مترددة، ثم قالت، كأنها تخشى مما ستقوله. أبونا.. جاءك اليوم هذا الشخص الذي كان قد تشاجر معك.. المدعو عزيز بطرس فيني.. أصر على مقابلتك.. قال إن زوجته أسلمت، وإنه يطلب تصريحا بالزواج من الكنيسة، وترك طلبه هنا في مكتبك.

قلت بصوت اقتربت نبرته من الحدة والصراخ: إذا عاود الزيارة مرة أخرى، قولي له ألا يطرق بابنا.. لسنا مسئولين عن هذه القضايا.. فليذهب إلى المجلس الإكليريكي، لم أعد مسئولا بعد عن أي شيء.

ثم وضعت كفي اليمنى على بطني، شعرت بآلام مباغتة، هل سأتقيأ مرة أخرى؟ قالت لي: هل أنت بخير يا أبونا؟

قلت محاولا التماسك: أنا على ما يرام.. فقط يعاودني هذا الألم.. أتقيأ كل صباح، منذ شهور، ولا أعرف كيف أداوي نفسي.

ظهر على ملامحها الاهتمام، قالت: هل تحب أن أستدعي طبيبا؟

فكرت في مقترحها. ماذا سأقول للطبيب، حالة قيء مباغتة لا

أعرف سببها، بل أعرف لكن هل سأقوى أن أصارحه بها؟ قلت: بل أريد جورجيوس.. أليس هو المعني بتنظيف غرفتي؟! أريده.

ذهبتْ متحيرة من أمري، شعرت أن وجهها يحمل المزيد والمزيد من الكلمات، تريد أن تصارحني بشيء، إذا كان هناك شيء يجب أن أعرفه، فهو بقع الدماء التي تهاجمني في غرفتي مثل كرات الدم التائهة، في هذه الأثناء تلقيت تلك المكالمة مرة أخرى، أطلق هاتفي المحمول رنينا، نظرت في شاشته، فإذا بكلمة «unknown» مــاذا يعني هذا؟ أن المتصل قيادة مهمة، تحجب شركات المحمول رقمها، يا للسطوة! ومع ذلك انهزمت هذه القدرة، انهزمت في غفلة من الزمن وارتباك عامل المفاجأة، وها هي السطوة تستجمع روحها مرة أخرى مثل ديدان القز تنسج جناحها في صبر كي تطير، رفعت الهاتف وأجبت المكالمة بصوت واهن، فجاءني الصوت حاسمًا: لقد عثرنا عليها يا أبونا.. عثرنا على شفق.. آن الأوان لقفل هذا الملف.. المطلوب منك الآن أن تستدعي جوزها.. الجمهورية الجديدة ليس بوسعها أن تتحمل فتنًا طائفية جديدة.. نرجو مساعدتك.. أنت تعلم أننا يجب أن نواصل تعاوننا في هذا المجال.

٦

هذه المرة لم تكن هناك بقع دماء على السجاد.

هذه المرة كان هناك كابوس مرير.

ممر طويل مفتوح على الكورنيش.. كان الوقت نهارًا.. ربما بعد شروق الشمس بقليل، لكن ألوان السماء كانت داكنة لم تزل.. ماذا جاء بي هنا؟ لا أخرج إلا للضرورة من البطريركية، ولكنني في هذا الكابوس كنت أنتظر أحدهم.. كما لو كنت على موعد، وأحدهم لم يلتزم بالحضور، قطعت الممر مشيا حتى وصلت إلى الكورنيش، على الأرض بقايا أوراق شجر ذابلة تدفعها الرياح في قسوة، وجدت نفسي أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون، الشمس غير ساطعة، في الجو رائحة مطر هطل منذ فترة، الأرض مبتلة، النسائم لم تكن عليلة، والأسفلت مخادع اللون، لم يكن أسود تماما، ولم يكن رماديًّا حتى، أو مغطى بالتراب كما هي العادة قبل عمل الكناسين، كان لونه أقرب للون الكريز، أو قطع الكبدة النيئة، كان لونه مزيجا مقبضا من الأسود والأحمر الغامق، تتصاعد منه أبخرة بدت لي كضباب الصباح، لكنني أدركت فيما بعد أنها أبخرة ساخنة تتصاعد من الأسفلت نفسه، نظرت، دققت في مواضع تصاعد الأبخرة، إنها تتصاعد من كتل من اللحم مستوية مع الأسفلت، هي وطبقة الزفت واحد، منغرزة تماما في مسامه، تتكثف أبخرة اللحم، وتتصاعد، بعد قليل بدأت أشم رائحة مقيتة، رائحة نتنة، لجيفات كثيرة، شعرت بالخوف، وبالضيق والاختناق من الرائحة، كما لو كنت وسط كمين، وسط شرك استدرجني إليه أحدهم، تراجعت خطوة، ضغطت بقدمي دون أن أقصد على لحم لزج ملتصق في الأسفلت خلفي، دوت صرخة مريعة، صرخة ألم عارمة، كأن صاحبها يتمزق بعد طعنه بسيخ ملتهب، انتزعت قدمي في هلع وأنا ألتفت في سرعة والصرخة تزلزلني، لم أر شيئا في موضع خطوتي،

سوى أبخرة تتصاعد من الأرض في كثافة تجاه أنفي ووجهي، كانت حرارتها شديدة فلسعت ملامحي، ورائحتها بالغة القذارة، فارتعشت معدتي، وتقيأت بغتة، واستيقظت من النوم.

استيقظت هلعا، تقيأت فعلا، في الكابوس، وفي الحقيقة، الفراش امتلأ بقيء مقزز مقيت، دقات قلبي تتسارع، صدري يختلج ولحمي وجلدي يبللهما العرق، لحيتي ملتصقة بوجهي، أتنفس في سرعة، وبقايا القيء يغطي فكي، شعرت بالتقزز من نفسي، ورغبة عارمة في تحطيم شيء، أي شيء، أو الصراخ بصوت عالٍ، أو ترك نفسي للانهيار، الانهيار الشديد، لكنني كنت مقيدا، لا أستطيع أن أصرخ، أو أحطم أي شيء، سيسمعون الأصوات بوضوح، وضعت طرف الوسادة في فمي، ضغطت عليها بحسرة وحرقة، بكيت وأنا أصرخ صراخا مكتوما، لا أتذكر متى انتهيت، أتذكر فقط أن الصراخ ارتد إلى أذني، بكاء مرير مخنوق، تواصل لساعة ربما، ظللت على هذه الحالة، جسدي المتهدل، الذي أنهكه القيء من جراء رؤية بقع الدماء المتتالية في الصباحات الكابية، كان في وضع الرقاد منكفيا، على الوسادة، أحتضنها كأنها أمي، أصابعي مغروزة فيها كما لو كانت منطادًا هوائيًّا سينتشلني من الأرض ويصعد بي إلى السماء، لا أتذكر كيف هدأت، غلبتني موجة من الإغماء، سقطت على وجهي من أثر الانفعال، بعدها بساعات استيقظت، لأجد خادمي المكلف بخدمتي وتنظيف غرفتي واقفا على رأسي، وجهه قلق، كان قد نظف الملاءة وكيس الوسادة من القيء، بل نظفني أنا تقريبا، مسح جبهتي، ولحيتي ووجهي، وعطرني، وطيبني، وألبسني صدرة أخرى، غير التي كنت نائما فيها، كيف فعلت ذلك

يا جورجيوس؟ نظرت له نظرة واهنة مستسلمة، مليئة بالامتنان، ابتسم ابتسامة راضية حانية، كأنه اطمأن لاستيقاظي، ثم انحنى على قبضتي المرتخية بجواري، وقبّلها في حنان، أشفقت عليه، وعلى نفسي، وتحسست رأسه، ثم واريت وجهي بكفي، كانت هناك دمعة ساخنة منحدرة على خدي، لم أشأ أن يراها، ما مصدر هذا الإذلال الذي أعانيه؟

هدأت، وكان لم يزل محنيا عند رأسي، قال: أحضر لك الفطور يا سيدنا؟

ذكرني بجوعي، كدت أوافقه، ثم ترددت، تخوفت من معاودة التقيؤ، نظرت في حرص وخوف إلى السجادة، كانت نظيفة، ناصعة، قلت. جورجيوس.. ما تقولش لحد إني عيان.. مش عاوز الأحباب يقلقوا.. شوية برد وجسمي هيرتاح.

أومأ لي برأسه إيجابا علامة الفهم والاستجابة، نهضت بمساعدته، ودخلت الحمام، كان قد أعد لي ملابسي الكهنوتية، صببت الماء على جسدي، وأنا أتمتم: تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين وأنا أريحكم، مسحت لحيتي مرة أخرى من آثار القيء، وخرجت لأجده غادر الحجرة، ارتديت ملابس الخدمة التونية والصدرة والبرنس والمنطقة، مشطت شعري، ووضعت فوق رأسي القلنسوة السوداء المزدانة بالصلبان، كنت أشعر برغبة عارمة في الهروب من حجرتي، كأن حيطانها تقترب من بعضها لتطبق عليَّ بينما أقف بينها، محاصرٌ في حجرتي، هكذا كنت أشعر، حيطانها تضيق وتطبق على ضلوعي، كابوس ليلة الأمس كان مرعبا، بشعًا،

ما معناه؟ ما هذا الأسفلت الذي تلتصق فيه قطع اللحم التي تتكثف منها الأبخرة المقيتة؟ كنت أقول لنفسي وأنا أخطو تجاه مكتبي في الأسقفية، هناك شعرت بالغضب العارم يتجدد داخلي ونسيت كل شيء عن الكابوس، كان عزيز هناك، يقف أمام الأسقفية يحدق بي في تحدٍّ، وينتظرني كأنه ينتظر فريسة.

نظرت له في تكبر، ثم أشحت بوجهي عنه وقلت لسكرتيرة مكتبي: لا أريد أي مقابلات.. أي شخص يرغب في مقابلتي فليذهب إلى المجلس الإكليريكي.. لست مسئولا عن شيء...

قاطعني بلهجة باردة: جرى إيه يا أبونا؟ اللواء عبد القوي هو اللي بعتني ليك.

التفت إليه قائلا في حزم وتحد: خلي اللواء عبد القوي يجوزك.. لما تشوف حلمة ودنك مش هجوزك.. فهمت؟

توقف عزيز مرتعدا، وبدا لي أنه سيبصق عليَّ مرة أخرى، فتراجعت خطوة متظاهرا بالثبات والتماسك، وداخلي يرتعش، صرخ في وجهي: شفق أسلمت.. غيرت دينها وهجرتني.. وتزوجت هذا الشيخ المسلم.. ولسه مُصر إنك تبهدلني.. وتذلني!

قلت محتقنا محاولا كتمان صيحة غضبي: أولا لا تصرخ.. صوتك ما يعلاش.. ثانيا أنا قلت لك لا تبلغ الشرطة.. وعصيتني.

قال منفعلا مواصلا الصراخ. كنت عارف إنها في خطر.. لأنها كانت في بين السرايات يوم ٢ يوليو.. الليلة السودا اللي حصلت فيها مذبحة في المنطقة لما أنصار جوزها اقتحموا المنطقة وقتلوا

الخلق.. طب أقول لك حاجة.. أنا عرفت مكانها.. قاعدة في بيت واحد أجنبي من ساعة ما هربت الليلة المشئومة دي.. كده تبقى زانية ولا لأ؟

قلت مستعيدا السيطرة على صوتي وانفعالي: اذهب إلى عبد القوي هذا اللواء الذي لجأت له.. واطلب منه أن يكف عن الاتصال بي.

مرت لحظة صمت مريبة بعد عبارتي، قبل أن يقول عزيز بصوت هادئ مثير للرجفة والحيرة: إذن مفيش فايدة معاك يا أبونا.. بقول لك أنا حياتي انهارت.. ماعنديش ست.. ومحتاج أتجوز مارينا.. مش همشي في الحرام لأني ماعرفوش.

قلت في ثقة وأنا أرمقه في برود لكنني كنت متخوفا من شيء ما: أنا لم أعدك بشيء.. قلت لك أن تصبر حتى مع إسلام زوجتك، لن تمنحك الكنيسة صكا للزواج، يجب أن تنتظر سنتين على الأقل ربما تعود إلى ملكوت الرب، أما قعدتها مع الأجنبي، فيجب أن تثبت أنها زانية.

واستدرت لأدخل إلى مكتبي، كان لم يزل واقفا على حد علمي حينما أطلقت السكرتيرة صرخة قائلة: حاسب يا أبونا!

ثم تواصلت صرختها بينما أستدير مرة أخرى تجاه عزيز، لكنني لم أر شيئا بعدها، فقط سمعت دويًّا شديدًا، صوتًا ليس له مثيل حينما تكون في مرماه بهذا الشكل، فجأة رأيت سحابة بيضاء تلتف حولي، وتشد وثاقي، عجبا.. من أين استمد السحاب هذه القوة؟

شكلها ناعم كالقطن أو الحرير، لكن ملمسها على جسدي الآن شديد القوة، شديد الوطأة كأنها تعتصرني، حتى إنني بدأت أشعر بضيق في ضلوعي، ضيق شديد، كلا هذا ليس ضيقًا، بل ألم مريع، ألم مثل آلاف الإبر انغرزت في صدري.

شـــاندور

١

كل شيء بدأ هزليا وعبثيا تماما.. علاقتي بشفق وتورطي في قصة عزبة الوقف، وحتى تدبير مخبأ لها في النهاية، وملاذ آمن للنجاة مما ورطت فيه نفسها، من أين أبدأ هذه الحكاية المتشابكة، سأنطلق من واقعة النصب عليَّ التي دبرها المحتال نيلو وشقيقه المغني جوجو الذي جلب لي سروالي الداخلي، نيلو كاد أن يقتلني في إحدى المناطق الشعبية بالقاهرة، وتسألونني عن اختفاء شفق!

الذي أعرفه، أن هذه البلاد تبتلع أهلها أكثر مما كنا نظن، الآلاف ماتوا وقتلوا بدم بارد في ثلاث سنوات، ولم تتم محاكمة شخص واحد، مذابح دُبرت ومرتكبوها من الطرفين خططوا لها ونفذوها دون أن يطرف لهم رمش، ودفعوا دفعا بآلاف نحو حفرة جهنمية عملاقة حفروها بصبر جحافل السوس، ولم يقدم أحدهم إلى المحاكمة، ولم تصدر إدانة بحق أحد، أهلا ومرحبًا بك يا شاندور في العالم الثالث.. هكذا كنت أقول لنفسي.

ظللت تحدث نفسك بالمجيء لمصر، ها أنت جئت يا شاندور،

جئت وجلبت معك الخير والثورة، والضياع لشفق، كل هذا له علاقة بك، أم بالثورة، أم بالدمار والتيه اللذين تسببت فيهما لشفق بقطر الجاولي، هل كل هذا من تحت رأسك يا شاندور؟

لا أعرف لماذا يجب أن يكون ترتيب هذا العالم هو الثالث، لا أعرف كيف يمكن أن توجد مثل هذه البلاد على الكوكب، هل ركبت طائرة أم مركبة فضائية؟ كيف جئت إلى هنا؟ كنت أظن أن ما تنقله شاشات التلفزيون عن تأخرها وتخلفها كذب محض، وأن الميديا تزيف الحقائق، وأن البؤس في الحقيقة أقل بكثير مما تهوله الشاشات، لكنني منذ وصلت إلى مصر، اكتشفت أن البؤس أضعاف مضاعفة، بل إنه هنا ينمو ويمتد مثل السافانا، الناس يقتل بعضهم بعضا في الشوارع، ثم يتسوقون ويلهون، ويأكلون ويشربون ويسكرون ويتجشئون ويتضاجعون، ويحلمون، ويستيقظون في الصباح التالي لأعمالهم، وللقاء عشيقاتهم، ولصوم رمضان، وللاحتفال بالأعياد، ولعقد المؤتمرات الانتخابية، والتوجه لصناديق الاقتراع، على الرغم من الدم الذي يبتلعه أسفلت الشوارع كأنهم يصنعون عجينا خاصا واسع المسام قادرًا على ابتلاع كرات الدم الحمراء والبيضاء وإخفائها للأبد عن أعين المارة، بل يؤلفون الأغاني الراقصة الصاخبة التي يسمونها أغاني وطنية، كأنهم قبيلة بدائية في العصر الحجري، يرقص أعضاؤها حول بعضهم قبل شيّه وسلخه والتهامه.

ما إن هبطت في مطار القاهرة عام ٢٠٠٩ حتى التف حولي العديد من سائقي التاكسي، كان الأمر أشبه بمجموعة من الناس

عثروا على سيزيف الذي وصل للتو بيده شعلة النار، خاصة أن الوقت كان متأخرًا، والليل قارب الانتصاف، لم يضايقني هذا الأمر، شعرت وقتها أنني محظوظ، بلادنا جامدة، من حيث جئت كل شيء يخلو من الحميمية والترحاب، كل شيء منظم، والبشر قلما يخطئون، يحترمون بعضهم بعضا، يوسعون الطريق لبعضهم بعضا، ينتظرون بعضهم حينما يفتح القطار أبوابه، كل شيء هناك منظم وسلس، ويخلو من الإثارة، ها أنا جئت إلى بلاد الإثارة والأساطير والدم المراق بوفرة، دفعت ثمن الترحاب غاليا، كان ذلك أول الدروس القاسية التي تلقيتها في القاهرة، وقررت ألا أستسلم بسهولة فيما بعد لهذه الحميمية.

تعرضت لواقعة سطو قاسية، لم يكن يماثلها قصة قريبة في البروشور التحذيري الذي كان بحوزتي، وتضمن عشرات النصائح الموجهة للأجانب، منها ألا أسير بمفردي في المناطق التي أعتبرها عشوائية ومنها ضواحي منشية ناصر ومثلث ماسبيرو والسلام وعشرات المناطق الأخرى الوارد أسماؤها في البروشور، وألا أثق في الغرباء، وأن أحمل دائما «small notes» مبالغ نقدية قليلة، أثناء توجهي إلى عملي في الصباح بالجامعة، أو أثناء عودتي منها، وألا أتعامل مع ماكينات «ATM» في شوارع القاهرة، فالكثير قد يستغل ظهري في هذه اللحظة ويطعنني من الخلف.

لكن سائق السيارة التي أقلتني إلى البيت المخصص لإقامة الأساتذة الأجانب ابتدع أسلوبا مبتكرا في سرقتي، فاق تخيلي، وخيال واضع البروشور التحذيري، استخدم الخوف داخلي خير

استخدام، ما إن انطلقنا من بوابة المطار، وسلكنا طريق صلاح سالم الذي كان طويلا جدا على الخريطة التي حصلت عليها من الإنترنت للقاهرة، حتى فوجئت به يجري مكالمة هاتفية، بأحدهم، يدعوه بـقمر، كان يخاطبه بضمير المؤنث، ويقول. بصي يا قمر، لماذا يخاطب أحدهم القمر بضمير المؤنث على الرغم أنه مذكر في اللغة العربية؟ كنت قد قضيت الشهور الستة السابقة على مجيئي للقاهرة، أتعلم العربية، كيف لا وأنا بصدد العمل في جامعة القاهرة، مدرسا للتاريخ وأستاذا زائرا بكلية الآثار؟! المهم، أدركت من الكلمات القليلة التي استطعت أن ألتقطها من لهجته العامية الغريبة، أنه يتحدث إلى امرأة، ويخبرها أنه غادر المطار، وفي طريقه إلى توصيلة أخيرة، قبل أن يعرج عليها، هذا هو ما فهمته، لكن الحقيقة كانت غير ذلك، كان قد أنهى المكالمة، ورماني في مرآة سيارته الداخلية بنظرة شهوة، ظننته مثليا، منحرفا من المنحرفين الذين حذرني منهم البروشور، الحقيقة أنه لم يكن مثليا، بل كان لصا.

حاولت الانشغال عنه بمتابعة معالم القاهرة الأولى في لهفة، ها أنا هنا في أقدم عاصمة على الكوكب، عكفت على دراسة تاريخها سنوات من عمري، لكنني أطؤها بقدمي الآن للمرة الأولى، استقبلني التراب في أجوائها الرمادية، على مدى البصر كانت سحب القاهرة خليطا عجيبا من الدخان وذرات الغبار، كأن المدينة شهدت انفجارا نوويا منذ ساعات، أو كأن بركانًا عاصفًا أطلق حممه ونفث سمومه في أجوائها، على الأرض لم تكن الشوارع أفضل حالا، كنّاسون منهكون يدفعون بأصابعهم وأكفهم أتربة وقاذورات، أشبه بتلال الدقيق الفاسد، شعرت بالشفقة على محاولاتهم العبثية، قرأت

في كتاب ما أن القاهرة مدينة قذرة، لا تستحم أبدا، كأنها الملكة القشتالية القديمة، فوجئت باللون الرمادي يكسو كل شيء، بانرات الإعلانات الضخمة التي يفترض أن تكون بيضاء، جدران المباني التي يجب أن تبعث على التفاؤل ويزيد بياضها من مساحة المدينة، حتى الملامح المصرية الأولى التي استقبلتني في المطار، ضابط الشرطة الذي يختم الجوازات، عمال المطار، مفتشو الحقائب، الموظفون الذين يجلسون خلف نوافذ تبديل العملات في سأم، وفي مكاتب الليموزين، كانت العيون كلها تنطق بالضجر، الأنفاس رطبة، منذ دخلت المطار استقبلتني رياح مفعمة بالملل، مغلفة بأحزان خفية، أو ضيق من ساعات انتظار لآمال مجهولة، الكل كان ينجز العمل لكن دون سرعة ودون حماس.

ظللت أتابع القاهرة من خلف نافذة سيارة السائق، السيارة التي أشعرتني أنني في مدينة ملاهي تنتمي للعشرينيات، موتورها يزمجر في يأس، كأنه يطلق استغاثة، بينما يمرق سائقها بجنون في أضيق المساحات وأصعبها بين سيارات نقل ضخمة، وعربات فان متوسطة الحجم، فيما بعد عرفت أنهم يسمونها في القاهرة سيرفيس، كانت الكلاكسات تدوي كل لحظة، كل جزء من كل لحظة، بل كل جزيء من كل جزء، من كل لحظة، شعرت بالذعر، تراجعت في مقعدي الخلفي، الكل كان يتبادل إطلاق الكلاكسات، كأنهم يطلقون طلقات تحذيرية، شعرت أن هؤلاء الناس لو كانوا مسلحين لأطلقوا النار على بعضهم بعضا، ليمروا في نهر الطريق الذي بدا لي في هذه اللحظة ليس سريعا منسابا، بل مثل سد مبقور يخر منه الماء، كانت هناك عربات يجرها حيوانات، فيما بعد أخبروني أيضا

أنها عربات الكارو، كيف تحولت العربة الحربية التي خاض بها رمسيس الثاني معركته الحربية في قادش، إلى هذه العربة البائسة التي يجرها حيوان مغلوب على أمره يبدو كأنه وقع في كمين شرس لصيادين ألهبوا جلده بالسياط حتى تقرح بهذا الشكل؟!

كانت هذه العربات التي تجرها الحيوانات البائسة تسير على اليمين من الطريق، وأحيانا إلى اليسار، كان ظهورها بخطوها البطيء وسط هؤلاء المهووسين بتحقيق انتصارات ضئيلة في مضمار الطريق، عبثيا تماما، فهذه العربات التي يجرها حصان عجوز، أو حمار متقرح الجلد، كانت من الممكن أن تكون ضحية اصطدام مروع، لكن كل مرة يوشك فيها الاصطدام ويكاد يكون قرب وجوهنا، ينحرف السائق المتهور بأقصى طارة عجلة القيادة إلى اليسار، أو إلى اليمين، لينقذنا، كأنه لا يهاب فعلا الموت، لكنه يريد أن يختبر مدى قدرته على تحرير نفسه من قبضته في اللحظة الأخيرة.

القاهرة كانت أشبه بكاهنة حيزبون، تساقطت أسنانها، تواصل رغم أنفها العمل في معبد مهجور، هرب منه المصلون، ومقدمو القرابين، الشيء الوحيد اللامع في هذا المعبد، كانت صور الرئيس الأسبق مبارك؛ محمد حسني مبارك، هكذا كان اسمه مكتوبا بفنط أسود عريض في البروشور التحذيري، لم تكن هناك معلومات متوافرة عنه، سوى أنه حكم مصر منذ اغتيال رئيسها السابق السادات، وأهم إنجازاته مترو القاهرة والتوسع في بناء الكباري في المدن، كانت العبارة موجزة، ولا أعتبرها في ظني بحكم دراستي

للتاريخ، عبارة تلخص سيرة الرجل، شعرت أن محرر البروشور بخسه قدره، بقدر ما تتوزع صور الرجل في كل أنحاء المدينة كما رأيتها، طالعتني أولى صوره في مطار القاهرة، صورة حديثة، لامعة، يحدق بنظرات شبابية، وشعر أسود فاحم، في وجوه زائري مصر الذين انتهوا من ختم جوازات سفرهم، كأنه يقول لهم: أنا أول شيء يجب أن تروني قبل مغادرتكم المطار، أنا راسخ مثل الأهرامات ومثل «أبو الهول»، في الحقيقة لن تنتهي صوره، سرعان ما سنرى صورا عديدة موزعة على الطرق، وعلى مطالع الكباري، ليتبين لي صدق البروشور التحذيري، الذي لم يكن تحذيريًّا تماما، فهو لم يستطع أن يتنبأ بالعاصفة التي هبت بعد عامين من قدومي، لا شيء كامل تماما، حتى البروشورات التحذيرية التي يمنحونها للأجانب المتجهين إلى مصر.

ما إن اقتربنا من إحدى إشارات المرور في منتصف صلاح سالم حتى ركب السيارة فجأة رجل بملابس أمنية، دون أن يستأذن، فتح الباب وجلس، وأغلقه في قوة، لم أميز سوى أن الملابس رسمية، لم أستطع التعرف إن كانت هذه الملابس لرجال شرطة، أم لرجال الجيش، أعتقد أن ملابسه كانت قريبة الشبه قليلا بهؤلاء الذين كانوا يختمون الجوازات في المطار، كان أحدهم يبتسم ابتسامة منهكة رسمية، وهو يعيد لي الباسبور، متمنيا أمنية غير حقيقية بإقامة سعيدة، استنكرت فعلة الرجل الذي جلس في التاكسي، اعتبرته مقتحما، لأن السيارة كانت مؤجرة لحسابي، قبل أن أعترض، التفت السائق لي، وقال: لا مؤاخذة يا خواجة.. ماحدش يقدر يقول للحكومة لأ.

حينما سمعت كلمة الحكومة، ظننت أن الراكب هو وزير ما، تسرعت قائلا في غباء: أنت وزير؟ لم يخبرني أحد أن الوزراء المصريين يركبون التاكسي.

ضحكتان دوتا في وجهي، ثم قال الراكب مستغلا حماقتي: أنا سكرتيره. أما السائق، فاستكمل: ماكنتش عارف إن الخواجة بيفهم عربي.. حِيث كده بقى.. نستأذنه برضه ده ضيف على البلد ولسه جاي طازة من المطار.

لم أفهم الكلمات العامية، التفت السائق نحوي وقال. حضرة الظابط لسه مخلص ورديته ومروح، ممكن نستأذنك نوصله الأول قبل ما نروّح حضرتك؟ على فكرة هو ساكن في المهندسين.. مش بعيد يعني عن سكتك.

كانت وجهتي هي الدقي بالقرب من جامعة القاهرة حيث سأستلم مهام عملي، هناك كان الأساتذة الأجانب يتبادلون الإقامة في إحدى الشقق المريحة القريبة من الجامعة، التي خصصتها إدارتها لنا، لكنني قلت في حدة: كلا.. هذا غير مسموح وأنا لست راضيا على توصيله، هذه السيارة مؤجرة لحسابي، وإذا كان سيشاركني فيها، فيجب أن يعرف أنه سيدفع.. وأنا أيضا غير راضٍ على ركوبه فيها، وسأشتكي في الصباح لسلطات المطار.

شعرت بأنفاس غضبهما، لكنهما لم يعقبا، ظللت متحفزا، المنطقة التي يقصدها، لم يحذرني منها البروشور، بالإضافة إلى أنه بالفعل كان داخل السيارة، ولم يبديا رد فعل على غضبي، لم يغادر السيارة على أي حال، كان البروشور منمقا مهذبا في وصف تعامل

المصريين مع الشرطة ورجالها، كانت هناك فقرة بعنوان: تقارير تتحدث عن انتهاكات لا يمكن إدانتها، قالت أول سطور هذه الفقرة ما يلي: المصريون مضطرون لاحترام رجال الشرطة، والتغاضي عن أي معاملة قد تكون غير لائقة.

الآن أصبحت أتصرف مثل المصريين، مضطر للتغاضي عن أي معاملة غير لائقة، ومن بينها إجبار سائق التاكسي على طرد هذا الضابط، لكنه لم يكن ضابطا للأسف، حينما وصلنا المهندسين، فوجئت به يطلب من السائق إيقاف السيارة، لكنه فتح بابها المجاور لي، وطلب مني النزول، وقال في حزم: وريني باسبورك يا خواجة.. البلد مليانة جواسيس.. أنت بتتكلم عربي لبلب أحسن من أبويا.

للوهلة الأولى شعرت أنه ينتقم مني، في هذه اللحظة التي كان الضابط المزيف ينتزعني من الكنبة الخلفية للتاكسي، كان السائق مدبر الحيلة، الذي لف أنشوطة الخدعة حول عنقي، يجذبني من ساعدي الأيسر، متظاهرا بالدفاع عني، وهو يصرخ في الضابط متظاهرا بالتوسل: عشان خاطري يا باشا.. الراجل ضيفنا.. وفي حكم اللي في حمايتي.

ثم حدق في عيني بحدقتين جاحظتين، هامسا في حدة وخفوت ولهجة آمرة: شوف له قرشين.. ده ضابط شراني وابن مرة وسخة، وعقبال ما سفير بلدك يروح يطلعك، هيكون رماك في حجز أقرب للزريبة، وسط عيال ولاد لبوّ.

لم أستطع استيعاب ٧٠٪ من الشتائم التي تخللت الجمل القليلة المنطلقة من لسانه بسرعة، كيف تحولت اللغة العربية إلى

قطار متهالك يحوي هذه الفضلات الإنسانية من الشتائم، وكل أنواع السباب غير الموجود في القواميس والمعاجم التي اعتدت على استذكارها، وقضيت أشهرا أتعلمها، لقد غشني المدرسون الذين لقنوني مفردات اللغة، كل دروسهم لم تحو هذه الشتائم الحداثية المنمقة، بالكاد فهمت الفصيح منها، كنت مذعورا، خائفًا، منهكًا، عقلي تقريبا توقف عن العمل، فلم أستطع مجاراة الموقف، كل المعادلات السريعة التي طرحها السائق في تهديده، الاستعانة بسفير بلدي، عدم الرضوخ للابتزاز ومعرفة آخر القصة، كلها لم تُجدِ نفعا في تهديدي، كنت خائفا بالفعل، وقررت من اللحظة الأولى الاستسلام، الذعر تملكني، أفرغت حافظة نقودي في كف الضابط المزيف، وأنا أحاول أن أقنعه أن حقائبي ليس بها نقود أخرى، نظر المحتال إلى كفه التي وضعت فيها خمسمائة يورو، ثم أعرب عن استيائه وهو يدفعني لأعود إلى الكنبة، ثم يلتفت إلى السائق ويقول محاولا إضفاء الوقار على لهجته: أنا هاسيبه عشانك المرة دي.

٢

هو لم يتركني طبعا إلا بعدما جردني مما أثار لعابه، في كل الأحوال، طبقت القاعدة التي كانت في مستهل البروشور التحذيري، «nichts wertvoller als dein Leben».. (لا شيء أغلى من حياتك)، وهو ما جعلني أسلمهما النقود، وأعود مسروقا إلى الشقة، قبل أن أجري اتصالاتي في الصباح التالي بالسفارة، ثم توجهت إلى عملي في كلية الآثار جامعة القاهرة، كنت وحيدا، تملؤني الهواجس

والأحلام بشأن ما أستطيع أن أحققه من نجاح في مصر، فإذا بواقعة السطو تثير رعبي، وتلقيني في دوامات من الصراع مع مخاوف من البلاد تبدد هذه الأحلام، أحلام أكاديمية بمواصلة البحث والدراسة التاريخية في التاريخ والعمارة الإسلامية، لكن القاهرة تلك الكاهنة الحيزبون سرعان ما احتوتني بعد المعاملة المريعة التي وجدتها منها ليلا، القاهرة لها وجه آخر في النهار، وجه حانٍ قليلا، فوجئت أنني يمكنني أن أشرب لبنًا وقهوة وأتناول إفطارا شهيا، فيما لا يتجاوز عشرين جنيها مصريا، هل يمكنك أن تتناول هذه الأشياء في أي عاصمة أوربية بهذه الأسعار؟ في هامبورج من حيث أتيت سأدفع ما لا يقل عن ١٠ يورو في أي باتسيري مقابل قهوة وكرواسون وأومليت.

إذا أردت شراء زجاجة ماء سأدفع ما لا يقل عن اثنين يورو ونصف، هل هناك مدينة أرخص من القاهرة؟ المواصلات، خمسون قرشًا للانتقال من الدقي إلى الجامعة في الأتوبيس، أو ثلاثة جنيهات لسائق تاكسي، كان ذلك لدى وصولي لها عام ٢٠٠٩، ربما تكون الأسعار ارتفعت قليلا اليوم بعد مرور هذه السنوات، لكنني كنت دائما أشعر أنني غني، وأنني أعيش في أحد بلدان العالم الأول، لماذا يجب أن نميز العوالم، فنقول إن هذا بلد ينتمي للعالم الأول، وهذا ينتمي للعالم الثالث؟ إذا كنت أستطيع أن أشرب اللبن في الصباح، قبل ذهابي إلى الجامعة، وأتناول فطورا مغذيا يتكون من الفول الشهي الذي أكتشف لأول مرة أن المصريين يأكلونه على الأرصفة من عربات خشبية عتيقة، والبيض المسلوق والجبنة البيضاء، وأرغفة لا نهائية من العيش البلدي المستدير الذي

ذقته للمرة الأولى في حياتي في مصر، بما لا يزيد على عشرين جنيها مصريا، أي ما يساوي ٤ دولارات آنذاك، قبل أن يقفز سعر الدولار فيما بعد الثورة المصرية، التي سببت فوضى عارمة، إذا كنت أستطيع ذلك، قطعا فأنا أعيش في أحد بلدان العالم الأول.

كنت أدخل إلى مكان عملي في كلية الآثار، غير عابئ بالأساتذة الزملاء، مكتفيا بتحية خافتة «Wie Gehts?» ثم تذكرت أنهم لن يفهموا الكلمة الألمانية، فاستبدلتها بكلمة «Hello» وإيماءة خفيفة من رأسي، كان الكلام يتوقف فورا عند دخولي، كأنهم يتبادلون أسرارا حربية، مكان الأساتذة الزائرين في كلية الآثار كان المكتبة، الكلية في الأذين الأيسر من قلب جامعة القاهرة، أحتاج عند دخولها للمرور بعدة كليات، أولها الحقوق، ثم العلوم، ثم معامل كيميائية تتبعها، وبنك، ملتزما الجانب الأيسر من الحرم الجامعي، قبل الوصول إليها.

في اليوم الأول لي بالكلية، استقبلني عميدها، لا أحب أن أذكر اسمه، الجميع أصبح مهووسا برفع القضايا، المهم، حياني الرجل في حذر، وقال كلمات إنجليزية محفوظة، مقولبة، كأنه أخرجها للتو من الفريزر. ويي هوب ذات يو إنجوي ويز أس؛ أتمنى أن تستمتع معنا، أومأت له برأسي قائلا: ثانك يو دكتور، عقّب: آي ويش إيف يو لايك أور يونيوفيرسيتي؛ أتمنى أن تعجبك جامعتنا، فقلت هذه المرة بعربية سليمة: نعم لقد أعجبتني جدا بروفيسور، إنها تاريخية، قديمة، وجودي في مصر أكثر شيء كنت أحلم به طوال حياتي.

ارتاح الرجل بمجرد علمه أنني أجيد العربية، فانطلق لسانه

مثل عربة يتم دفعها بالأيدي حتى يستيقظ موتورها من سباته. أنت بتتكلم عربي! هايل هايل، ده إحنا هنرتاح معاك أكيد، عموما يا دكتور شاندور سُمعتك العلمية سبقتك، المشروعات الأثرية والتاريخية اللي اشتغلت عليها مصيتاك، إحنا بنشكرك على وجودك معانا، طبعا بنشكر جامعة بون لموافقتها إنك تدرس عندنا، يا ترى مرتاح.. كله تمام، الشقة مريحة؟

كدت أقص له واقعة تعرضي للسرقة، لكنني آثرت أن أخفف عنه وألا أجعله يرتاب بشأني أو يشعر بالضيق من حكاية ربما لا تروقه، فواصلت الابتسام قائلا: كله على ما يرام.

أطلق ضحكة مجلجلة، اهتز لها لغده، ونهض من خلف مكتبه، منهيا المقابلة، وصافحني في عجلة كأنه يركلني خارج مكتبه، فنهضت مرتبكا، إذ لم أعرف بعد من الذي سيساعدني في الكلية، من سيمنحني جدول طلبة الدراسات العليا المقرر أن أدرسه بالكلية، جئت منتدبا من جامعتي الألمانية لتدريس مادة التخطيط العمراني وتاريخ فن العمارة الإسلامية بكلية الآثار المصرية، التي طلبت انتدابي، بعدما تلقت نتائج أبحاثي عن المشروعات الصناعية لمحمد علي وأبنائه. قبل الحضور إلى القاهرة، أخبروني أن الظروف ليست مواتية تماما، جامعة القاهرة لا تحتل الترتيب الأبرز وسط جامعات العالم، بل إنها تقريبا خارج التصنيف، ولعل ذلك ما سيجعلك تصطدم بالعديد من المغالطات العلمية، والسلوكيات التي لا تروقك، هكذا حذروني.

قبل أن يظهر من يوجهني لجدول محاضراتي، قضيت وقتا في

الكلية أتفحصها، وأكتشف أنحاءها، الشائع أن يتسلمني شخص ما، ليجري لي «orientation» (استكشافًا) للمكان، لم يهتم أحد بي، ولم يغضبني ذلك، أعطاني حرية أكبر، كنت أروح وأجيء وأتنقل بين مدرجات ومباني الكلية المختلفة، تفحصت في البداية بكل اهتمام متحفَي الكلية في طابق مبناها الرئيسي، ثم عرجت على مكتبة قسم الآثار الإسلامية، وتوجهت إلى مبنى قسم الترميم، الطلبة في كل مكان يجلسون أو يأكلون، أو يتهامسون كأنهم في رحلة لمتنزه ما، يرمقونني بنظرات متفحصة، فضولية، من هذا الأجنبي الذي يرتع في كليتهم، ومدرجاتها؟ احتفظت بابتسامة ثابتة لا تسقط أبدا لمواجهة النظرات الفضولية المتتبعة، كنت قد تلقيت تحذيرات أيضا من شغف الفتاة المصرية بالأكاديميين الأجانب، قلت: بالتأكيد أن تحذيراتهم تغلبها وجهات نظر استشراقية، لكنني لمست بعض النظرات الشهوانية فعلا في أعين الفتيات، وبعض الزميلات بالكلية، لم أشعر برغبة حقيقية في أي شيء في الأيام الأولى لي في القاهرة سوى استكشافها، إنها المدينة التي ظللت أجري عليها أبحاثا دون أن أستطيع العيش فيها، أو أن ألمسها بيدي، فقط زيارات قصيرة متقطعة للأماكن التي تجرى فيها الدراسات، إنها المرة الأولى التي ألتحم فيها بالمدينة بهذا الشكل، اكتشفت للمرة الأولى عشوائيتها، متجاهلا التحذيرات التي حواها البرشور التحذيري، الذي لم أستطع العثور عليه منذ أن أخرجت ملابسي من الحقيبة إلى الدولاب، خضت في شوارع كانت تاريخية، لكنها اندثرت وحل محلها أشياء أخرى، دفعني الفضول لمنطقة بولاق أبو العلا، هذه المنطقة التي انفجرت بالثورة في وجه الفرنسيين منذ

قرنين، فقصفها بليار بمدافعه من النيل، كنت واقفا على الكورنيش، مواجها المسجد الكبير، متخيلا نفسي أحد هؤلاء الجنود ضمن التجريدة الضخمة التي استهدفت إخضاع بولاق، لقمع الثورة الثانية الغاضبة التي كادت أن تنتصر، لولا تخريب بولاق، والقبض على مفجر ثورتها البشتيلي، وتأليب العامة عليه، بإشاعة أنه سبب الخراب والدمار وأعمال النهب التي طالتهم بعد فشل الثورة، نجحت حيلة الفرنسيين، بعدما أطلقوا سراح البشتيلي، فقبض عليه الناس المنهكون إثر خسارتهم أموالهم ومصالحهم ومتاجرهم، واتهموه بالمسئولية في الخراب والدمار الذي طالهم من رأس ثورته ومقاومته للغزاة، واعتدوا عليه بأحذيتهم والعصي والنبابيت، حتى مات من الضرب على أيدي زملائه وجيرانه ورفاق الثورة الفاشلة، تندلع الثورة من أجل الضعفاء والمغلوبين، ويكونون هم أول من يسبونها ويلعنونها، الشعوب تحطم من يريدون لها الخير، استرجعت هذه الكلمات سريعا وأنا أتأمل فوهة غامضة تحاول أن تكون شارعا مفتوحا على كورنيش النيل، قهوة عتيقة على مدخل هذه الفوهة تؤدي إلى منطقة مثلث ماسبيرو التي أدخلها للمرة الأولى دون أن أعرف أن اسمها مثلث ماسبيرو، هالني مشهد البيوت المهدمة، والأحجار المتناثرة وبقايا الشبابيك المتدلية من الطوابق العليا، كأن بنبات مدافع كليبر وبليار قصفت هذه البيوت منذ ساعة، كيف تستمر الحياة بين هذه الجدران، وفي هذه الشوارع؟ حياة تقترب إلى حياة الإنسان الأول في الكهوف، تفوح روائح عطنة، تراب مبلل بالماء، بينما المدنية والعصرية تطل عليها من أبراج مستثمر مصري شهير، أبراج راسخة لامعة تشبه الشمس، أحيانا

كنت أشعر أن القرص المتوهج الذي يشرق من الشرق، يسطع أولا فوقها قبل أن ينشر ضوءه فوق القاهرة، يعيش الناس في قلب القاهرة وسط ممرات ضيقة، بين بيوت تكاد تكون متهدمة، تنتظر هزة زلزالية صغيرة، أو تسارع في وتيرة دوران الكرة الأرضية حول نفسها، لتنطبق الأرض على سكانها، شاهدت هناك أسقفًا خشبية، يغطيها أصحابها بسعف نخيل، وملصقات دعائية جلدية كانت تستخدم فيما مضى في دعاية انتخابية ما، هالني أن يعيش هؤلاء الناس، بين النيل، وأبراج شاهقة يبحث بعضهم فيها عن الرفاهية الفائضة عن حاجته بالتأكيد سواء في شركات المحمول، أو في دور السينما أو في شركات الاستثمار العقاري التي تعمل في تخوم القاهرة، أو في الفندق الضخم الذي يحويه. تعجبت أشد العجب، كيف يأتي الناس لمشاهدة فيلم سينمائي يلعقون خلاله الآيس كريم بكل أريحية، وخلفهم، وأسفل منهم آلاف البشر المطحونين في هذه العشش المتآكلة التي تنهشها ذرات الغبار وإبر الصقيع.

عشة تنتصب بجوار برج، عشة تظل هناك دائما كلما هدمتها الريح، يعيد أصحابها أو أبناؤهم بناءها، كأنها كتلة نار تشتعل ذاتيا كلما خمدت جذوتها، شعلة نار تتأهب لالتهام البرج، الذي يظل هناك صامدًا لا يهتز، لا يبالي بالخطر القادم، أو النار اللافحة المنبعثة من الشعلة القريبة، يطل البرج على العشة في شموخ وكبرياء وتسلط وتجبر، غير عابئ بمعاناة أهلها كأنه برج حقيقي، من حجر، ومن أسمنت، كأنه لم يمتص شيئا من روح بانيه، قلت في نفسي وأنا أجلس في قهوة على ناصية من نواصي المنطقة العشوائية: هذا البلد يتنفس شيئا ما يشبه انبعاثات الواين لحظة فتح سدادة الفلين، ليتهم

تجرعوا منها، ربما زالت آثاره فيما بعد، لكنهم فقط استنشقوا، ولم يتخطوا أكثر من ذلك.

٣

أفقت على.. صوت غريب.. يطلقونه من أنوفهم بمعاونة حنجرتهم كلما أراد أحدهم التعبير عن الاستهجان، أو الغضب الشديد، في كل الأحوال وجدت صاحب الصوت، يقبض على ملابسي، ويشدني بعنف وهو يواصل إطلاق الصوت مرات متقطعة.

غلبني استغراقي فيما حولي فلم أدر أنني ارتكبت خطأ جسيما بالتجوال بكل أريحية في المنطقة الشعبية، والعودة للمقهى المطل على الميدان لأحتسي شايا رمادي اللون من مياه ملوثة بالتأكيد.. لقد ارتكبت عدة أخطاء اليوم.. أين البروشور التحذيري؟ لقد كسرت كل تحذيراته، تجولت وحيدا في منطقة مثلث ماسبيرو العشوائية مدفوعا بفضولي البحثي لاكتشاف خبايا المدينة، وشربت شايا رغم أنفي، حينما جاء صبي القهوة، البالغ من العمر خمسين عاما، وطلب مني أن أشرب شيئا، قلت له. أنا فقط أجلس لأرتاح، بعد إذن حضرتك، وأعرف أن القهوة ملكك، وأنك ستكرمني، فنظر لي نظرة ممتعضة من هذا الأجنبي الذي يتحدث بهذه الطريقة، كأنني كان يجب أن أتحدث بطريقة عشوائية تلائم المنطقة، زعق في قائلا· أنا مش صاحب القهوة، أنا أكبر صبي فيها، والقعدة بالمشاريب، مش فاتحنها خُن، ثم ذهب، وعاد بكوب زجاجي متسخ، منطبع على

حوافه وجوانبه بصماته، ووضعه أمامي، كان يحوي شايا رماديا، لقد ارتكبت أخطاء هائلة بجلوسي في قهوة عشوائية داخل حارة ضيقة من حارات هذه المنطقة البائسة، وها أنا ألتقي مرة أخرى باللص الذي انتحل شخصية ضابط الشرطة، لكنه هذه المرة يرتدي بنطلون جينز مهترئًا، ممزقًا عند الركبة، وتي شيرت لونه باهت، بدون ياقة، يبدو كما لو كان قد تمزق في مشاجرة ما، وأعيدت حياكته، بدلا من أن أشعر بالدهشة من هذه المصادفة البائسة، شعرت بالدهشة من ملابس الرجل القديمة، ألم يجردني من خمسمائة يورو؟ فلماذا لم يشترِ ملابس جديدة؟

قبض الضابط أو اللص الذي انتحل شخصية ضابط، على ياقة قميصي، وجذبني في عنف غير مبرر، أصابني بهلع، ورسم على وجهي علامات الذعر، مما شجعه على أن يصفعني على هذه العلامات، ليضاعف ذعري، وهو يقول: أحا يا ابن الوسخة.. أنت عرفت مكاني إزاي؟ أنت صحيح جاسوس.. لو أنت نصراني اقرالك بسرعة مزمورين لأني هدفنك هنا يا ابن اللبوة الطليانية.

باغتتني عداونيته وشتائمه المتدفقة من فمه كذرات ثاني أكسيد الكربون، قلت مذعورا بحروف عربية متآكلة من الرعب: حضرتك.. لماذا تكرهني؟ أنا لم آتِ إليك، أنا أستاذ في الجامعة.. وجئت هنا فقط لأرى هذه الأماكن الفقيرة من بلدكم...

قاطعني مطلِقا شخرة أخرى مزمجرة من صندوق حنجرته الذي بدا لي في هذه اللحظة مثل أوكرديون ثقبه النمل الأبيض: أماكن إيه يا ابن اللبوة الطليانية.. ده أنت بلغت سفارة بلدك وسفارة بلدك

مولعة الداخلية على اللي جابوني من ساعة ما قلّبتك، دا أنا هاخدك رهينة يا ابن الشرموطة...

قاطعته وقد بلغ الذعر مني مبلغه، وحاولت دفعه بأصابعي الملتاعة: لا لا صدقني.. السفارة لم تقصد أن تسيء إليك.. أنا لم أقصد الإساءة إليك.. يمكنني أن أسحب البلاغ لكن اتركني أذهب.

شدد من قبضته على ياقة قميصي وهو يجذبني بالفعل داخل مجاهل الحارة قائلا في غل: أسيبك تذهب.. ممكن بس على آخرتك السودا.

كنت أظنني مثيرًا للشفقة، وأبعث على التعاطف، راقبني صبي القهوة الخمسيني في تراخ، وتقدم نحونا، ثم التقط الكوب الذي عليه بصماته، وعاد داخل القهوة كأن الكوب هو كل ما يخشى عليه من هذا الشجار، فيما تجمع الناس حولنا وقال أحدهم الذي يرتدي جلبابا طويلا تلونت أطرافه بلون الطين: جرى إيه يا واد يا نيلو؟ مش كده.. الخواجة شكله ابن ناس في بلدهم.. مش كده عيب ما ترميش جِلة على سُمعة البلد.. هتضرب السياحة يا واد.

كان ما يقوله الرجل مضحكا أيضا، لكنني لم أضحك، بينما نيلو يواصل شدي من ياقة قميصي إلى جهة غير معلومة، وقد استل مدية كما عرفت فيما بعد، وأخذ يهدد الناس كي لا يذكروا اسمه، متوعدا، بساعده الأيمن، بينما عروق عضلات ساعده الأيسر تنتفض، وهي تجذبني من ياقتي، فأفسح الناس له الطريق في أريحية كأنهم يشاهدون فيلما سينمائيا مثيرا، وأنا أحاول أن أستنجد بأحدهم، دون جدوى، فجأة انحرف بي نيلو في منعطف

مظلم، هو ربما لا يكون منعطفا، ربما يكون نتوءًا ما، أضيق من الحارة التي اصطادني فيها، في النهاية دفعني بغتة داخل حفرة في الأرض، كنت أظنها حفرة، حينما سقطت فيها للمرة الأولى وأطلقت تأوهات يائسة مثل جرو ضعيف، فيما بعد اكتشفت أن نيلو ألقاني في حجرة تحت الأرض، يمكن الهبوط إليها بعدة درجات حجرية، ربما هي ليست حجرة، ربما هي مخزن، لأنني اكتشفت وجود أجولة ما، حينما نبشتها متصورا في هلع أنها ربما تحوي حشرات مخزنة لزوم تعذيب أحدهم، وجدت داخلها أحجار فحم سوداء، دفعني نيلو في هذا المكان، وأغلق عليَّ بابًا خشبيًّا متهالكًا، وأسند جسده عليه، ليتأكد أنني لن أهرب، ووقف يشعل سيجارة.

ما هذا المأزق؟ أي فخ أقحمت فيه نفسي؟ هكذا كنت أحدث نفسي في قلب الحفرة، وأتخيل صحف بلادي تكتب عني غدا: مصرع ألماني في بلاد الفراعنة على يد بلطجي، وربما يستخدمون جهلهم المعتاد في وصف ما حدث بأنه لعنة من اللعنات.

ظللت متيبسا في مكاني أراقب في هلع ظهر نيلو المحتال الذي تنكر في ملابس ضابط بوليس، كان قد دس سلاحه (المطواة) في جيبه، وأشعل سيجارة، وأخذ يفكر في قلق، شعرت بقلقه من طريقة نفث الدخان، ما الخطوة التالية؟ ماذا سيفعل بي؟ ظللت محدقا فيه، ترتعش أطرافي، شعرت ببرودة مباغتة، بدأت هواجس زحف الحشرات تجتاحني، خشيت إلقاء نظرة في الحفرة التي دفعني فيها، أو تحسس حدودها بأصابعي، تناهى إلينا ـ أنا ونيلو ـ صوت شخص يتجشأ، هتف نيلو دلدول.. واد يا دلدول.

شعرت بالخطر أكثر، من هو دلدول هذا؟ مرت بذاكرتي في لحظة كل سنوات عمري الأربعين: طموحاتي، أحلامي بتحقيق بحث تاريخي كبير، الاستقرار في الشرق للأبد، سواء في الهند، أو فارس أو في مصر، تذكرت الجلسة الواسعة التي عقدتها مع أصدقائي الأكاديميين، الذين دعوني للتخصص في تاريخ الشرق الأدنى، والرحيل إلى إيران، وتجاهل الحلمين السابقين، شعرت أن وجودي في مصر يتأسس من كونها مركز العالم، هنا تاه قمبيز وابتلعت الصحراء جيشه، وهنا انكسر نابليون وتبدد حظه وحلمه في إمبراطورية واسعة وعظيمة مترامية الأطراف، وهنا أيضا خارت قوى الإمبراطورية العثمانية، وانسحقت تماما تحت ضربات جيوش محمد علي الذي انتزع ضروسها ضرسا ضرسا لولا النجدة الروسية والفرنسية، هنا أيضا أصاب محمد علي نفسه الخرف، وعاش حتى وفاة ابنه الأكبر إبراهيم الفاتح العظيم، رأس حربة جيوشه، تذكرت في لحظة أنني قررت أن هذا البلد في رأيي أقوى من إيران ومن الهند، لذلك يجب أن أحضر إلى هنا، وأدرس تاريخه، لكنني لم أتوقع أن ينهار كل ذلك بغتة، على يد محتال، في حارة ضيقة، في منطقة مجهولة تسمى مثلث ماسبيرو.

جاء دلدول، إنه السائق الذي أقلني من المطار، كان يرتدي جلبابا كالح اللون، ممزقًا عند الإبط الأيسر، والكتف اليمنى، هتف فيَّ نيلو بحدة وهو يحك أظافره في شحوم لغده: إيه حكايتك يا سي زفت أنت؟ العيال قالوا لي إنك زانق واحد أجنبي.. أنت مهبول.. صح؟

تحرك جسد نيلو في حدة كأنه سيضربه، لكنني فوجئت به يتقدم بجذعه الأعلى إلى الإمام قائلا: لا أنا مش مهبول.. أنا نصراني.. وبلطجي.. ودول مصيبتين.. لو كنت بلطجي بس كان زماني دلوقتي باقبض من الحكومة.. إنما عشان أنا نصراني، هتلاقيهم طالقين كلابهم السعرانين ورايا دلوقتي.

خبط دلدول كفيه مستنكرا، ثم أطلق شخرة غير متوقعة، وهو يقترب بأنفه الضخم، من وجه نيلو كأنه سيدسها في وجهه قائلا: يا أخي ملعون أبو عقدة النصارى اللي عندك دي.. مين اللي حط في مناخيرك الحوار ده؟

المناقشة رغم حدتها وعدم استيعابي لكل عباراتها، إلا أنها منحتني أملا، أحدهم يدافع عني، أشار نيلو تجاهي قائلا بشخرة مماثلة: ابن اللبوة الطليانية اللي اصطدناه من المطار، هنا أهو.. أكيد بعتوه كمين، أنا قفشته قاعد ساهي على قهوة، وكان قبلها عمال يلف فيها زي الدبور، العيال دلوني على عيل أجنبي غريب في المنطقة، قلت أشوف إيه الحكاية، ما أنا من ساعتها وأنا قايل لك يا دلدول، الواد حمادة الحرشجي بلغني إن المخبرين عمالين يدوروا عليَّ.. وغالبا اشتبهوا في أوصافي بعد ما سفارة بلده سخنت خمس مديريات أمن في البلد، وضباطها طالقين مخبرينها عليَّ.

لم أدرك وقتها نصف الحوار، لم أعرف أبعاده، ظننت أن إجادتي للعربية وتعرفي على أسرار لهجتها العامية خلال سنوات إقامتي في مصر بعد نجاتي من هذه الواقعة، هي السبب أني تذكرته كله الآن، لكنني وقتها وعدت نفسي إذا خرجت سالما من هذه الحفرة، أن

أدرس العقدة القبطية التي يعاني منها هذا المحتال، الذي تسبب شكه وارتيابه في أن يحبسني في هذه الحفرة، كأنه قرصان، نجح في اصطياد عروس البحر، فحبسها في قبو سفينته.

تقدم دلدول نحو الباب الخشبي، وأزاح نيلو في رفق، ودون أن يتمكن من رؤيتي في ظلام الحفرة، هتف في غلظة: يا خواجة.. أنت ياض!

نهضت في صعوبة، متكورا على نفسي، مرتكزا على ركبتيَّ، قلت في خفوت مرتعش لكنه ملهوف: نعم.. نعم.

تابع دلدول: تعرف مين في المديرية يا خواجة؟

قلت في بطء، متلمسا كلماتي، محاذرا ألا تفلت كلمة خطأ: لا أعرف ما تتحدث عنه، أستطيع أن أعرفك بدائرة معارفي، فقط عميد الكلية و...

قاطعني نيلو مطلقا شخرة جديدة، قائلا: شوفت.. مش بقولك.. شوفت.. أهو طلع يعرف عميد.

أسكته دلدول بدفع وجهه بعيدا عن باب الحفرة، وقال. أي عميد تقصد يا خواجة؟ اسمه إيه؟ معلق كام نجمة؟

قلت في تردد وقد استشعرت أنني ارتكبت خطأ: في الحقيقة هو ليس عميدًا في البوليس.. إنه عميد الكلية التي أدرّس فيها، عميد كلية الآثار جامعة القاهرة.. يمكنكم أن تسألوا عني هناك.. اسمي شاندور جوزيفال، بروفيسور في الجامعة وأستاذ زائر

قاطعني دلدول، ملوحا بكفه، فكففت عن الكلام، التفت إلى نيلو، وجذبه من كوعه، وابتعدا قليلا، قمت، وتشبثت بالباب

الخشبي، كان بوسعي دفعه، وتجربة محاولة الفرار، مخاطرا بإغضابهم، ودفعهم للتراجع عن قرار إطلاق سراحي الذي كانوا يتخذونه الآن، ظللت أحاول استنشاق نسمات الهواء، داخلي يتعاظم خوف أن أمكث هنا أكثر من ليلة، عادا لي فجأة، قال نيلو وهو يستل مطوته ويشهرها في وجهي، بينما يفتح الباب الخشبي: اقلع لباسك يا ابن اللبوة الطليانية، اقلع لباسك يا روح أمك.

٤

سيصنعان من لباسي الداخلي سحرا ما، سيصيبني الأذى حتما، إذا أصررت على الشهادة ضدهما في المحكمة ـ إذا حدث وتمت محاكمتهما على سطوهما المسلح عليّ ـ كنت أتأمل لباسي القطني وأنا أسلمه لهما، مقابل إطلاق سراحي، هل تعمدا إيهامي بشيء غير الحقيقة، قال دلدول وهو يشير إلى نيلو بغلظة. الواد ده نصراني.. وتقدر تسأل على نصارى البلد دي عاملين إزاي.. يعرف سحرة في الفيوم وسيوة وبلاد مخفية في البحيرة، يقدروا يسخطوك ابن آوى، أو كائن مالهوش عـازة.. مرخي.. وضيق.. يعني لا هتعدي.. ولا حد هيعدي فيك.. إشطة يا خواجة؟ يلّا يا حبيبي من هنا ما نشوفكش تاني.

جلد البنطلون كان يحك في أعضائي، وفي عرق جسدي، أشعر بالحكة بينما أسرع من خطوي قبل أن يتراجعا، غادرت الحفرة مذعورا، كان نيلو يمسك سروالي الداخلي بفخر ووضوح، كأنه

يتعمد إيذائي في رجولتي، لم يعنِني هذا في شيء وإن كان طلب أن أعري مؤخرتي لفعلت، المهم النجاة، نجوت وخرجت من براثن الملعونين، وعدت بأقصى سرعة إلى شقتي في الدقي، لأبحث عن المنشور التحذيري، قررت ألا أغادر شقتي عدة أيام، تخلفت عن الذهاب للجامعة، لم يهتم أحد، كنت أعاني حيرة، ليس الخوف هو الذي أقعدني في المنزل، بل الحيرة، والتعجب، ما هذا الانحدار، كيف انحط أهل هذا البلد إلى درجة التهديد بعمل سحر باستخدام الملابس الداخلية؟ شعرت بحزن عميق، هؤلاء الناس يعيشون حياتهم اليومية فوق طبقة هشة من الثلج لسطح بحيرة من الخراء المشع، يعملون، يأكلون، يتجشئون، يتضاجعون، يطاردون لقمة العيش، فوق آلاف الشروخ الهشة التي ستتهاوى بهم بغتة في الإشعاع، سيغرق الجميع في الصديد، بدأت أبحث في هذه الشروخ، التقطت شرخا منها، بدا لي واضحا من هلع نيلو المحتال القبطي، أتذكر عبارته وهو يقول. نصراني وبلطجي، إذا كنت بلطجي فأنا باقبض من الحكومة، لكن لأني نصراني فهم طالقين كلابهم السعرانة عليَّ.

كيف تطارد حكومة ما مواطنًا ما من أجل خلافها معه في اعتقاده وإيمانه بربه، وما هي ديانة الحكومة أصلا؟ ما هي المعتقدات التي تؤمن بها؟ وهل تصلي الحكومة؟ هل تذهب للمعبد أو للكنيسة؟ وهل تقف في أول الصفوف؟ وإذا فعلت ذلك فهل تسدد ما عليها من واجبات ورعاية لسائر المصلين معها وتهمل الباقين الذين يصلون في معابد أخرى؟

بدافع خفي بدأت أبحث العقدة القبطية تحديدا، نيلو تصرف معي بهذه القسوة من منطلق إحساسه أنه قبطي وبلطجي، تكفيك إحداهما لتكون منبوذا في هذا البلد، أما الاثنان، فهذا يضع رقبتك دائما تحت السيف، هكذا كنت أفكر، وأنا أتصفح العديد من الكتب التي جلبتها معي عن مصر، لم يذكر أحدها أي إشارة للمحنة القبطية، سوى إشارات إلى الرئيس السادات، الذي دشن في تاريخ مصر الحديث لقب الرئيس المؤمن، سلفه شيد كاتدرائية، واستدعى إمبراطورًا إثيوبيًّا لمشاركته افتتاحها، وأثناء سنوات الهزيمة العسكرية البالغة التي تعرض لها في الستينيات، رعى ورحب واقعة ظهور العذراء في ضاحية تسمى الزيتون، وهو ما أجج المشاعر الدينية الإسلامية ضده، كان الشعب منقسمًا بسبب الهزيمة، خصومه الإسلاميون صبوا عليه سخطهم، وأرجعوا هزيمته أمام إسرائيل بسبب تنكيله بهم، وإعدامه قياداتهم الدينية، تراجع الهدوء الديني في عصر السادات، وتم خدش حالة الصفاء بين المسلمين والأقباط لأول مرة بسبب الإصرار على بناء كنيسة في منطقة تسمى الخانكة، تلبد الجو أكثر بالغيوم بعد إصرار هذا الرئيس على ارتداء عباءة دينية، والظهور بمظهر الشيخ في أحاديثه وخطبه، أطلق الأسد من عرينه، أعني به البطريرك الذي تولى شئون الكنيسة المصرية، بعد فترة قصيرة من تولي السادات منصبه، الرجلان جاءا معا، أحدهما انحاز لشعبه المسلم، والآخر جمع في قبضته سلطة شعبه المسيحي، بالإضافة لذلك كان هناك أسد آخر يزأر في البرية، أسد متأسلم خرج من عباءة السادات، أطلقه على خصومه اليساريين والشيوعيين والمتلبسين باعتقادات سلفه

السياسية، إلا أن هذا الأسد سرعان ما أفلت وعاد إليه وقتله في واقعة اغتيال تدور حولها الشكوك. بدأت أتتبع وقائع الانهيار بين الجانبين الإسلامي والمسيحي في عصر مبارك، الذي أطاحت به ثورة عارمة كان لي حظ حضورها من أولها، الغريب أن قبل اندلاع هذه الثورة بخمسة وعشرين يوما وقع حادث إرهابي بشع، استهدف كنيسة بالإسكندرية.

ذهبت إلى دار الوثائق المصرية وفي يدي اليمنى ورقة تحوي أحداثًا طائفية وقعت في عهد مبارك، كنا وقتها في ٢٠٠٩، لم يزل الرجل مستقرا في الحكم، من بعيد تتطاير قصص وإشارات عن نيته نقل السلطة لولده، كان قد عدَّل دستورا منذ عامين، اهتممت بواقعة بشعة حدثت في قرية صعيدية تسمى الكشح عام ٢٠٠٠، بدأت أحداثها ليلة رأس السنة، وهو ما تبين لي بعد ذلك أن الأحداث الدموية المتعلقة بالأقباط تبدأ دائما في اليوم الأخير من كل عام، في ٣١ ديسمبر ١٩٩٩ كانت بداية مقتلة الكشح الشهيرة بين المصريين حسبما أشارت تقارير مسيحية، حصلت عليها بعدما وجدتها تتحدث عن انتهاك دموي للأرواح القبطية، ٢١ قتيلا دفعة واحدة في نهار يوم واحد، سألت نفسي في جزع: هل يستوعب الشرق مثل هذه المجازر في عصره الحديث؟ أم أنني أقرأ فصلا متخيلا من تاريخ المماليك القديم؟ رجعت لمضاهاة التقرير المسيحي بالصحف الرسمية، كما نفعل عند دراسة التاريخ، لا تطمئن لمصدر واحد، حاول قدر الإمكان أن تحصل على أكثر من مصدر لنفس الرواية، راجع جميع الكتبة، والمدونين المعاصرين للحدث، لهذا توجهت إلى مؤسسة حكومية تسمى دار الكتب والوثائق القومية المصرية.

إنه مبنى عتيق، يواجه النيل، هنا الحضارة تجاور الحياة، لا تنفصلان، لكن داخله كان الموظف لا يعبأ بالنيل أو بالحضارة أو بالحياة، كان فقط يركز اهتمامه على حل مسابقة كلمات متقاطعة في ورقة الصحيفة التي وضع عليها طعامه، سن قلمه يمر في خطوط سوداء كابية على مربعات المسابقة، التي طمستها زيوت الطعام التي تفرزها أقراص الطعمية الراقدة على الورقة، شعرت بالتقزز من المشهد، الرجل يداه ملطختان بالطعمية، ويمسك القلم، ويحل على الورقة، ويكاد سن قلمه يدهس في طريق شغفه بحل المسابقة، أقراص الطعمية التي يلتهمها في شهوة، رمقني متفحصا، قبل أن يعود إلى مسابقته وطعميته، ثم سألني دون أن يعاود النظر إليَّ. لماذا تطلب هذه الصحف بالذات؟ قلت بعربية متكسرة تحاول قدر الإمكان إخفاء تقززي منه: أنا أستاذ زائر بكلية الآثار جامعة القاهرة، كما ترى في الكارنيه والتصريح الذي معك، لماذا لا تريد أن تساعدني؟

كنت قد دفعت له متقززا بكارنيه الجامعة الذي حصلت عليه عقب وصولي، وتصريح دخول دار الكتب والوثائق القومية الذي طلبته بحكم كوني دارسا للتاريخ ومدرسا له، تفحصهما بأصابعه المطموسة في الزيت، وأعادهما لي وهو يحدجني بنظرة خبيثة، فسرتها على أنها ناقمة على تهديدي القصير، أو مستنكرة محتجة على إلحاحي، نفض يديه من طعميته، ومسح شفتيه العالق بهما الزيوت، بمنديل قماش مصفرّ اللون، يكاد يكون قذرًا حسبما تبين لي بعدما تمعنت فيه حينما ألقاه بلامبالاة بجواره، نهض، وأحضر لي صحف يومَي الثالث والرابع من يناير عام ٢٠٠٠، جلست أتأمل

المكان، موظف أعلى من ذلك يجلس إلى جهاز كمبيوتر منزوٍ في المكتب المجاور، خمنت أنه أيضا يعكف على حل مسابقة أخرى للكلمات المتقاطعة، كان يحدق فيّ بإمعان، كأنه يسجل تفاصيل ملامحي قبل الشروع في رسم بورتريه لوجهي، الرجل الذي جلب لي الصحف، وضعها بدون تأنٍّ على المائدة الخشبية الطويلة، المائدة والصحف كان يعلوهما التراب، حينما احتك الاثنان، وقع العناق الحار بين الغبار، فثارت ذراته وتناثر بعضها على سطح زجاج نظارتي الطبية، لأكون دقيقا، ألقى الصحف في وجهي، راقبت الموظف في حنق وهو يعود إلى سيده.. أقصد رئيسه، انحنى عليه، وتبادل معه همسات، بينما يومئ تجاهي، كنت أستطيع أن أخمن ما يجري، على الأقل أثير في قلبه هواجس تجاهي، أجنبي، وأستاذ زائر بكلية الآثار، ويطلب الاطلاع على إصدارَي الأهرام الصادرَين منذ تسعة أعوام، تجاهلتهما وبدأت أتصفحهما.

أوراقهما كانت خشنة، أعلى الصفحة الأولى، شعار الصحيفة الرسمية؛ ثلاثة أهرامات متعانقة، وعليها كلمة سوداء بفنط غامق اللون.. الأهرام، سعر الصحيفة كان خمسين قرشا، وعدد صفحاتها ٢٨ صفحة، وعلى اليمين من شعارها، كانت هناك عبارة تقول كلماتها «رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير إبراهيم نافع»، كل ذلك كان أعلى خطين طويلين، بعرض الصفحة الأولى، تعانقا على تواريخها، الاثنين ٢٦ رمضان ١٤٢٠ هجرية، جرت هذه المذابح إذن في شهر رمضان المعظم، الذي يصوم فيه المسلمون عن الطعام! أخذت أدون معلومات الصحيفة، وملاحظاتي عليها، كان التاريخ المجاور للتاريخ الإسلامي هو التاريخ الميلادي، ٣ يناير

كانون الثاني ٢٠٠٠، ثم التاريخ المصري، ٢٤ كيهك عام ١٧١٦، ما هذا الخليط العجيب؟ ما هوية هذا البلد؟ وإذا كانت صحفها تضع هذه التواريخ للتعبير عن التعدد، فلماذا يكرهون الأقباط؟

بجوار التواريخ السابقة، سنة الإصدار، كان العام المائة وأربعة وثلاثين من عمر مؤسسة الأهرام، وكان ذلك هو العدد رقم واحد وأربعين وألف وثلاثمائة، تدحرجت عيناي على مانشيتات الصفحة الرئيسية عام مذبحة الكشح، لم تذكرها من قريب أو من بعيد، ظننت أن هناك خطأ، كان المانشيت الرئيسي يقول. «اجتماعان وزاريان برئاسة مبارك اليوم لمراجعة الموقف الاقتصادي ومستقبل قطاع البترول»، ويجاور المانشيت صورة، ثم عنوان آخر ذُكر فيه مبارك أيضا وكان يقول: «كلمة للرئيس اليوم في احتفال وزارة الأوقاف بليلة القدر».

كيف لا تكون الأولوية في الصفحة الأولى للقتلى وقصة المذبحة؟! أرواح صعدت إلى بارئها في مقتلة عظمى، وعلى الرغم من ذلك تكون قصة الصفحة الأولى عن اجتماعات رئيس البلاد بأغراض اقتصادية، وليست أمنية سريعة لتدارك الدماء التي سالت، ثم احتفالات دينية بليلة القدر، ولا ذكر عن أي احتفالات تأبين، أو فعاليات تضامنية مع أسر القتلى!

انتقلت إلى الصفحة الثانية، التي كانت مقسمة إلى أعمدة، تحوي مواعيد البرامج في التلفزيون المصري. تأملت أسماء البرامج والأفلام المكتوبة بجوار ساعات اليوم المختلفة، ما هذه الدقة؟ البلد يحرص أن يخبر مواطنيه مواعيد البرامج والأفلام

وتوقيتات عرضها بالتفصيل، يحرص على متابعتهم الجيدة لكل ما يقوله إعلامها الرسمي، شعرت بالغبطة، لكنها كانت غبطة مؤقتة، سرعان ما زالت بمجرد دخولي الصفحة الثالثة التي كانت مدهشة، تصدرها موضوع كبير عنوانه عريض بفنط أسود يقول: «الشفاء أصبح ممكنا»، يعلوه عنوان أصغر «السرطان غول العصر»، كان على ما يبدو تحقيقا صحفيا أجراه المحرر عن خطورة المرض ويحذر فيه من زواج الأقارب، لكن المدهش في الصفحة، أن ثلاثة أرباعها التهمه إطار عريض حوى صورة مبارك أسفل عنوان يقول: مسابقة «صورة مستقبل مصر»، قلت لنفسي. إذن فصور مبارك ليست متوافرة على مطالع الكباري فقط، انحنيت أكثر لأقرأ تفاصيل هذه المسابقة، فوجدت فقرات تقول: تتوجه مجموعة كليوباترا بالشكر العميق للسادة المتسابقين الذين استجابوا بتقديم أعمالهم العلمية والفنية للمشاركة في رسم صورة مصر المستقبل، وقد أعلن عن المسابقة في الصحف بدءًا من ٢٠/ ٩/ ١٩٩٩ عدة مرات وتم إرسال الإعلان إلى جميع الجامعات ومراكز البحوث والمجلس الأعلى للثقافة.

شعرت بالحيرة، لماذا يزج أحدهم باسم ملكة بطلمية قديمة في إعلان عن صورة مصر في المستقبل؟ شعرت بالغباء، لم أفهم ما هي مجموعة كليوباترا، في الصفحة المقابلة كانت هناك موضوعات صحفية تتناول شئونًا دولية، ومنها تبادل الاتهامات بين العسكريين الروس والمقاتلين الشيشان، وآلاف الأتراك يتظاهرون ضد روسيا، وعنوان آخر يقول: «ماذا يعني أن يحكم ألمانيا جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية؟»، إنهم يتناولوننا في صحفهم، قلتها في دهشة قبل

أن أنتقل إلى جزء من الصفحة السفلى حيث إطار مربع كبير يحتل ثلثها، وداخله مانشيت أسود عريض بثلاث كلمات تقول: «تعاطفك معهم لا يكفي» وأسفل هذه الجملة ٤ صور لأطفال مصريين يبدون بائسين، ومكتوب تحت صورهم أسماؤهم (هنية وأمينة ودنيا وأحمد) وثلاثة أسطر تقول: هؤلاء جميعا كانوا مرضى بالسرطان وشفوا لتوفر الإمكانيات والتبرعات من أهل الخير فلا تتردد أن تساهم أيضا في تخفيف آلام أطفال آخرين ينتظرون هذه اللفتة منك، أنقذهم وتبرع ولو بجنيه واحد لأن تعاطفك بس مش كفاية.

ثم جملة بخط أسود أعمق من ذلك الذي كُتبت به السطور السابقة: تبرع ولو بجنيه واحد، إذن فهذا البلد يعقد احتفالات دينية ضخمة لإحدى الليالي الإسلامية المقدسة، وتنظم بعض الشركات مسابقات مصحوبة بصور حاكم البلاد، لرسم صورة عن مستقبل مصر، في حين أن أطفالها، أهم شيء في مستقبلها، يعانون ويتعذبون تحت وطأة مرض السرطان، ويسندون علاجهم لما تسفر عنه جيوب المتعاطفين والكرماء من الإعانات والتبرعات، حتى ولو بجنيه واحد.. شعرت بالأسى.

تلا ذلك صفحات حوت أخبارًا رياضية، وأخرى دينية تخللتها مسابقة رمضانية كبرى، ولوجوهات معلنين وشركات مساهمة في منح جوائز المسابقة الرمضانية، قبل أن أعثر على تغطية أحداث المذبحة في صفحة ٢٤، إلى اليمين من أعلى الصفحة، عنوانها الرئيسي يقول. «ارتفاع عدد الضحايا إلى ٨ قتلى و٢٩ مصابا»، ثم عنوان أكبر منه حجما يقول: «بيان لوزارة الداخلية عن أحداث مؤسفة بقرية الكشح

في سوهاج»، أما العنوان الثالث فكان يقول: «عناصر إجرامية نهبت وأحرقت محالّ تجارية مملوكة للمسلمين والأقباط».

وبدأ متن الخبر الذي حرره صحفيان، هما أحمد موسى ومحمد مطاوع، بفقرة تقول: «ارتفع عدد الضحايا في أحداث قرية الكشح بسوهاج إلى ثمانية قتلى و٢٩ مصابا نتيجة تبادل إطلاق الرصاص أعلى أسطح المنازل وإحراق عدد من المحال التجارية وتمكنت أجهزة الأمن من السيطرة على الموقف والقبض على مثيري الشغب».

وتابع الخبر «قال بيان صادر عن وزارة الداخلية إن بعض العناصر الإجرامية والمثيرة للشغب عمدت إلى تصعيد ردود الفعل بين المسلمين والأقباط بقرية الكشح بعد الأحداث التي وقعت مساء الجمعة الماضي نتيجة معاملات تجارية بين الطرفين».

رائحة الكذب كانت تفوح بين السطور، أي شجار تسببه معاملات تجارية يسفر عن مصرع ثمانية كما تقول رواية الصحيفة؟ هل من الممكن أن يؤدي شجار بين شخصين أو ثلاثة على مطالبة بالديون مثلا في شهر رمضان الذي يلتزم فيه المسلمون بالأخلاق الدينية أكثر من أي شهر، إلى هذا الصراع الذي ينتهي بهذا المشهد الدموي البشع؟ كنت أغمغم في نفسي وأنا أتتبع أسماء الضحايا، كانوا كلهم أقباطًا، واندلعت الأحداث بالتزامن مع العيد الديني لهم الذي يبدأ مع رأس السنة، الجمعة ٣١ ديسمبر ١٩٩٩، بداية اشتعال الأحداث، وأسفر إطلاق الرصاص عن وفاة المواطن عبد المسيح محروس إسكندر وكريمته سامية وإصابة ثمانية آخرين يوم الجمعة الماضي، وفي المساء تجددت الأحداث مرة أخرى كما صرح

مصدر أمني للأهرام، وقيام العناصر الإجرامية من المسجلين جنائيا بعمليات إشعال الحرائق في عدد من المحال التجارية، وكانت الأحداث قد هدأت تماما يوم أمس الأول السبت، بعد التدخل المباشر من مسئولي الأمن في سوهاج.

إذن فاندلاع الأحداث كان ليلة رأس السنة، أثناء بدء احتفالات الأقباط بأعيادهم في القرية التي تسكنها أغلبية قبطية بحسب التقرير المسيحي الذي قرأته أولا، ثم هدأت الأوضاع يوم السبت الأول من يناير، وعادت لتشتعل مرة أخرى.

توقفت قليلا عن التدوين، نظرت إلى الصحيفة الثانية، التي صدرت يوم ٤ يناير، رابع يوم على المقتلة، كانت تغطي أحداث اليوم الذي يسبقها بطبيعة الحال، أي بعد الانتشار الأمني المكثف، إلا أن عدد القتلى ارتفع مع ذلك إلى ٢٠ دفعة واحدة، في الصفحة الثانية والعشرين، نشرت الأهرام متابعة للمذبحة، في نفس موضع تقرير أمس، أعلى صفحة الحوادث إلى اليمين منها، بعنوان صغير: «ارتفاع عدد القتلى في أحداث الكشح إلى ٢٠ شخصا وإصابة ٣٣»، ثم بعنوان أكبر وأكثر تركيزا في الطباعة: «إحراق وإتلاف ٧٨ محلا تجاريا مملوكة للمواطنين في الكشح ودار السلام»، ويليه عنوان: «شائعات مغرضة استغلها البعض في إثارة الشغب وتصعيد الأحداث».

كيف تواصلت المقتلة وقوات الأمن في القرية منذ اندلاع المشاجرة الأولى؟ هل تواجدت هناك لتشرف على استمرار المقتلة؟ كان ذلك هاجسي، بدأ محرر الخبر أول فقرة فيه قائلا:

«ارتفع عدد القتلى في أحداث قرية الكشح بسوهاج إلى ٢٠ قتيلا و٣٣ مصابا، وتبين احتراق ٣٣ محلا تجاريا وسيارتين، وما زالت أجهزة الأمن تفرض حظر التجوال حول دار السلام والطرق المؤدية إلى القرية لمنع من يحاولون استغلال الأحداث المؤسفة في القيام بعمليات شغب جديدة».

قلت في ذهني وأنا أتأمل الموظف الذي لم يزل يلعب كلماته المتقاطعة: لحساب من تم فرض حظر التجوال؟ لحساب القتلة ولحمايتهم أثناء تأديتهم مهمتهم بدأب وبدم بارد؟

وتحت عنوان قصير، قال محرر الخبر لماذا تجددت الأحداث؟ وأرجعت مصادر أمنية مسئولة أسباب تجدد الأحداث إلى العناصر التي أرادت تعكير حالة الهدوء الأمني في هذه الفترة وإفساد المناخ الصحي بعد الاحتفال بالألفية الثالثة في منطقة الأهرام.

عبث.. عبث.. عبث.. جمل رنانة، تصريحات جوفاء، مؤتمرات صحفية، والقتلة مطلقو السراح، لا أحد يعمل من أجل وقف الدم، لا أحد يعمل بجدية من أجل إنقاذ الأرواح من الهلاك، منجل من الكراهية يمر أسفل أهل هذه البلاد، يصلون، يتعبدون، يذهبون إلى المساجد، والكنائس، يتظاهرون بأداء العبادات، لكنهم لا يمانعون أيضا من سفك دماء بعضهم بعضا.

نهضت مصطحبا أوراقي، وتركت الصحيفتين على المائدة المغبرة، لم أستطع تناول غذائي بسهولة في هذا المساء، شعرت بغصة وأنا أتأمل شوارع القاهرة، بالتأكيد كل الأمم تمتلئ تواريخها بالمذابح، لكن إلى هذا الحد؟ جلست في مطعم قريب من جامعة

القاهرة، كان يقدم بيتزا ساخنة بخمسين جنيها فقط، كان هذا تقريبا بسعر خمسة يورو، قررت أن أتوقف عن مقارنة الأسعار، تناولت البيتزا الساخنة، ولم أستطع أن أشعر بنفس سعادة كوب اللبن الذي شربته في أول صباح لي في القاهرة، المدينة مخادعة، تبدو هادئة وجميلة، لكنها تنام وتصحو على مشاعر الغدر والكراهية، كأنها دبابيس قاتلة في العروق تنغرز بشروق الشمس كل صباح.

في الصباح التالي لم أشعر بسعادة بينما أشرب كوب اللبن الرخيص وأتناول إفطاري البسيط المكون من الفول الشهي والبيض المسلوق والجبنة البيضاء، وأرغفة لا نهائية من العيش البلدي الشهي الذي ذقته للمرة الأولى في حياتي في مصر، بما لا يزيد على عشرين جنيها مصريا، كنت أجلس قلقا، كمن يضع مؤخرته فوق فوهة بركان، التفكير في المذبحة التي عثرت فيها قدمي بالصدفة جعلني أهتم أكثر بتاريخ البلد القريب، العلاقة بين مسلميه ومسيحييه لا يجب أن تعنيني في شيء، في النهاية أنا مجرد أستاذ لتاريخ فن العمارة، لا شأن لي بهذه الأمور، أم أنني يجب أن أهتم؟ بالتأكيد يجب أن أهتم، على الأقل بسلامتي الشخصية، كي لا يعبث بي بلطجي ويجردني من سروالي الداخلي كما حدث في منطقة ماسبيرو، تذكرت أنني لم أذهب إلى الشرطة لأبلغها بالواقعة، كما لم ألجأ لأحدهم من السفارة لأحكي له أنني التقيت نفس اللص الذي جردني من أموالي في أول ليلة لي، بالتأكيد هذا سيساعد كثيرا في القضية، وفي القبض عليه، لكنه سيثير حولي هالات من الأسئلة، ربما تنتهي بترحيلي من هنا على الرغم من كوني الضحية، كنت أجلس أتأمل في الأوراق التي كتبتها في دار الوثائق المصرية،

وتعصف بذهني أفكار مؤلمة عن نيلو الذي جردني من سروالي الداخلي، هل أذهب لأبلغ عنه، أم ألتزم الصمت كما وعدته؟ زفرت في حنق، حينما دخلت هذه السيدة مكتبة القسم، وسألت عني أولا لدى مكتب المسئول عن المكتبة، قبل أن تتجه نحوي، وتميل نحوي هامسة: بروفيسور شاندور جوزيفال؟

٥

سأترك حكاية نيلو وشقيقه جوجو وسروالي الداخلي الضائع حينا، وأعود إليها فيما بعد، لأن الحكايتين تتقاطعان هنا، حينما التقيت شفق وروت لي حكايتها، ظننتها كاتبة قصص موهوبة ذات خيال جامح، قالت لي إنها تعمل مهندسة، في الحقيقة هي لم تزاول عملا هندسيا فعليا في القاهرة، لكنها كانت تعمل في شركات تنفذ مشروعات في دول خليجية، بادرتها بسؤال: من دلك عليَّ؟ فقالت: زملاؤك.. حينما طلبت منهم المساعدة في البحث عن تاريخ المنطقة المجاورة للجامعة، أخبروني أنك وصلت حديثا منتدبا من جامعتك، لتُدرس تاريخ العمارة الإسلامية لطلاب الدراسات العليا، وامتدحوا لي خبرتك في موضوعات ودراسات وأبحاث قدمتها من قبل عن المشروعات الصناعية لأبناء محمد علي وأنك عملت في مناطق من الجيزة وغيرها، وقالوا لي إنك أجريت أبحاثا عن بعض المنشآت التاريخية التي شيدها بعض حكام الأسرة.

شعرت أن أحدهم تعمد التخلص منها بدفعها إلى مقابلتي، لا أحد منهم يعرف تخصصي الدقيق ما عدا عميد الكلية، ولا أظنها التقت به، قلت متوجسا: إذا استطعت أن أساعدك فسأفعل بالتأكيد.

ابتسمت في حماس، وظهر على ملامحها فرح طفولي، وقالت وهي تجلس وتخرج أوراقًا عديدة من حقيبتها: أتمنى ذلك، لأنني منذ شهرين أبحث عمن يساعدني فعلا، أظن أن لدي قصة ربما تثير فضولك، لكنني ألجأ إليك لتأكيدها، أو للتحقق من مدى زيفها، سأحاول أن أكون مختصرة قدر الإمكان...

قاطعتها قائلا في جدية: أتمنى أن تروي كل التفاصيل، لأعرف بالضبط ما نوع المساعدة.

لم أصدق في البداية قصة جدها بقطر الجاولي وشكه في سلوك جدتها جوليان، وهي القصة التي لم تحكها شفق لزوجها عزيز، قالت لي إن زوجها وأهلها لن يصدقوا هذه القصة، وهي لا تريد إفساد الأمر، لم أستوعب شيئا، كل ما أدركته من حكايتها، أن جدها المباشر، احتفظ بأوراق قديمة، لجده الأكبر، الذي عمل في خدمة الخديوي إسماعيل، وأن هناك في هذه الأوراق، حكاية عن جدتها التي تنحدر إليها أصول عائلتها، حكاية عاطفية ربطت الجدة المسيحية بالخديو إسماعيل، وفيما يبدو أن الحكاية مؤلمة، لم أفهم كثيرا، سوى أن هناك حجة ما، كتبها الخديوي إسماعيل تكفيرا عن عمله السيئ تجاه أسرة خادمه بقطر الجاولي، أبرزتها لي شفق، وأقنعتني إلى حد ما أن قصتها ربما تكون صادقة، نظرت إلى الحجة وقرأت كلماتها بعناية:

> سمحت إرادتنا أن نمنح خادمنا بقطر الجاولي وأفراد أسرته الصغيرة مشمول حدائق وفدادين عزبة الوقف البالغ مساحتها ألف ألف ذراع في بقعة من أروع بقاع الجيزة الغَنَّاء الواقعة بين سراياتَي أبنائي البرنسات حسن وحسين، وأمام حقول وجنان وبساتين ابنتي البرنسيسة فاطمة، وهو الذي خدمنا طوال عمره ولم يطالب أبدا بزيادة راتبه؛ وعليه أوصي بمنحه ١٥٠ كيسا بمناسبة ميلاد طفلته الميمونة وأدعو أبنائي ألا يتخلوا عن خدمته، فنعم الخادم الأمين.

قلت في تشكك: حكاية غرائبية تنتمي لـ«ألف ليلة وليلة»، كتاب الحكايات الأشهر الذي تتميزون به، إذا لم تكن هذه الحجة مزورة، فنحن أمام فصل جديد من التاريخ لم يتم كتابته بعد.

ثم نظرت لها بعدما أتممت عبارتي، ارتسمت على ملامحها علامات خيبة الأمل، وقالت: بالتأكيد ليست مزورة، لن أتتبع سرابا.

قلت بينما أخلع نظارتي الطبية، كما أفعل دائما حينما أدخل في جدال: لقد قلتِ في بداية حديثك إنك تلجئين لي من أجل تأكيد القصة، لكنني لست خبيرا بالأوراق والوثائق.. أنا فقط خبير بالتاريخ وبتتبع الآثار، ودراستها، سنتعامل على أن الحجة حقيقية، ماذا تريدين أن تثبتي بقصتك؟ أنك حفيدة الخديوي إسماعيل؟ أم أنك تملكين أرضا يشغلها الآن منتفعون ومُلاك بالتأكيد معهم أوراق ملكيتهم لبيوتهم، ولن يقتنعوا بقصتك، ولن يسمحوا لك بالحصول على شبر واحد منها؟

صمتت، هزت رأسها هزتين متتابعتين، لم أفهم ماذا تقصد بهز رأسها، ظلت صامتة، تتأمل الحجة التي لم أزل أمسكها في

يدي، فعاجلتها: أم أنكِ تطمحين في الانتماء إلى عائلة الخديوي إسماعيل؟ هل هناك أوقاف يتمتع بها ورثته وترغبين في أن تشاركيهم إرثهم؟

هزت رأسها مرة أخرى هزتين متتابعتين، قالت: أريد أن أقول.. إن لدينا حقًّا في هذه الأرض.. حقًّا يجب استرداده...

قاطعتها وأنا ألوح بنظارتي الطبية تجاه الحجة: بأي حق تستردينه؟ من أنت؟ ما صفتك القانونية للمطالبة بهذه الأرض؟ أنا لست خبيرا بالقوانين في بلدكم، لكن على ما أظن، أنك بحاجة لمحامي، وليس لأستاذ في العمارة.. لأن مجرد وجود الحجة في حوزتك، لا يعني بالضرورة أن تطالبي بالأرض، هل تستطيعين إثبات نسبك لهذا الرجل... ثم نظرت في الحجة وعدت أنظر إليها مواصلا تساؤلي: بقطر الجاولي؟

قالت شفق: بالعكس.. الرجل كان عِنينًا حسبما يقول في قصته، والطفلة التي أنجبتها جدتي جوليان لم تكن من صلبه.

قلت: هذه قضية خسرانة من قبل أن تبدأ، فالحجة باسم بقطر الجاولي، وأنت لا تنتمين له، الرجل كان عِنينًا كما تقولين.. لقد انتهت هذه القصة قبل أن تبدأ.

رفضت أن تستسلم، أصرّت أن أساعدها في العثور على خرائط لعزبة الوقف، بينما أفتح أطالس فرنسية تحوي خرائط قديمة للجيزة، كانت أنامل شفق ترتعش في قلق، كأنني بصدد تحضير جان، يخبرها بنبأ من الغيب، شعرت أنها كليوباترا تنتظر أنباء اغتيال قيصر، أو إيزيس وقد قررت في حماس وأمل أن تواصل البحث عن

قطع جسد زوجها أوزوريس المتناثرة في أنحاء البلاد، ضبطت نفسي مفتونا بالبحث عن ملامح المرأة المصرية في تقاطيعها القلقة، في الحقيقة شفق كانت تجسد مزيجا غريبا من المرأة الشرقية والغربية، كنت أشعر من بلوزتها الخفيفة التي ترتديها على ملابسها الداخلية التي ظهرت حزوزها، أنها سيدة من الزمن الغابر، غادرت للتو لوحة قديمة مثبتة في بطن مقبرة من مقابر النبلاء في البر الغربي، طريقة تصفيفها لشعرها، وألوان مكياجها، تقول إنها سيدة مصرية قديمة عتيقة الطراز، لكنها مع ذلك على علم بتطورات صناعة الموضة العالمية في مكياج النساء، تعرف جيدا كيف تنتقي ألوانا لملامحها، وكيف تهجر الألوان الصارخة التي تطمس شرقيتها، ونبل وجهها، كيف تحافظ على أصالة هذا الوجه، وألا تؤذي بشرتها؟ استغرقتني أفكاري، وأنا أتأملها، فعجزت أن أبحث في الأطالس بحضورها.
وعدتها بالاتصال بها حال عثوري على نتيجة، ذهبت وقد اتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي، لكنها لم تأت، غابت، كنت قد اتصلت بأصدقاء لي في معهد الآثار الألماني، ودلوني على بغيتي، بعدما أعيتني الأطالس الفرنسية، أمدوني بخرائط قديمة للجيزة، كانوا قد أجروا عليها دراسات وأبحاثًا أثرية، جهزت لها الخرائط التي طلبتها مني، ويا للعجب، كانت عزبة الوقف هناك، على خريطة قديمة ترجع لعام ١٨٩١، كانت العزبة محصورة بين سرايتين، الأقرب منهما للنيل، إلى اليمين من الخريطة، كتب واضعها كلمات «سرايا البرنس حسين» في شكل مربع كبير، يواجه ضلعه السفلي شارع البرنسات؛ ثروت حاليا، وضلعه الأيمن يواجه شارع بولاق الدكرور أو شارع التحرير حاليا، يا للعجب! لقد صدقت الحجة

التي تحويها أوراق شفق، كانت هناك مساحة تكاد تكون خالية، توسطتها ظلال داكنة، كتب عليها صاحب الخريطة عبارة عزبة الوقف، كتبها بالإنجليزية، مثل كل الكتابات التي على الخريطة، «EZ. EL WAQF» ثم مربع كبير يشبه مربع سرايا البرنس حسين، لكنه كتب عليه «سرايا البرنس حسن»، كان ضلع المربع السفلي يواجه أيضا شارع البرنسات؛ ثروت حاليا، الذي يفصل بين السرايتين، وبين فدادين البرنسيسة فاطمة، شقيقة البرنسات، والتي تحولت فيما بعد إلى أراضي جامعة القاهرة، كانت سرايا البرنس حسين تواجه حدائق الأورمان، التي حملت اسم. جاردين دي جيزة، كما كان ضلع السرايا الشمالي يواجه مساحة كبيرة خالية، كتب صاحب الخريطة عليها كلمة الدقي (EL Doqqi).

بحثت في الخرائط الأحدث من هذه الخريطة، كانت السرايتان لا تزالان موجودتين في الخريطة التي أصدرتها وزارة الأشغال العامة المصرية للمنطقة عام ١٨٩٧، أما في الخريطة التي ترجع لعام ١٩٣٣، فكانتا قد تلاشتا تماما، وحلت محل سرايا حسين كلمات «Giza secondary school»، مكتوبة بالإنجليزية، ثم عزبة الوقف، ثم كلمة «بين السرايات» في المنطقة التي كانت تشغلها سرايا حسن، وكذلك ظهر مربع صغير، كُتب عليه بحروف دقيقة «Brewery» الأهرام، مصنع بيرة الأهرام، الذي تم إنشاؤه عام ١٨٩٩ بواسطة شركة بلجيكية في حديقة سرايا البرنس حسن نجل الخديوي إسماعيل.

في خرائط المنطقة التي أصدرتها الوزارة المصرية للأشغال

العمومية عام ١٩٥٤، كانت معالم بين السرايات قد اتخذت شكلها الحالي، للمرة الثانية تغير اسم سرايا البرنس حسين نجل الخديوي إسماعيل الذي أصبح فيما بعد سلطانا على مصر، السلطان حسين كامل، فقد اندثرت السرايا، وبعدما حملت في خريطة عام ١٩٣٣ اسم جيزة سكندري سكول، أصبحت في خريطة عام ١٩٥٤ كلية الفنون التطبيقية، اختفت للأبد في هذه الخريطة عزبة الوقف، وصارت المنطقة الواقعة فيما بين كلية الفنون التطبيقية وبين شريط القطار الموازي لشارع السودان، تسمى بين السرايات، يحدها من أسفل شارع ثروت الذي يفصلها عن حديقة الأورمان، التي تغير اسمها من جاردين دي جيزة واحتفظت بموقعها في مواجهة جامعة القاهرة، التي كانت حتى خريطة عام ١٨٩٧، مجرد فدادين خضراء شاسعة، تجاور فدادين جاردين دي جيزة المتصلة بسرايا الخديوي إسماعيل، التي لم يعد لها أثر

بدأت أشعر بالإثارة، لقد كانت شفق على حق، وقصة جدها بقطر الجاولي تستحق التتبع.

٦

كان من الطبيعي أن يغضب عزيز زوج شفق ويثور. إرادة شفق كانت مثل جبل المنجنيز، لا أحد يعرف كيف يكون شكل هذا الجبل، وكذلك أنا، لذلك أعتقد أنه خير مثال على صلابتها، وإصرارها على خوض مغامرة استعادة العزبة المزعومة. بعدما غادرت منزلهما، في الليلة العاصفة التي تناولت معهما فيها العشاء،

وكشفت شفق عن نيتها استعادتها، بعدما شجعتها خرائطي على تأكيد قصتها، اكتشفت أنني جلبت على نفسي دون قصد عداوة زوجها، غمني ذلك في البداية، لكن اهتمامي بالقصة كان علميا شهوانيا، أثار روح الإثارة داخلي، حتى بعد فشل محاولتها القضائية في استرداد الأرض قانونيا.

ما هي خطوتك التالية يا شفق؟ سألتها في التليفون، كانت موجات احتجاج زوجها قد جعلته يفكر ذات ليلة أن يحرق حجرة جده، بكل ما تحويه من أوراق ومخطوطات وأوراق جدها بقطر الجاولي، صارحتني أنها استيقظت نفس الليلة التي تناولت فيها العشاء معهما، فوجدته واقفا مخمورا، يحملق في الحجرة، وفي عينيه نظرات الحنق والغضب وقلة الحيلة، ترجمت هذه النظرات بإحساسها أنه ينوي ارتكاب فعلة حمقاء، لذلك طلبت مني زيارتي في الكلية، وحينما جاءت، كانت بصحبتها حقيبة لابتوب متوسطة الحجم، وضعت فيها كل الأوراق المهمة التي تخشى عليها من زوجها عزيز، أوراق جدها وقصة شكوكه حول سلوك زوجته، وعلاقتها الآثمة بالخديو إسماعيل، وكذلك الحجة، التي حملقت فيها بنظرات طويلة، قبل أن تسلمها لي، قائلة: لن أجد غيرك من يحفظ هذه الحجة، ويخاف عليها مثل عينيه، أنا واثقة فيك، أنت على الأقل تدرك قيمة هذه الكنوز.

قلت: ولكن ما هي خطتك التالية.. المحكمة لم تعترف بالحجة.. تنعدم قيمتها في هذه الحالة!

حانت منها نظرة للأرض، كأنها لا تقوى على مواجهتي بعدما

ذكّرتها بقرار المحكمة، قالت لي في أسف: القاضي اعتبر أن الأماكن الواردة في الحجة صارت غير موجودة، وأن وجود منتفعين جدد في المنطقة غير هؤلاء الذين كانوا يسكنونها في السابق، يبطل الحجة، وهو ما جعله يصدر قرارا ببطلان الدعوى.

ثم رفعت ملامحها نحوي وهي تقول في استنكار. ولكن هل تصدق حقا أن القاضي كان من الممكن أن يحكم لي بشيء، خاصة أن مقيمة الدعوى، تسمى شفق إبراهيم طنوس؟

قلت محاولا التأكد مما أدركته. هل تقصدين أن القاضي حكم ضدك لأنكِ مسيحية؟

لم تعقب، ابتسمت ابتسامة ساخرة، وقالت: لا يمكنك إثبات شيء، ثم غادرت مكتبة الكلية، وظللت محتارا في الحقيبة التي تركتها لي، كنت أشعر أنني ورطت نفسي في أمر لا شأن لي به، وربما يجلب لي المزيد من المتاعب، اصطحبت الحقيبة إلى شقتي، وفي الصباح، وجدت نفسي بمواجهة زوجها عزيز، كانت علامات التبرم والغضب بادية على وجهه، كأنه لم ينم ليلته، وكانت في عينيه آثار سهر، أو إنهاك شديد، قال لي بمجرد دخوله المكتبة، بصوت خافت: مساء الخير يا دكتور يا رب ما أكونش أزعجتك.

قلت في خفوت وأنا أرمق في قلق الطلبة الجالسين حولنا في المكتبة: بالتأكيد لا يوجد إزعاج.. أهلا بك، ثم غمغمت في نفسي. سأظل أدور في هذه الدائرة المفرغة التي أقحمت نفسي فيها.

قال عزيز وعلامات الحنق تظهر تدريجيا في وجهه: تخيل أنا كنت فين الليلة دي!

شعرت بالضيق، بالتأكيد لا يهمني أن أعرف، لكنني قلت: أين؟

قال: هنا.. جنبك.. في بين السرايات.. قضيت ليلة كاملة في بيت واحدة بنت ناس، أنقذتني ونقلتني لبيتها، بعدما تعبت وأغمي عليَّ في مطعم هي بتشتغل فيه.

لم أفهم لماذا يروي لي هذه القصة، تظاهرت بالأسف، على الرغم أن علامات عدم الفهم كانت بادية على وجهي، فتابع: أنا عارف إنك أكيد مش فاهم أنا ليه باحكي لك ده.. حابب أقول لك إن الصدف بتعمل حاجات غريبة، المنطقة اللي مراتي بتفكر تطرد أهلها من بيوتهم، لأن معاها ورقة لا تساوي شيئا في رأيي، المنطقة دي فيها ناس محترمة وكويسين، وأهلها بالتأكيد بعضهم لا يمكن يستوعب إن فيه واحدة معتوهة عاوزة تطردهم من بيوتهم.

حاولت أن أقاطعه، لكنه لم يمهلني، فقلت بسرعة حينما انتهى من حديثه: لكن الأمر ليس كذلك.. واضح أن زوجتك محتاجة لمن يفهمها، حاول أن تستوعبها، خاطبها بصوت خافت، وليس كما فعلت ليلة أن تناولت عشائي معكم، الصوت العالي مزعج يا سيد عزيز

نهض قائلا في حدة: حابب أقول لك إن الخرايط اللي أنت جبتها لشفق، جننتها زيادة.. لازم تقف معايا في محنتي، أنا حياتي كانت هادية، مافيهاش غير الاستثمارات والشغل، أنا مش فاضي لجنونها.

لفتت حدته أنظار الطلبة ومشرفي المكتبة الجالسين حولنا، تراجعت مستنكرا أن يخاطبني بهذه الطريقة في الكلية، قلت له

محتدا: أرجوك.. يجب أن ننهي هذه المناقشة حالا، ليس لدي وقت للدخول معك في هذه المهاترات، دوري انتهى، ولم أعد ألتقي زوجتك، أرجوك.. أطلب منك الآن أن تغادر لأن لدي جدول محاضرات يجب أن ألتفت إليه.

غادر حانقا، وهو يرمقني بغضب، شعرت بالندم على دخولي في هذه القصة، ما شأني أنا بها؟ كانت نظرات بعض الطلبة لم تزل تحدقني في فضول، فيما كانت نظرات خبيثة ترتسم على وجوه مشرفي المكتبة، أعرف أنهم سوف يحكون كل ما دار لعميد الكلية. زادتني نظراتهم توترا، لملمت أوراقي، ونهضت أنا أيضا، لم تكن هناك محاضرات تنتظرني، مضيت إلى شقتي، وفتحت حقيبة شفق وبدأت في تأمل الأوراق، والمخطوطات التي تحويها، كان ذلك قبل أن يأتيني منها اتصال على هاتفي المحمول، فاجأتني أنها تعرفت على المحامي حمزة أبو نور، وقالت لي إنها لن تستطيع أن تدعوه إلى لقاء عزيز زوجها، ولكنها ترغب في أن يلتقيني، قاطعتها بلهجة حاولت أن تبدو دبلوماسية بعض الشيء، لكن الحدة كانت تميزها مع ذلك، قلت: عزيزتي.. صدقيني أنا لا أريد المزيد من المشاكل.. اليوم التقيت رغما عني زوجك وكان غاضبا، أرجوك أن تبعدوني قليلا عن قضيتكما، وإذا أردت، يمكنك أيضا أن تأتي في أي وقت لاصطحاب أوراقك وحقيبتك.

شعرت أنني كنت قاسيا، لكنني فعلا كنت قد بلغت مبلغا من الضجر لم أتخيل نفسي أتفوه معها بمثل هذه الكلمات، ثم إنها صمتت طويلا، وقالت مرتبكة: أنا آسفة على ما سببته لك من ضيق

وإزعاج.. لكن حتى الآن، لا يمكن أن أجد من يدعمني في هذه القضية سواك، حمزة أبو نور بحاجة للقائك ليقتنع بالقصة، أظن أنها ستكون آخر مرة أزعجك فيها، ولن أعاود الاتصال بك مرة أخرى.

شعرت بالضيق والغضب، هاتان الكلمتان صالحتان لوصف إحساسي لحظة أغلقت السماعة معها، أنا متورط حتى الثمالة في هذا الأمر المضحك، ما شأني أنا وأحلام سيدة مسيحية ترغب في استعادة أملاك جدها المفترض، في قطعة أرض أمام الجامعة؟

٧

وجاء حمزة أبو نور

لم أدرك أنني ألتقي في هذه اللحظة رجلا سيتصدر المشهد بعد عامين، وسيكون مصيره هو ومجموعته دمويا بعد أربعة أعوام، اخترت أن ألتقيهم في شقتي بالدقي، كنت أرغب في الابتعاد عن الجامعة بالمشكلة، كي لا يعلو صوت أحدهما، ويُثار حولي المزيد من التساؤلات.

تفرسني حمزة بنظرة قلقة مرتابة، كان وسيم الملامح طويل القامة، تبدو طلعته أشبه برجل لا شأن له بخوض مثل هذه المغامرات، جلس وهو يتفحص شقتي في فضول وقح، فشعرت بالاستياء، لكنني كتمت استيائي، كان وجود شفق إلى جواره يثير أسئلة عديدة، ملابسها المتحررة إلى حد ما ـ كانت ترتدي بلوزة بدون أكمام ـ تتناقض بوضوح مع بدلته الأنيقة ورابطة عنقه التي

كان يحرص عليها كأنه سيظهر في برنامج تلفزيوني، قلت لها محاولا كتمان استيائي وحنقي من إقحامي في أمرهما: أنا هنا جاركما تماما.. أعني إنتِ وعزيز.

كنت أتخوف في الحقيقة أن يكون زوجها عزيز قد تتبعها، إلى شقتي هنا، لا أعرف إن كان على علم بقرب سكني منهما، لم تعلق شفق على ما قلته، واختارت لنفسها مقعدا وثيرا، قريبا من حمزة، شعرت أنها مضطرة إلى الاحتياج إليه، فوجئت بحمزة يباغتني بقوله. هل أعجبتك سلوكيات المسلمين في بلدنا يا بروفيسور؟

فاجأني السؤال، كنت لم أزل واقفا، أطلقت ضحكة ولم أعلق، فظهرت في عينيه نظرة مستنكرة، وضاقت حدقتاها كأنه يحاول قراءة انطباعاتي، قلت وأنا ألوح بكفي اليمنى، وأجلس في مواجهتهما: لا تعبأ بضحكتي.. فقط لم أتوقع منك هذا السؤال.. كنت أنتظر أن تسألني عن الموضوع الذي فاتحتك فيه شفق.

قال بهدوء وثقة: نحن لم نأت إليك لنزداد ثقة من شيء، أنا أصدق الأخت شفق بالتأكيد.. هذه فرصة جيدة لي للتعرف على بروفيسور أجنبي، متخصص في العمارة الإسلامية.

أومأت برأسي مرحبا بفكرته، وقلت مصححا: فن العمارة الإسلامية.. أنا أيضا سعيد بهذه الفرصة، لكنني لاحظت أنك تتحدث بالعربية الفصحى.. يمكنك أن تتحدث بالدارجة العامية، أحب ذلك خاصة أنني أرغب في إتقانها.

ضاقت حدقتا عينيه مرة أخرى وهو يقول: اللغة العربية لغة

القرآن، أنت محظوظ أنك تعلمتها، هذا أسعدني جدا.. فأنت لست مجرد بروفيسور متخصص في الحضارة الإسلامية، لكن أيضا تتحدث اللغة التي نزل بها كتاب الله لخاتم رسله، وأتمنى أن يتم الله عليك نعمته بالدخول في الإسلام.

حملقت في وجه الرجل، وقلت وأنا أنقل نظراتي إلى وجه شفق، وأعود إليه بنظراتي: كيف تمارس المحاماة؟ هل أنت محامٍ كما أخبرتني شفق.. أم أنك تدعو الناس لتغيير دينهم؟

ابتسم الرجل ابتسامة حانية، كأنني طفله، الذي تلفظ أمامه بدعابة سمجة، لكنه مضطر لاحتمالها، قال: أنا محامٍ يا بروفيسور.. أدافع عن حقوق الناس، ومن حقوقهم عليَّ أن أُرشدهم لطريق الهداية الذي سيصل بهم إلى الحياة الرغدة السعيدة وإلى توحيد الله، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، ومحمد خاتم الرسل، ويوم القيامة سيسأل الناس عنه، وعن الإسلام، وليس عن غيره.

قلت مندفعا، وأنا أنهض من مكاني، كأنني أدعوهم لمغادرة منزلي: لكن حسب ظني، أن هذا الاجتماع له أجندة واحدة مرتبة، وتم الاتفاق عليها مع السيدة شفق، وهي مناقشة أمر الحجة، وليس مناقشة ديانتي ومسألة تغييرها، بصرف النظر عن عدم رغبتي في ذلك.

شعرت شفق بتوتري، فهبت من مكانها واندفعت تجاهي تحاول إعادتي لمقعدي، قائلة في يأس وإحباط: أرجوك يا شاندور، هذه مناقشة فرعية ليس لها علاقة بالحديث الأهم.

فيما هز حمزة رأسه في بسمة مريرة، وكأنه يشفق على نفسه، لمواجهته ضالًّا شديد البأس مثلي، ثم قال. اعذرني يا بروفيسور،

الحديث أخذنا، وأنا شديد الحماس، إنها مسئولية على عاتقي، أن أرى ضالين ولا أهديهم.

ضالين؟ شعرت بالإهانة، وعُدت أحدج شفق بنظرة نارية، كأنني أقول لها: ماذا يدعوني لأسمع هذا الهراء؟ إلا أن حمزة عاجلني، وتابع بصوت بدا أشبه بيائس يحاول استعادة بعض مكاسبه: مشكلتنا مع الحضارة الغربية التي تنتمي إليها يا بروفيسور، أنكم لا تريدون الاعتراف بفضلنا عليكم.. أعني فضل الإسلام.. الذي أنار لكم الطريق، فيما تسبب أطماع بعضنا في أن نتأخر إلى الخلف.

عدت للجلوس على المقعد، فعادت شفق هي الأخرى، وقلت في حسم. حسنا، لدي كلمة واحدة هنا أعتقد أنك تحتاج لسماعها، بالنسبة للحجة التي تثبت قصة شفق، الحجة على ما أظن صحيحة، والعزبة؛ عزبة الوقف، كانت موجودة في بين السرايات، وما يجعلني واثقا، هو الخرائط التي ساعدت شفق في الحصول عليها، في الحقيقة، ليس هناك ما يمكنني أن أضيفه في هذا الأمر

ضحك حمزة: بالطبع أنا أصدق أن العزبة كانت موجودة يوما ما، هل ظننت أنني لا أصدق ذلك يا بروفيسور؟ بل أصدقه تماما، العزبة كانت موجودة، جدي الأكبر، عبد القدوس أبو نور، كان إمام الخديوي إسماعيل، كان يصلي بالرجل، وكان يعرف أن هناك شيئا ما بينه وبين المشرف على مزارعه، بقطر الجاولي، وها هو السر ينكشف بعد وفاة جدي الأكبر بعقود، وبعدما انتهى عصر أسرة محمد علي بانقلاب يوليو الباطش.. حسبي الله ونعم الوكيل.

لفتت انتباهي قصة جده التي ألقاها لي على التو، لكن عبارته

الأخيرة استوقفتني، قلت: انقلاب؟ هل تعتبره انقلابًا، في حين أن المصريين يعتبرونه ثورة؟ تلك التي تخلص فيها الضباط من حكم الملك.

عاود إطلاق ضحكة أخرى عصبية هذه المرة، وهو يقول: معقول! بروفيسور مثلك ينطق عن الهوى؟ هل صدقت خرافات الناس؟ إنهم جهلة.. لا يفقهون شيئا.. عبيد الأحذية الميري، كتبة التاريخ شوهوا الحقائق وطمسوها، من يكتب التاريخ؟ يكتبه مؤرخو السلاطين، والمدلسون.. هل تعرف أن المصريين يقولون هنا مثلًا دارجًا في حياتهم اليومية.. يقولون: «إن فاتك الميري.. اتمرغ في ترابه»؟ بل يقولون مثلًا أسوأ منه: «شريط على كمي ولا فدان عند أمي».. هذه من آثار انقلاب يوليو عام ١٩٥٢ الغاشمة يا بروفيسور.. قطعوا أواصر الناس ببعضهم بعضا، غرزوا فيهم كره الأرض، وكره العرض، وجعلوهم عبيدا في جيوش، واستعمروا أرواحهم بأوامرهم العسكرية، وبالخوف من العصيان والتمرد، حتى صار شريط من الساتان الرخيص، أفضل بكثير من أن يمتلك المرء فدانًا من الأرض الزراعية، والله سبحانه في علاه خلقنا واستعمرنا في أرضه، هذه هي حكمته، وهم هدموها.

بدأ حديثه يستحوذ اهتمامي، قلت محاولا أن أربط النقاط التي يقولها في كلامه: لحظة.. تتحدث عن المصريين وكأنك لست منهم.. أو كأنهم شعب لا تنتمي إليه.. أشعر في حديثك بلهجة تعالٍ.

قال في ثقة وهو يحدجني بنظرة تبدو شاردة: ليس كل الناس واحدًا يا بروفيسور، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٢]، لقد تعلمت، وسافرت في الخارج، وقرأت، بالإضافة إلى أنني أنتمي إلى خيار الناس، الذين نكّل بهم هؤلاء الانقلابيون، انظر حالهم الآن، بالتأكيد أنت درست ما تسميه ثورة، ضمن ما درست عن تاريخ مصر، بالتأكيد أنت تعرف كيف انتهت مصائر هؤلاء الضباط الذين نكلوا بالدولة الوحيدة التي كان من الممكن أن تحقق حلم الخلافة.

صمت، وتبادلت نظرات سريعة مع شفق، كانت ملامحها تنطق بالضجر، لكنها صامتة رغما عنها، قلت: كيف انتهت مصائرهم؟

قال في حسم وثقة: عبد الناصر رأس الطاغية الذي حارب الأخيار وحبسهم ونكّل بهم وأعدمهم، يقال إنه مات مسموما، لكن الأكيد أن هزيمته العسكرية ستظل تصم تاريخه بالعار إلى يوم الدين، محمد نجيب مات معزولا منفيا، وقد انقلبوا عليه هو الآخر، مثلما انقلبوا على الملك وطردوه، بل طرد بعضهم بعضا من البلاد، عدد من الضباط الذين طالبوا بالديمقراطية تم طردهم من الجيش ونفيهم إلى أوربا، عبد الحكيم عامر الذي صار مشيرا بين يوم وليلة، مات منتحرا، أو لعله قتل على يد جمال، والسادات قتله متآمرون من جيشه، وصلاح سالم لم يتبق منه سوى اسمه على شارع طويل، هؤلاء هم ضباط يوليو الذين انقلبوا على دولة محمد علي، هل ترى كيف انتهوا؟ التاريخ ينتقم يا بروفيسور حتى إذا تم تزويره.

قلت وأنا أتراجع في مقعدي وأخلع نظارتي كعادتي عند كل جدال. بالعكس.. التاريخ لا يملك أن ينتقم، التاريخ فقط يتم تدوينه، هو رجل مسن بذاكرة شاب يافع، الشعوب هي من تنتقم

يا سيد حمزة، عموما، سوف أفكر في تحليلك للأمور، لكنني لم أفهم، من هؤلاء الأخيار الذين انتقم منهم عبد الناصر ونكل بهم على حد قولك؟

أطلق ضحكة ساخرة، ثم هتف في عصبية: شعوب.. أي شعوب.. شعب لا يزال يتمرغ في تراب الميري.. هل تظنه يوما ينهض من العفار؟ أنت واهم يا بروفيسور.. خليك في تاريخك.. وخلينا في بلدنا المتربة المغبرة، أما عن سؤالك، فيبدو أنك لا تعرف من هم الإخوان المسلمون؟ لم تدرسهم ضمن ما درست؟ الإخوان الذين بعثوا النهضة في أمة محمد، الإخوان الذين تصدوا لغي عبد الناصر فنكل بهم، وأعدم أبرز رموزهم سيد قطب، ونفى كثيرا منهم إلى الدول العربية التي ساءت علاقته بها، هؤلاء هم من أعنيهم بالأخيار.

قلت: آه بالطبع جماعة الإخوان المسلمين.. بالتأكيد سوف أعيد قراءة هذا الجزء من تاريخكم، في الحقيقة لم أدققه، لكنني درسته أيضا، نحن ملزمون بدراسة كل شيء.

بدأ اللقاء بمناقشة ساخنة، قادتني للتفكير في طردهما، وانتهت بمناقشة مثيرة كادت أن تجعلني أتمسك ببقائهما، لم يتطرق جديا إلى ما ينوي فعله لاسترداد عزبة الوقف، كانت شفق تتململ وهي تستمع إلى مناقشاتنا التاريخية، قاطعتنا بغتة وهي تشير إلى الموضوع الذي التقينا من أجله، اكتفى حمزة بإشارة غامضة إلى أنه سيتدبر الأمر، قال في تراخ، وجفناه مثقلان كأنه يعاني من النعاس: في الحقيقة مشكلتي أننا لا نعرف فعلا ما هي حدود عزبة الوقف،

إذا قارنا خرائطك بالوضع الحالي للمنطقة، ستجد أن الأمر محير وملغز ولكنه يستجدي المغامرة.

ثم صمت مغلقا عينيه كأنه يغفو قليلا، فتبادلت النظرات المتسائلة مع شفق، قبل أن يفتح عينه مرة أخرى قائلا ببسمة ودودة كأنه أب يحنو على طفله المدلل: أنا محامٍ يا بروفيسور، ومهنتي هي استعادة الحقوق.

٨

ثم إنهما تبادلا زيارتي على أيام وشهور متفرقين، كأنهما انفصلا، أو صارا يعيشان في بيتين مختلفين.

تذهب شفق، فيزورني عزيز، شاكيا من تدهور الأحـوال، فاجأني. هل تعرف ماذا تفعل مع ذلك المحامي؟ يشترون المنازل والبيوت في بين السرايات.. عشوائيا.. من يمدهم بالأموال.. حمزة أبو نور.. أم من؟

أقول: تسألني أنا.. كيف لي أن أعرف؟ لماذا لا تسألها، أليست زوجتك؟

يتردد، يصمت، ثم يتكلم بانكسار. مش بنتكلم.. عايشين مع بعض تحت سقف واحد.. زي الغرباء.. أو الأعداء.

ثم تأتي شفق لتقص لي تطورات مغامراتها، تجلس أمامي منهكة، تقول: اشترينا أربعة بيوت، أحدهم يحاول إقناع الناس ألا يبيعوا لنا منازلهم.

قلت في فضول: من يدفع ثمن هذه الصفقات؟

قالت في أسى حاولت أن تداريه: حمزة.. إنه داعية، ولديه مكتب محاماة، بالإضافة لكونه معروفا، يتلقى تبرعات من أحد المساجد بالمنطقة التي يلقي بها الدروس الدينية.. لديه أكثر من مصدر للدخل.

تراجعت وأنا أخلع نظارتي. لكن هذا أمر غير شرعي.. ماذا سيعود عليه بالنفع من وراء شراء هذه البيوت؟ هذا يجعلكِ أيضا خارج هذه القصة.. أليس كذلك؟

قالت: هو يرغب في استثمار المساحات التي سيتم إخلاؤها، سيهدم البيوت، ويعيد للعزبة مجدها، كما وعدني.

وتجاهلتْ سؤالي الثاني، فعاودت طرحه في إصرار وأنتِ.. الأوراق والممتلكات باسمه، أليس كذلك؟ هو من يدفع، وهو من يوقع العقود، أنتِ خارج هذه اللعبة.. أليس كذلك؟

أطرقت متحاشية نظراتي التي سلطتها على ملامحها، كأنها تحاول أن تفكر في مخرج من سؤالي، ثم رفعت ملامحها لي وقالت في تردد: يريد أن يتزوجني.

صمتُّ.. صمتًا طويلًا، كنت أحدق في ملامحها، وكأنني لم أسمع الكلمة، كأنني أرغب التأكد أنها من قالتها، قلت: يريد أن يتزوجك؟ وزوجك؟ على ما أظن أن الطلاق ليس مسموحا هنا في الكنيسة المصرية.. كما أن زوجك متشبث بك، ويعاود زيارتي بين الحين والآخر، ولماذا أقول هذا الكلام، ألا تقيمين معه في نفس

البيت؟ بين نفس الجدران، ألا يحاول أن يسترضيك، ويجعلك تكفين عن المضي في هذا الطريق؟

أطرقت، وظلت صامتة، أزاحت خصلة كستنائية من شعرها، انسدلت في بطء على ملامحها، ثم رفعت ملامحها نحوي قائلة: حياتي مع عزيز وصلت للنهاية.. خواء.. سراب انتصب فجأة في حياتنا، كنت أنكر هذا السراب، لكنني تأكدت منه بعد مجيئنا مصر، هناك أشياء كثيرة لا يمكنني أن أختصرها لك، لكن في المجمل.. حياتي مع عزيز لا يمكن لها أن تستمر لا بد من وجود حل.

قلت وأنا أخلع نظارتي الطبية، متهيئا لهذا الجدال. الذي أعرفه أن الكنيسة هنا لا تسمح لكم بالطلاق.. ماذا ستفعلين؟ هذه معضلة!

استدركت قائلة في سرعة: بل تسمح.. في حالة الزنا وعزيز لم يرتكب هذه الخطيئة بعد.

تذكرت مارينا التي قص لي حكاية استضافتها له في منزلها في بين السرايات، ظللت صامتا متخوفا أن ينفلت لساني بأي كلمة، فتابعت هي قائلة في خفوت. أو أن أغير ديني.

ارتعشت ملامحي، شيء في أجفاني ارتعش، لم أتوقع أن تصل الأمور لهذا الحد، شعرت بإشفاق شديد على عزيز، مؤكد أن شعوره الأول حال علمه بتغيير شفق لدينها، هو الصدمة الشديدة، قلت: أشعر أنني أتورط معك بمعرفتي هذا الحديث.. أرجو أن تبعديني تماما عن هذه المغامرة.. الأمور تتجه إلى منعطف سيئ.

شعرتْ بالضيق نتيجة ما قلت، شعرت بالضيق والغضب منها لأنها أقحمتني في هذا الأمر من البداية، ما شأني بهذا كله، ظللت

أردد داخل نفسي هذه العبارات بسخط، بينما هي لا تزال واقفة أمامي تبدو متألمة، لكنها تدبر مصيبة، تابعت بسخط. سيدة شفق.. أنا عالم أجنبي، أعمل في المشروعات التاريخية محاولا إزالة الرمال من فوق الآثار المعمارية الكبرى لانتزاع الحضارة المدفونة أسفلها، ما شأني بهذا كله؟ ترهاتك يجب أن تبحثيها مع زوجك.. هذه المرة الأخيرة التي أستقبلك فيها.. لن أعود لهذا العبث مرة أخرى.. حقيبة أوراق جدك ستكون أسفل منزلك هذه الليلة.

امتقع وجهها، وقالت في رجاء وتوسل. أرجوك يا شاندور هذه الأوراق ستضيع أو ستحترق إذا عادت للبيت.

زفرت في حنق وقلت في حزم. هذه كلمتي النهائية.. لن أستمر في هذه الحكاية.

غادرت يائسة وهي تتوسل ألا أنفذ وعيدي، لم أرها بعد ذلك، لم أرها مطلقا، توجهت إلى شقتي، وارتميت على فراشي، وظللت أتأمل الحقيبة، الحقيبة التي تحوي أوراقها، أعتقد أنني شعرت بقوة ما تأسرني نحو هذه الحقيبة، كأن بها مغناطيسا، كأنها التصقت بالأرض، وصار من الصعب أن أنقلها من حجرتي، أو أطردها من شقتي، لم أنفذ تهديدي بتسليم الحقيبة لعزيز، تجاهلت الأمر تماما، وليتني ما فعلت، تطورت الأمور بعد ذلك بشكل لم أتوقعه، المهم، مرت عدة أيام، وجاءني عزيز، تسببت رؤيته في إصابتي بالاحتقان والغضب، لم أخلع نظارتي، ولم أمنحه فرصة للحديث، قلت في سرعة وأنا أغادر مكتبة الكلية. معذرة يا سيد عزيز جدولي ممتلئ.. ولا يمكنني استقبالك فعلا.

نظر لي واجما، ثم قال. لكنني أحتاج أن تساعدني في العثور عليها.. لقد اختفت.. أنا مش لاقي شفق.. بقالها أيام غايبة عن البيت.. دورت عليها في كل مكان.. قلبت الدنيا.

لم أتوقف، تركت كلماته تخترق ظهري، ومنها إلى أذني، وتظاهرت أنني لا أعبأ، وقلبي يخفق في شدة.

لا أعرف ماذا فعل الرجل، تركته واقفا مخزيا، شعر بالتأكيد بوضاعة نفسه، ملامحه متبرمة متغضنة، كأنه تجرع سما يلتهم صبا ملامحه كل ساعة، لم أستطع أن أعود إليه، تركته تماما وقد قررت أن أهرب منه، ومن شفق إذا ما عاودت الظهور، لكنها لم تظهر مرة أخرى إلا بعد سنوات، وكنت أظنني قد تخلصت من القصة تماما، وسأنقطع عن التفكير فيها، لكنني كنت واهما.

شهور وبدأ العام الجديد، تقريبا لا أعرف شيئا عن مغامرة شفق وإلى أين بلغت بجنونها، ظللت منكبا على عملي البائس في تدريس الطلبة تاريخهم، محاولا رغما عني تجاهل رغباتهم العارمة في التكاسل، أدفعهم دفعا لعمل أبحاث تاريخية مدققة، وهم يدفعونني دفعا إلى الانصياع لمحاولاتهم في الاستظهار والدراسة بأسلوبهم البدائي، أدعوهم لزيارة الأماكن التي وقع فيها التاريخ، فيلوون شفاههم في إشفاق وتبرم، ويتحججون أن ليس لديهم وقت، حتى جاءني جوجو ليعيد لي سروالي الذي سلبه مني شقيقه نيلو يا للمصادفات العجيبة.. جوجو هو الآخر حكاية كبيرة!

جوجو

(أيوب لويس مسيحة)

١

يسعى جيمي رابيت الذي يلعب دوره إيمنيم إلى أن يكون مغني راب، لكنه في نفس الوقت يناضل لانتشال أمه وأخته من الفقر ومن حي 8 mile، وكل ما يحتاجه هو الفرصة.

كانت هذه هي السطور التي تسبق أغنية إيمنيم «Lose yourself»، أعشق الاستماع لها، وأعشق كل مرة قراءة هذه السطور، كما أعشق كلماتها، التي لم أفهمها إلا بمساعدة الترجمة، تبدأ بدقات رتيبة متصاعدة في صخب، بينما إيمنيم يقول.

لوووك، لو كانت لديك فرصة واحدة، للحصول على كل ما تريده، في لحظة، فهل ستنتهزها؟

كفاه متعرقتان، ركبتاه ضعيفتان

ذراعاه ثقيلتان.

وعلى سترته قيء من السباغيتي التي صنعتها له أمه

إنه متوتر، ومع ذلك يظهر بمظهر الهادئ والمستعد

لإلقاء القنابل

ولكنه يستمر في نسيان ما كتبه

فأصوات الجمهور تتعالى

يحاول فتح فمه ولكن الكلمات لا تخرج

إنه يختنق

كلهم يسخرون منه الآن

الوقت ينفد منه فمعظم الأندية تسمح فقط بستين ثانية صمتًا أثناء أداء الراب أو تغادر

يعود إلى الواقع

حيث يعاني من الأرنب الذي يعايره به الجميع

إنه غاضب لكنه لن يستسلم بسهولة..

فهو يعلم أنه يسند ظهره للجبال

ومفلس وعاجز تماما عن الحركة

أو العودة إلى بيته المتنقل أو المقطورة البائسة التي يعيش فيها

أو يعود إلى الاستوديو الذي يتدرب فيه على الراب

من الأفضل لي أن أنسى نفسي أمام الموسيقى

لحظة حصولي عليها من الأفضل ألا أضيعها

لتحقيق أحلامك عليك أن تنسى نفسك تماما وتنسى كل شيء

ولا تفوت أي فرصة في حياتك من أجلها
فالفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر
الروح تهرب من فوهة فمي
العالم بانتظار أن أستولي عليه
وأن أصبح نجما
لم لا أصبح ملكا؟
بينما نسير باتجاه نظام عالمي جديد
فالحياة العادية مملة
أما النجومية فهي الخلود بعد الموت
تم مضغ سيرتي والبصق عليّ وشتمي على المسرح
ولكنني واصلت تلحين المزيد والمزيد وإنتاج الأغاني

أعشقها، أعشق هذه الأغنية ومعانيها، وأشاهد الكليب للمرة المليون على اليوتيوب، إيمنيم يلهمني، إيمنيم مثلي الأعلى، أنا جوجو أيوب، المفارقة في اسمي، أنه محاولة لكسر نغمة اسمي القبطي أيوب لويس مسيحة، اسم قبطي صميم، الكل كان ضده، في المدرسة التي لم أكملها، في الجيش الذي التحقت به فقط من أجل استخراج باسبور على حلم الهجان، الذي لم يكتمل، فكرة تغيير الاسم بدأها شقيقي نيلو بلطجي مثلث ماسبيرو، اسمه الحقيقي نادر، لكنه قرر فجأة أن يطلق على نفسه نيلو، استجاب له الجميع وبدءوا يدعونه بنيلو منذ كان يعمل تبّاعا على ميكروباص بولاق

أبو العلا، إلى أن ارتكب أول واقعة سطو بالإكراه وبدأ يحترف السرقة، وتم حبسه في الأحداث، وعلى الرغم من أنهم دونوا اسمه الحقيقي في سجلاتهم نادر لويس مسيحة، إلا أن مشرفي الأحداث ظلوا يدعونه نيلو، فأصبح اسمه إلى الأبد.

أما أنا، فاضطررت إلى تغيير اسمي القبطي لإضفاء نغمة سهلة عليه في الحفلات والأفراح. في الحقيقة، اسمي القبطي وقف عائقا كبيرا، كان من الصعب أن يستأجرني أحدهم لإحياء فرحه، لمجرد أنني قبطي، كانوا يشعرون أنني سأشعر بحساسية تجاه أغنية أسماء الله الحسنى، التي كان هشام عباس يغنيها في هذه الأثناء، هم يحبون دائما أن يفتتحوا الليلة بها، خاصة إذا كانت المناسبة افتتاح محل كوافير، أو جزارة، أو بوتيك.

تعلمت المهنة من خلال الكمبيوتر، والميكسر لم أكن أغني، أنا أمهر دي جي في وسط البلد، الدنيا تغيرت، ضاقت الدنيا على البعض، فتوقفوا عن استئجار حكيم وعبد الباسط وشعبان، لإحياء ليالي أفراحهم، مخترع الإم بي ثري أهدى للفقراء أغلى هدية، حمّل التراكات من على النت، اضرب السي ديهاية التمام، هات الميكسر مع الدي جي، شكرا يا عم عمرو دياب، خليك مع الناس اللي يقدروا عليك في حفلاتك بـبورتو السخنة كفاية علينا صوتك، انتهى إلى الأبد عصر الفرقة الموسيقية، والناس الراقية التي ترقص فالس.

ـ هو أنت آخرتك إيه يا أيوب؟ هتفضل طول عمرك شغال دي جي في وسط البلد؟

هذه دميانة، بنت عم يوسف شفيق، على الرغم من أن عمرها

خمس عشرة سنة، لكن لسانها كان أطول من شعرها الذهبي، لكنني أعشق كلاهما؛ لسانها وهو ينطق اسمي أيوب، لم تنادني جوجو، أعشق عينيها الواسعتين، وشفتيها الرقيقتين، أعشق رؤيتها لأن قلبي يخفق ساعتها بشدة، وأصدق أنها تحبني، لكنها تناورني، تواري قلقها واهتمامها بي خلف عبارات التلقيح والتريقة، تتهكم عليَّ في الرايحة والجاية. يقول دلدول شريك شقيقي في مغامرات النصب والاحتيال: البت دي بتحبك يا جوجو، اللي يحبك يلاغيك، يتقل عليك، ويرجع يشق عليك، يخيش فيك، ويطمن أن التخييشة ما عورتش غير الإكصدام.

بس ليه يا دلدول؟ أقول في حيرة، فيرد. خايفة عليك من السكرانين والمحششين، ومهاويس الأفراح، عقلها أكبر من سنها، نعم عندك حق يا دلدول، أحبها من وأنا في العاشرة، كانت بضفاير ذهبية، فجأة كبرت واحلوت، وشفتاها امتلأتا، وعيناها اتسعتا، وصدرها كبر، واشتد عودها، كل ما أشوفها نازلة تجيب حاجة، أنزل وراها، أهتف فيها: رايحة فين يا بت؟ تمد في خطوتها وتستكبر ترد، أضحك من قلبي، تمشي مثل فرس قديس، خطوات منتظمة، إيقاع متزن، لا تهز جسدها، تفرض على أردافها وعجيزتها التزاما صارما، لا شيء يزيد عن الحد، تعرف أني أعشقها وأخاف عليها، فلا ترتدي ما يثير، رغم نور جمالها الذي يشبه قنديلًا في دير، حكاوي خطف البنات القبطيات تملأ البلد، فما بالكم ببنت عسل وشعرها ذهبي وشبه العدرا وفقرها أسكنها في المثلث؟!

تقف على باب بيت أبيها عم يوسف بينما أرفع الميكسر على

العربة السوزوكي التي تدخل منطقة مثلث ماسبيرو بالعافية، وأضع الدي چي - رأسمالي - في حرص بجوار السماعات، كانت ترتدي جلابية بيت نصف كم، تكشف ذراعها البضة، ولحم رقبتها الطويلة، وقرطها ذهب صيني يتدلى من أذنيها، ترمقني بينما أرفع السماعات على السوزوكي التي يملكها دلدول، فلوسها حرام أنا عارف، لكن ما باليد حيلة، أنا بادفع له أجرة التوصيلة. تراقبني دميانة مثل كل مرة أخرج فيها لفرح أو افتتاح، ثم تسألني. هتفضل شغال يا واد الشغلانة المعفنة دي؟ والله ما أنت فالح يا أيوب!

أصرخ فيها بينما أحدق بنظرات نارية جارنا الشيخ زهران، صاحب التوك توك، الذي كان يرمق ذراعَي دميانة، قلب بعصبية: خشّي يا بت غوري جوه، إنتِ مال أهلك أشتغل شغلانة معفنة ولا نضيفة؟ خشّي غوري.

يأتي دلدول في هذه اللحظة، ويرمقني بنظرة مستنكرة صراخي في البنت، ثم يعطف بنظره إلى زهران الذي يقف فوق جدار عشته متظاهرا باحتساء الشاي مثل صقر، فيفهم كل شيء، ويرنو نحو دميانة ويقول في صرامة وهو يحك شحوم لغده بأظافره: خشّي جوه البيت يا بنت المقدس.. خشي.

ثم يدفع بجسده الضخم داخل العربة في مقعد السائق الضيق، الذي يتسع بأعجوبة له، إذ تظل عجلة القيادة تضغط على كرشه الضخمة، أقفز إلى جواره، فيدير محرك السيارة التي تزمجر بينما شكمانها يطلق نفثات سوداء، يقول وهو يتأمل أسنانه السوداء في مرآة الصالون: إسفخس على دي جيرة.. شايف نظرات ابن الوسخة

على دراعات البت إزاي.. إلهي تندب في عينه مش رصاصة.. أسياخ حديد عز اللي هروا أبدانا بيها في الإعلانات.

ضحكنا، على الرغم أنني كنت أشعر بالضيق من أنه لاحظ نظرات زهران التي تلتهم دميانة، لا أفهمه، شيخ بلحية ولم يره أحدهم يركعها، يسمّي نفسه إمام ولم يصلِّ خلفه أحد، وحافظ للقرآن ولم يلمحه أحدهم يقرأ آية في عزاء، جاء ليسكن في مثلث ماسبيرو بكل هذه الصفات منذ سنوات، ظهر فجأة بدون موعد، سكن في بيت خاله، الذي قدمه لنا على أنه ابن شقيقته الذي انهار منزله في الدويقة، فاضطر للنزوح إلى المثلث، بعدما كان يتخذ من منزله مصدر رزق، لتحفيظ عيال الحتة في حجرة من حجرات البيت، لكنه لم يمتهن هذه المهنة في المثلث، ظهر ومعه توك توك يلف ويدور به طوال اليوم من أبو العلا، حتى عبد المنعم رياض، مشوار قصير، لكنه يطوق المنطقة، كأنه مخبر، الخلاصة، أن نظراته لم تنقطع عن مراقبة دميانة منذ فترة.

ألمح دلدول لخال زهران أن هذه النظرات تحمل معاني ربما لا تكون طيبة، ودعاه إلى أن يرتدع، لكنه لم يرتدع، بل ظل يراقب خطواتها، ويحصي أنفاسها، ويحاول في استماتة أن يفهم العلاقة بيني وبينها، كلما خطت دميانة خارج المثلث، يخطو هو بالقرب منها، ضبطني مرة أراقبه، وضبطته مرة يراقبنا، وهكذا، صرنا نحن الثلاثة، نشكل مثلثا آخر، داخل المثلث.

بتر دلدول حبل أفكاري، بينما يقول بعدما تحرر بسيارته من شوارع المثلث الضيقة، وانطلق في ميدان عبد المنعم رياض، نحو مطلع كوبري أكتوبر على فين العزم؟ افتتاح؟ ولا ليلة؟

ضحكت ساخرا: ولا ده ولا ده.. مفيش حد بيفتح محل في البلد دي خلاص، كله يا إما الحكومة بتبيعه للأجانب، يا إما بيهدوه ويبنوا مكانه أبراج.

لم يضحك، ضاقت ملامحه، كلا، لم يكن يركز في الطريق، كانت عيناه تضيقان بغتة، كلما هم بفتح موضوع خطير، قال فجأة بينما السوزوكي تزمجر أسفل منه، وهو يضغط على دواسة الوقود ليعتلي بها مطلع كوبري أكتوبر إمبارح أخوك كان هيودي روحه في داهية تاني.

ثم انطلق يحكي حكاية نيلو وخوفه حينما نقل له أحد صبيانه أن هناك أجنبيّا في المنطقة، ثم قصة احتجازه له في حفرته، التي يخزن فيها عدة شغله ـ ملابس النصب وفرد الخرطوش ـ إلى واقعة اشتراطه الإفراج عن الأجنبي بعد تجريده من سرواله الداخلي.

امتقعت ملامحي، ثم قلت في ضيق. بقولك إيه يا عم دلدول.. ماليش دعوة بمغامراتكم دي.. ربنا يستر عليك.. أما أخويا والمسيح.. أنا نفسي ينقبض عليه.

نظر لي دلدول نظرة مستنكرة، ثم عاد للنظر في الطريق، وهو يقول. أنت يا عم جوجو عينك على الأضواء والليالي الملاح والفرفشة، ومش همك أخوك.. فيها إيه لو مديت له إيديك؟

صرخت فيه قائلا: أمد له إيدي إيه يا دلدول.. أنت ناسي؟ ناسي آخر فرح أخدته معايا فيه يقف لي جنب السماعات وشنطة السيديهات يحرسها لي.. ساب عدة الشغل، وراح قعد يضرب بيرة،

ولما الواد جه يحاسبه، فتح عليه مطواة، وصرفت نقطة الفرح على تسديد بيرته ومزاجه.. أنا من سكة وهو من سكة يا دلدول.. بقولك إيه.. هو أنا عشان بخليك توصلني.. هتستكتر عليَّ الشغلانة.. أنا باشقى يا دلدول.. وأنتو الاتنين نصابين.

سكت دلدول لنهاية الطريق إلى المطرية.

٢

قبل محطة مترو أنفاق المطرية الواقعة في شارع ترعة الجبل، والمواجهة لشارع طويل اسمه الخارجة، دخلنا في شارع طويل آخر يوازيه اسمه البلسم يؤدي إلى منطقة شجرة مريم التي زارتها العذراء، وارتاحت تحت ظلها، والتي أعلنت إليزابيث ملكة إنجلترا عن رغبتها في زيارتها، فاضطرت البلد إلى سفلتة الشارع، وتذكرت الشجرة بغتة، بعدما اكتشفت أنها مزار ديني قبطي مهم، وقررت الاهتمام به، بإحاطته بسور فخم، أما الكنيسة التي في الشارع، فبدأت أعمال صيانتها، وترميمها قبل ذلك الحدث المهم، ملكة إنجلترا ستمر من هنا، تسارعت الجهود لصيانة الكنيسة، وإعادة طلاء واجهاتها، وتعلية أبراجها، نشط المسلمون في المنطقة، بدءوا هم أيضا في بناء المسجد المواجه للكنيسة، وتعلية مئذنته، لكن الملكة لم تجئ، فنسي الجميع المزار القبطي المهم، وتعكر ماء البئر المواجهة للشجرة، لكن استمرت أعمال تعلية أبراج الكنيسة، مقابل أعمال تعلية مئذنة المسجد.

حينما دخل دلدول بالسوزوكي في الشارع، استقبلنا إيهاب تكنو الذي يملك استوديو دي چي في المنطقة، كان واقفا وسط المجاري الطافحة في الشارع، على اليمين واليسار منه تراصت صفوف الطوب الأحمر، المعدة لتعلية برجَي الكنيسة والمسجد، بنطلونه مشمر، بينما يخطو في المجاري، وحينما رآنا مقبلين، تعرفنا، ومنعنا من المضي في الشارع، ثم هتف محتدا: دول بيعلوا في برج كنيسة، ودول بيعلوا في مدنة جامع ماتقولش يا أخويا بيسفلتوا شوارع للسماء!

ثم أطلق شخرة بينما يجذب بلغما من بلعومه، ثم بصقه في حنق في المجاري مواصلا: إحنا عايشين عيشة الأميبا.

قلت قلقا وأنا لم أزل أجلس بجوار دلدول. إيه الحكاية.. مش هنلعب مزيكا ولا إيه؟

قال حانقا: ما أنت شايف المجاري.. عموما.. خلّي دلدول قاعد جنب السماعات.. واطلع لي المكتب.. عقبال ما أغسل رجلي.. كنت واقفًا مستني عربية الشفط.. قالوا لي بعتوها ناحية قصر البرنس يوسف كمال.. آدي يا عم منطقة البرنسات.. المطرية بجلالة قدرها.. اللي كانت في يوم من الأيام قصور وسرايات.. طافحة فيها المجاري.. والشيوخ والقسسة عمالين يطلعوا للسما على طوب أحمر

ثم التفت لي قائلا: عجبك كده يا كوفتس.. فين الصفافير؟

كانت عبارته المعهودة التي يختم بها كل فقرة من حديثه: فين

الصفافير؟ ابتسمت ابتسامة مكسرة مستسلمة وقلت: ما تبطلوا يا عم تعلوا على الكنيسة.. مش بيقولوا في التلفزيون المآذن حاضنة الكنايس؟!

لوح بأصبعه الوسطى! فضحكت، وأنا أنزل من السيارة، ثم تذكرت شيئا، فعدت وربت على كتف دلدول وقبلت رأسه، قائلا: حقك عليَّ يا عمنا.. والإنجيل.. والمسيح الحي.. أنت زي أخويا الكبير

ابتسم لي دلدول ابتسامة صفراء، فصعدت إلى استوديو إيهاب، كان عبارة عن أوضة، في شقته الواقعة بالطابق الثاني، من البيت الصغير، المطل على سوق الخضار القريب من منطقة الخارجة، قلت وأنا أجلس في الاستوديو، وأرمق أجهزته بشغف. يا ما نفسي أنام وأصحا في الأوضة دي يا هوبة.. يااااااه حلم حياتي.

ضحك متهكما: أنت عبيط يا جوجو؟ أنت هتبات وهتصحا على ريش نعام.. بس اصبر

ثم دس سي دي في الدي چي، وفتح الميكسر، وقال. ركز مع التراك ده.

انبعث صوت موسيقى منتظم، ضربات طبول متتابعة، على نفس السياق، لم أفهم شيئا، قلت: إيه ده؟ شغل شعبان عبد الرحيم؟

قال في سخط. شعبان إيه ياض! طب اسمع دي.

وأدار تراكا آخر، كانت أصوات طبلة مستمرة في الدق بنفس الإيقاع، جاء صوت إيهاب متماشيا مع الإيقاع وهو يقول. دي

حتة إيقاع.. بيسموها «لوب».. نقدر نعمل كام «لوب» زي ده.. أو تراك.. لأصوات آلات موسيقية مختلفة، قبل ما نمسك استيدچ، مع كلمات أغنية مختلفة، متركبة من أغاني قديمة وجديدة، يبقى عندنا اختراعنا الجديد.. المهرجان.. فين الصفافير؟

كنت أعرف معنى النظرة التي حدقته بها، حتى هو ظهر على وجهه خيبة أمل وهو يتأمل معنى نظراتي، قال في حدة: فاهم حاجة؟

هززت رأسي نفيا ولم أتكلم، فواصل دون يأس. لما ييجي الواد منعم من المحل اللي واقف فيه، هتفهم، هو معاه كلمات أغنية جديدة، هتفهم قصدي لما نركّب الأغنية على التراك.

لم يكد يتم كلمته، حتى انبعث صوت متهدج من مكروفون الجامع.. هتف الصوت بحماس. الله أكبر كبيرا.. جورج أسلم وأصبح حاج عبد الحليم.. الله أكبر كبيرا.. جورج أسلم وأصبح حاج عبد الحليم.

باغتتنا النداءات، نظر لي إيهاب محرجا، ونحى وجهه أرضا، كأنني تلقيت هزيمة ما، أو كأنه صفعني على وجهي، لا أعرف لماذا شعر بالحرج، استمرت النداءات، بينما شاب نحيف الجسد، ملامحه سمراء عيناه غائرتان، وحاجباه ثقيلان، يدخل من باب شقة إيهاب، ما إن اقترب منا حتى رمقنا بنظرة ساخرة، ثم هتف ضاحكا: جورج أسلم، وطلع من المشيخة على مكة، خطف رجله وحج وبقى اسمه الحاج عبد الحليم.

ثم أطلق ضحكة مجلجلة، وهو يسقط أرضا، وينقلب على ظهره، ويرفع ساقيه إلى أعلى، رمقني إيهاب بنفس النظرة الساخرة،

قبل أن ينفجر في الضحك، والنداءات في الخارج تتواصل، جورج أسلم، وأصبح الحاج عبد الحليم، فلم أتمالك نفسي، وضحكت أنا أيضا.

ثم انتصب منعم ورفع ذراعيه في حركة تمثيلية، وخطا برشاقة خطوة إلى الأمام، محاولا أن يقف على مشط قدميه مثل راقصي الباليه، فهتف إيهاب قائلا: فين كلمات الأغنية؟

تسمّر منعم فجأة، كأنه تذكر شيئا، ثم جلس، وتظاهر بالتفكير، قبل أن يغمغم: المجاري طافحة في الشارع وجورج راح حج في مكة.

صمت ونظر إلينا، كأنه يفحص أثر العبارة على ملامحنا، انتبه إيهاب إلى ما قال، واعتدل في مكانه، ثم جذب مكروفونًا وتظاهر أنه يغني فيه وهو يدندن الجملة التي قالها منعم. المجاري طافحة في الشارع وجورج راح حج في مكة.. ـ ثم كررها ـ وجورج راح حج في مكة.

ثم هتف وقد لمعت عيناه، وخبط على كتف منعم بحماس، قائلا: حلوة الداخلة دي.. دوس.

التقط منعم ورقة وقلمًا، كانت أظافره سوداء وأصابعه طويلة نحيفة، كتب العبارة التي لاقت استحسان إيهاب ثم نظر إلينا، وغمغم عبارة أخرى:

إيه إيه إيه أنت بتقول إيه يا هوبة.. المجاري طافحة في الشارع

وجورج راح حج في مكة.. هو في إيه.. إيه

إحنا هنا بنقولك.. في المكروفون وفي المدنا

جورج راح غير دينه وراح حج في مكاااااا

إحنا هنا بنقولك.. إحنا هنا بنقولك

جورج راح غير دينه قال يعني علمنا عليهم

هو فيه إيه يا اخوانا؟

خسرنا إيه يعني بدينه؟

وكسبنا إيه من ورا تبديله؟

كسبنا إيه من وراااااااااا تبديلهههههه؟

هقول لربنا على عمايلكو

هقوله وادعي عليكو   هادعي عليكوووووو

وقبل أن يسترسل أظلمت الدنيا.. النور قطع.

٣

يااااااه.. بالوعة مجاري وطفحت في وشنا.

نكتشف أن المجاري الطافحة.. ليست في الشوارع فقط.. النفوس غارقة في المجاري، الخلق يبدءون يومهم لا ريب بكوبين من تحت الشطاف، الكل يرفضنا، يرفضون أن نغني أغنيتنا التي كتبها منعم في لحظة تجلٍّ، بعدما سمعنا التكبيرات في الجامع المواجه للكنيسة، أطلقنا عليها اسمًا مؤقتًا: والله لنقول لربنا على

عمايلكو، فاتهمونا بالزندقة، والإسفاف، والانحطاط، حاولنا تأجير استيدچ في مكان شهير بالزمالك، رفض صاحبه السماح لنا بالغناء داخل مسرحه، بحجة أن الأغنية لا تحض على الفضيلة، وتهاجم الدين، أي دين الذي نهاجمه؟ هل نستطيع نحن أن نهاجم الدين، وليس معنا سوى دي چي وميكسر وسماعات وهم معهم القنوات والبرامج، والاستديوهات، والجرائد وشركات الإنتاج، والمسارح؟ هل نستطيع أن نهاجم الدين وليس معنا كل ما معهم؟ وهم! من نصّبهم أصلا حماة للدين؟ يشربون بيرة ويضربون جوانات الحشيش ويهتاجون من أجل الدين، باغتني إيهاب بينما نقف في منتصف الكوبري بين الزمالك وبولاق، بعد إخفاقنا في الغناء: بقول لك إيه.. ولا يهمك يا جوجو.. والله هنغني.. فين الصفافير؟ وهنمسك مسارح أحسن من المسرح ده.

مجانا بدأنا نغني في أفراح في المطرية، كان عضو مجلس الشعب آنذاك ميمي العمدة يحضر هذه الأفراح باستماتة، لا يفوِّت فرحا، إلا ويحرص على مجاملة أصحابه، وشبابه، يقولون على الرجل إنه تاجر مخدرات، قالها منعم وهو يضبط السويت شيرت الأبيض، ويرمق نفسه في المرآة، أخذ يمرر أصابعه في خصلات شعره، كأنه يختبر الچل الرخيص الذي يستعمله، كنا قد أجرينا بروفات عديدة على الأغنية، مسرح حقيقي هنا سنمسكه بعد قليل، مسرح فرح جمهوره معازيم مهاويس ينتظرون إقامة الأفراح بفارغ الصبر للتفريج عن أنفسهم، وطرد الكبت الذي يكبلهم، ويطفو فوق أعينهم، عمال وموظفون، وبائعون سريحة ينتظرون مناسبة الفرح، لأنهم يعرفون أن ميمي العمدة سيجاملهم، ويعزمهم جميعا على

ما لذ وطاب، الرجل سيترشح في الانتخابات البرلمانية المقبلة، هو نائب الدائرة منذ ٢٠٠٥، ويعتمد على سيطرة عائلته في منطقة العِزَب وسوق الخميس، نظر لي إيهاب وقال مشجعا: يلّا يا أيوب.. وما تنساش.. أنت خلاص من هنا ورايح اسمك جوجو.. كده ولا يقولوا علينا عضمة زرقا؟

صعدنا على خشبة الفرح، وجلس إيهاب أمام الميكسر ودس في الدي چي سي دي عليها ٤ تراكات صاخبة، ولعب أولها فاشتعل الفرح، بدأ المعازيم يصفقون، بعدما استشعروا ألفة الطبلة، كان إيقاعها قريبًا من إيقاع موسيقى سيرة الحب لأم كلثوم، شعر الجميع أننا سنغني الأغنية بريمكس جديد، بدءوا يصفقون، ففاجأنا الجميع، هتف منعم فجأة وهو ينفخ في المكروفون، ويشير تجاهنا: هوباااااااااااااا... جوجووووووووووووو...

ثم هتف وهو يتمايل في آلية: دي چي إيهاب تكنو وجوجو ومنعم.

ثم ازدادت دقات اللوب الذي وضعه إيهاب، ومنعم يواصل. إيه إيه إيه.. المجاري طافحة في الشارع.. أنت بتقول إيه يا هوبااااا؟ المجاري طافحة في الشارع.. أنت بتقول إيه يا جوجوووو؟ إيه إيه إيه.. المجاري طافحة في الشارع.. وجورج راح حج في مكاااااااااااااااااا.

انقبضت الراقصات فجأة في الفرح، وتقلص الهتاف والتصفيق، فأصر منعم على مواصلة الكوبليه للآخر، وصرخ وعروق رقبته تتشنج:

إحنا هنا بنقوللللللك.. في المكروفون وفي المدنا.

جورج غيَّر دينه وراح حج في مكة.

جورج راح غيَّر دينه والمجاري طافحة في الشاااااارع قال يعني إيه إيه...

إحنا كده علمنا عليهم.. هو فيه إيه يا اخوانا؟ إحنا كده علمنا عليهم.

هنا حان دوري للتدخل، فضغطت قبضتي على المكروفون، الذي شعرت به يكاد يكون مثلجا، على الرغم من حرارة الجو المرتفعة، كنا في الصيف، لكن المايك كان تقريبا قطعة من ثلج، صدمة الجمهور أرعبت المايك، فماذا ستفعل فيّ؟ تقدمت من منعم في حركة راقصة سريعة وأنا أهتف مرتجلا: يا أغلى من أيامي.. يا أغلى من أحلامي.. خدني لحنانك خدني.. خدني لدينك خدني.. خدني خدني خدني خدني بعيد بعيد.

أنا وأنت بعيد بعيد.. أبعد بعيد أبعد بعيد...

عمرنا كله عشناه مع بعضينا.. خسرنا إيه يعني بدينه؟

وكسبنا إيه من ورا تبديله؟

كسبنا إيه من ورااااااا تبديلهههههه؟

تبديله.. خسرنا إيه يعني بدينه؟

فعاد منعم للأغنية، مرددا بينما يرقص في صخب: وكسبنا إيه من ورا تبديله؟ هقول لربنا على عمايلكو.

والله هاقوله وأدعي عليكو.. هادعي عليكووووووو.

بقالنا عمر مع بعضينا.. جورج وعمر وحنا وجوجووووووووو- بينما يشير نحوي بأصابعه.

قبل أن يضع إيهاب سي دي أخرى في الدي چي ليضيف تراكًا آخر صاخبًا، بالتزامن مع التراك الذي ترتج السماعات بموسيقاه الصاخبة، كان جمهور الفرح قد انقسم علينا بالفعل، الشباب المتحمس، استجاب وصفق تصفيقا حارًّا، وسط استنكار حار من العواجيز، وكبار السن، لم يكن ميمي العمدة نفسه قد حضر بعد، إلا أن مساعديه، هتفوا فينا بغضب: إيه الأغنية دي يا كلب منك له؟ انزلوا من على المسرح، أو غنوا أغاني عدلة.

تراجعت إلى الخلف منقبضا، فيما انتصب إيهاب من خلف الميكسر واقفا، ولوح في وجه مطلق السباب، وسحب شخرة طويلة، قائلا: إيه يا عم؟ إحنا مش تحت أمرك.. إحنا جايين ببلاش.. ومعناش مانيو باللي نفسك فيه يا عم.

فواصل الرجل بغضب وهو يتقدم نحو المسرح، والشرر يتطاير من إحدى عينيه: خلاص انزلوا يا ولاد الكلب.. غوروا في داهية.

أغلق إيهاب الدي چي وسحب الفيش وصاح في منعم: يلَّا ياض من هنا.. ليلة مالهاش عازة.. فين الصفافير؟

كانت فكرة الانسحاب من الفرح أفضل قرار، الحفاظ على الأجهزة وحمايتها من الاشتباك في مشاجرة غير مأمونة العواقب، قد نتعرض فيها لسرقة رأسمالنا، بينما نحمل السماعات للخارج،

فوجئنا بنداءات متتابعة تلاحقنا من كواليس مسرح الفرح، كان كل منا يحمل شيئا لعربة دلدول المتوقفة في ميدان المطرية، اقترب منا صاحب النداءات، كان رجلًا في الخمسين من عمره، أشيب الفودين، يرتدي جاكيت جلد، على الرغم من حرارة الجو المعتدلة، اقترب منا الرجل، وقال في خفوت: معلش يا شباب.. مزيكتكم مولعة، ومش أي حد ممكن يفهمها، يلّا البركة في سواقين التكاتك.

ثم أخرج من جيبه ورقة وقلمًا، وكتب بسرعة أرقاما ثم اسمه وعنوانه، وقال بهدوء رزين: ولا يحوّق معاكو.. بس عاوزين نقعد ونشوف إيه اللي ينفع نعمله عشان محدش يتعامل معاكو بكبر نفس.. اسمي أحمد خريشة.. كلموني.. ولو ما كلمتونيش.. هقلب المطرية والمسلة وشارع المطراوي عليكم لحد ما أوصلكم.

تبادلنا النظرات، ولم نجب بشيء، فواصل هو: بصوا.. الاستوديو بتاعي مش هنا.. في بين السرايات.. بصوا.. هو مش استوديو بالظبط.. ما أنتو عارفين.. المهرجانات بقت موضة.. والكل بيسجل في أوضة.. ومحدش هيقدر يقف في وش الطوفان.

ثم أطلق ضحكة مجلجلة وهو يستدير ويغادرنا ليترك بدلا منه الحيرة والتعجب، كانت هذه أول مرة نلتقي فيها بأحمد خريشة.

٤

على مدخل استوديو أحمد خريشة في بين السرايات، استوقفنا رسم على الحائط، فم كبير، لوجه يحاول أن يصرخ، يعلوه عينان

ممتقعتان، ملامح متصلبة، وتظهر بأعماق الفم المظلمة لوزتان، أسنان قليلة توزعت على حوافه، انحنينا ونحن نمرق من مدخل البيت القديم، الواقع في حارة قديمة من حارات بين السرايات، صعدنا طابقًا، كان هناك صوت ينبعث هابطا إلى السلم، يقول صاحبه في رتابة، كأنه في فصل دراسي: هتفتح بروجيكت في برنامج فروتي لوبس، أول حاجة هتظبط التيمبو على ١٥٠، بعد كده هتختار صوت الأورج، هندخل البيانو رول، ونوزع اللحن.

ابتسم إيهاب تكنو ساخرا، وهمس لنا، بينما ندق على الباب: الظاهر فيه حد بياخد درس على عمل مهرجان.. فين الصفافير؟

فتح الباب شاب أسمر، شعره مفرود بالچلات، نحيف، ويرتدي سويت شيرت مقلمًا، أبيض اللون، نظر إلينا مستفهما، فقال إيهاب: ده استوديو عم خريشة؟

تناهت إلينا أصوات شجار، وأحدهم يسب ويلعن، ثم صعد الصوت خلفنا من حيث أتينا، والسباب مستمر، كان صوت خريشة، وقف في مدخل العمارة وصرخ: وحياة دين أبوكم ما هسيبكم تتهنوا على النخاسة دي.. يا نخاسين.

توترت ملامحنا، تبادلنا النظرات القلقة، تجاوزنا الشاب الذي فتح لنا الباب، وهبط درجتين وهتف في منور السلم: خير يا عم خريشة!

تجاهله الرجل، وصعد وهو يتجشأ، ثم سحب بلغما من بلعومه، وبصق، ظهر على مطلع السلم، حدق فينا حينما رآنا، وصاح قائلا وهو يحاول التحكم في ملامح وجهه المنفعلة: لا مؤاخذة يا فنانين.. شوية جيران عِرَر.

ثم هتف في الولد الذي فتح لنا الباب، وكان قد صار بمحاذاته: اجرِ هات للفنانين حاجة يشربوها ـ ثم وهو يلتفت إلينا ـ تشربوا إيه يا فنانين؟

صمتنا، ثم قال إيهاب في تردد وقد ظهر على وجهه القلق من انفعال خريشة: إحنا شايفينك مشغول.. نيجي لك في وقت تاني؟

اعترض طريق إيهاب بكفه التي وضعها في طريق النزول وهو يقول في سرعة: ليه الإيفكت ده؟ دا احنا لسه بنقول يا هادي.

دخلنا حجرته، المكان كان يبدو كاستوديو مهجور، حجرة واحدة فقط يجلس في أحد أركانها شاب أمام جهاز الكمبيوتر، يواصل تعليم أحدهم مبادئ الفروتي لوبس، ضحك خريشة ضحكة واسعة متناقضة لغضبته السابقة، وقال وهو يشير نحو الشاب: حمدي ميكس.. ولد نابغة.. لولاي كان زمانه واقف في كشك المحمول اللي على الناصية بيخلي الناس تتكلم الدقيقة بخمسة وسبعين قرش.. الأكيد الأكيد إني لعبت في حياته إيفكت مهم.. لأن شبكات التليفونات بتسقط، لكن المزيكا.. أبدا.. هتفضل عايشة.

ابتسمنا في حرج، أخذ إيهاب زمام المناقشة كما كنا اتفقنا، قال لخريشة في خفوت: إحنا حبينا نشكرك على وقفتك يومها وطلبك إننا نتقابل.. بس بصراحة.. إحنا مستقبلنا في المطرية.. مش في الجيزة.

وضع خريشة كفه على ركبته، ليقاطعه، وقال: أنت عارف إيه

سبب إيفكت النرفزة بتاعي تحت.. فيه بلوة اتحدفت على المنطقة عاوزة تشتري بيوتها.. بتدور على عزبة غريبة كده مش موجودة غير في خيالها.. الناس طمعانة في بين السرايات.. هنا الحضارة.. ومش بعيد يكون فيه توابيت مدفونة تحت مننا، صدقني أنت هنا... ثم بتر عبارته قائلا: اسمك إيه؟

أجابه: إيهاب، فواصل خريشة: أنت هنا في أهم حتة في مصر، تخيل معايا لو الكل ساب المنطقة دي وهج، هتلاقي مكعبات الهرم بيعملوا بيها الشوربة.. اسمع مني يا أخ إيهاب.. أنتو موهوبين.. بس خلينا نحط إيدنا في إيد بعض، أنا إمكانياتي جبارة، وياما اتخرج من تحت إيدي فنانين، هنطور الغنوة اللي أنتو عملتوها...

قاطعه إيهاب قائلا: إحنا عاوزين نغني مهرجانات.. مش عاوزين نعبي شرايط كاسيت.. ولا عاوزين منتجين ولا فلوس.

تراجع خريشة كأنه سيبصق في وجهه، مستنكرا المقاطعة، وقال في انفعال. ما تنرفزنيش بقى.. ما أنا بقول لك الكلام أهو.

ثم تمالك نفسه، واعتدل في جلسته، ووضع ساقا على ساق، وهو يبعدهما بعيدا عن وجهَينا، ميممًا نظرته تجاه حمدي، وقال في خفوت: يا شباب فكروا في بلدكم شوية.. آه المطرية منطقة قديمة وشعبية.. بس هنا أصل كل حاجة.. أنا طول عمري شغال مزيكة هنا، وطموحي إني أفضل شغال هنا.. زي ما تقولوا كده هنا أصل البلد، هنا البلد على قديمها، صدقوني يمكن كلامي يعمل معاكو إيفكت غريب شوية، بس فكروا حبتين.. أنا طلعت في المنطقة هنا من قبل

ما يعملوا الكباري دي كلها، كانت المنطقة ظاهرة وواضحة، تقدر من أول بين السرايات تشوف قبة الجامعة وبرج الساعة، الدنيا كانت نضيفة، والشوارع ممسوحة ومافيهاش عفرة، فاكرين الأتوبيسات الحمراء الطويلة؟ ولا هتوعوا عليها، طب فاكرين الجناين الكتيرة اللي كانت في ميدان العتبة؟ أيوه حوالين تمثال إبراهيم باشا، طب تعرفوا أن الجناين دي كانت في طول البلد وعرضها؟ هنا في الجيزة كانت الريحة المعطرة لجنينة الأورمان تجيب آخر بين السرايات، دلوقتي ريحة الزبالة اللي المحافظ مش بيشيلها هي اللي مغطية على نفسنا، والبلطجة والقرف هي اللي جايبه لآخر بين السرايات، البلد كانت جميلة فعلا، إيه اللي حصل؟ ولّا أنا اللي مش عارف أعيش فيها!

تبادلنا النظرات القلقة، لا نعرف ما علاقة ما يقوله بسبب زيارتنا، التفت إلينا وأعاد ساقيه إلى وضعهما السابق وهو يقول. مش هضغط عليكم.. أنتو شباب شاطر، وفنانين، أنا أعرف ناس ممكن تحضّركم احتفالات بره مصر، بس لازم نشتغل مع بعض، أنا هديكم، مش هاخد منكم، وهتشوفوا.

٥

دمي محبوس.. كنت أبكي دما بدلا من الدموع.. هذا ما أدركته في هذه اللحظة؛ معنى أن تبكي دما، فوجئت بنزيف من أنفي، يجري مع دمعي الساخن، اختفت دميانة ولا نستطيع أن نعثر لها على أثر، أربعة أيام حتى الآن ولا أحد يعرف طريقها، اختفت دون أن تترك خبرا، أو تتصل أو تقول أي شيء، صوتها لم يزل يتردد

في أذني بالجملة الأخيرة التي سمعتها منها قبل اختفائها: هتفضل شغال يا واد الشغلانة المعفنة دي؟ والله ما أنت فالح يا أيوب.

كنت قد عدت من الفرح الذي شاركنا فيه المطرب المشهور الاستيدچ، الفرح الذي كسرنا فيه الدنيا على حق ربنا، وظهرت فيه موهبتنا بمهرجانات حقيقية وجديدة، قبلها ظللت منشغلا تماما في الإعداد للمهرجانات في استوديو خريشة في بين السرايات، ظللنا نعمل طيلة الأيام السابقة على الفرح، حبسنا روحنا قبلها ولم نكن نغادر الاستوديو إلا إلى سندوتش صبري المواجه للجامعة لنأكل أو لنشرب أو لنتسامر على القهوة، ثم نعود إلى الاستوديو، كانت أول مرة أغيب فيها عن المثلث بهذا الشكل، أيام طويلة متتالية، عدت لأجد الحزن مرسومًا على كل باب صاج وفي كل عشة، كل هذا الحزن ظلم، ظلم، قلت في نفسي: يا رب.. يا رب هي ناقصة.. مش كفاية الخرران اللي احنا عايشينه.. ناقصين صديد.

لا أحد يعرف أين ذهبت دميانة، اختفت، ولم يكلف دلدول روحه أن يأتي بين السرايات ليخبرني بالمصيبة، عم يوسف شفيق راح مديرية أمن القاهرة، عاملوه وحش، لا أعرف ماذا قالوا له، الرجل كأنه صار أبكم بغتة، لا يتكلم، ولا يحكي، دميانة كانت رايحة فين يا عم يوسف؟ لا يتحدث الرجل، منكفئ على حزنه وعلى سر اختفاء ابنته، كما لو كان سلحفاة دفنت روحها داخل قوقعتها الصلبة، أو أحدهم هدده بشيء، ربت على كتفه في هدوء وصبر وأنا أحاول أن أتحكم في أعصابي: يا عم يوسف.. يا عم يوسف ساعدني عشان نعرف ندور عليها.. قول لي إيه اللي حصل.

يهز الرجل رأسه وهو ينظر إلى الأرض، شعره أشعث، وملابسه رثة، عيناه حمراوان من سهر الليالي، كان يحدق في الأرض، كأنه يبحث عن شيء لا أستطيع أن أراه بالعين المجردة، يحدق في الأرض ويدفع فردتَي شبشبه الزنوبة، دميانة كانت تعيش مع أبيها يوسف شفيق وحدهما في العشة، منذ سنوات فقد الرجل زوجته أم دميانة، توفيت الست في سرطان غريب اجتث روحها فجأة بساطور، ظلت الفتاة الصغيرة تعيش مع أبيها، هو يذهب إلى ورشة الحدادة في الصباح، وهي تنتظره في العشة، كانت قد توقفت منذ زمن عن الذهاب إلى المدرسة، فقط يذهبان أحيانا إلى القداس في أيام الأعياد.

عدت إلى دلدول خائب الرجاء، كان يقشر برتقالة بأصابعه القذرة، بينما يسند ظهره إلى عربته السوزوكي، قال حينما رمقني مقبلا عليه من ناحية بيت يوسف: برضه ما نطقش؟ الراجل ده فيه سر غريب في حكاية بنته.. يا إما هو عارف مين اللي خطفها.. يا إما حد هدده أو عكمه قرشين عشان يبيع البت.

نظرت له ساخطا، كانت الدموع في عيني لا تنفد، فتوترت ملامحه بعدما شعر أن كلمته جارحة، وقال: حقك عليَّ يا جوجو.. بس صدقني أنا مش عارف إيه المصيبة دي.. أنا راخر لعلمك كنت بره المنطقة يومها، منه لله المتعوس أخوك.. كان فيه نصباية كده ناحية حلوان.. وجرني معاه.

ضربت كفا بكف، وأنا أسند ظهري بجواره إلى العربة قائلا: البت لازم تتخطف.. المثلث مافيهوش راجل واحد يحميها.. بس مين اللي عملها؟

مسحت بأصابعي عيني كأنني أحاول استيقاف الدموع، لكن الدموع هزمتني، وبدأت أبكي، ربت دلدول على كتفي حانيا، وهو يقول: استهدى بالله، استهدى بالله.. وحد الله طيب.. هنلاقيها إن شاء الله.. والله هنلاقيها.

ثم هتف فجأة بصوت ينم عن أنه تذكر شيئًا: زهران.. زهران ماحدش شافه من ساعتها.

توقفت عن البكاء بغتة، ورفعت له نظري، ثم مسحت دموعي بكم قميصي لأنني لم أستطع أن أحدق فيه جيدا، ثم حانت مني نظرة نحو عشة زهران، كان بابها مغلقًا، وحصيرة الصلاة التي يحرص على فردها أمامها ليجلس عليها هو وخاله ساعة العصاري مكورة، وملقاة بإهمال فوق سطح العشة الذي تغطيه بانرات انتخابات بلاستيكية مهترئة، حدقت في دلدول، كان واقفا يفكر في بلاهة، علامات الحيرة ترتسم على وجهه، قلت في غضب: جرى إيه يا دلدول، هي دي عاوزة تفكير هو اللي عملها.. أراهن إن ماكانش هوّ!

ثم هرعت نحو باب العشة، وأنا أتذكر نظراته التي كان يحدق بها دميانة، نظرات جائعة تنم عن غول يستعد للانقضاض على فريسته، هرع دلدول خلفي ليستوقفني، وهو يقول في سرعة: اصبر بس ماحدش متأكد، أنا ما شوفتوش بقالي يومين، لإننا كنا مشغولين مع عم يوسف.

جذبني من ذراعي، فصرخت في وجهه بغضب عارم. سيبني يا زفت.

ثم خبطت بقبضتي على باب العشة الذي كان عبارة عن لوح كبير

من الصاج الصدئ، خبطته أربع مرات، فآلمتني قبضتي، على الرغم من كونه صاجًا إلا أن زهران كان يبطنه بشيء ما، يتلقى الضربات؛ جريد نخيل ربما، لا أعرف، ركلت لوح الصاج بقدمي، تناهت إلينا أصوات، كان خال زهران داخل العشة، صرخ غاضبا من دقاتي على بابه: خير يا ولاد الهرمة.. فيه إيه؟ حد يخبط الباب كده؟

قلت صارخا: افتح يا حاج ودلنا على مكان ابن اختك.

فتح الرجل الباب، أزاح لوح الصاج بمعنى أصح إلى الداخل، وأطلّ من العشة التي كان جدارها الأمامي من الخشب الذي يستخدم في نصب عشش القرافات، صرخ الرجل في وجهي بملامح ظهر عليها علامات النوم: فيه إيه يا أيوب؟ أنت فاكر بابي ده إيه.. باب النصر؟ ما تخبط بالراحة.

قلت وأنا أكاد أغرز أصابعي في عينه: ولا راحة ولا تعب.. من ساعة ما دميانة اختفت وماحدش شاف ابن اختك.. يا إما تقب وتغطس وتطلع لي بيه دلوقتي.. يا إما مش هتشوف نوم الليلة دي.

نظر لي الرجل نظرة حانقة وعلامات الغضب العارمة من إيقاظي له بهذا الشكل لم تزل تتسع وتأخذ مساحات أكثر في خلايا وجهه، نظر لي نظرة من يقيس قوة خصمه، أدرك أنه في الستين من عمره، وأنني في العشرينيات، وأن الضربة الأولى التي سيوجهها لي، ستجعله صاحب السبق فعلا، لكن ستعقبها ضربات غير رحيمة ربما تهشم عظامه، قال على غير توقعي بصوت خافت، وعينين مرتعشتين: ظنك إن زهران ابن اختي خطف دميانة.. يا ابني من ساعة

النصيبة دي والمثلث كله مقلوب على حيله، وكلنا قلبنا المنطقة وعِششها مع عم يوسف شفيق.. جرى إيه يا بني؟ ما تتمسى.

قلت ورذاذ لعابي يتطاير مع كلماتي الغاضبة: ابن اختك الوحيد الغريب عنا، ومن ساعة ما شرف المنطقة ما بطلش بحلقة في البت، والمسيح الحي لأكون مولع فيك وفيه.. لو ما طلعتش دلوقتي معايا ودلتني على مكانه.

٦

ومر عام على اختفاء دميانة..

كتبت تاريخ اختفائها على النتيجة، ٢٠ أغسطس ٢٠١٠، وبينما تتناقص أوراقها، ويدخل العام الجديد، كنت أضيف علامات مائلة لإحصاء الأيام التي مرت على اختفائها، ظلت العلامات تتراص أفقيا أول الأمر، علامات أخطها بيد مرتعشة، وأصابع متعرقة، وقلب مكسور، ما معنى أن يكون قلبي مكسورًا؟ القلب ليس قطعة خشب لينكسر، الذي وضع هذا الوصف في أغاني المهرجانات دلّس على الكثيرين، الذين أخذوا يرددونه دون أي تفكير، قلب مكسور، أي معنى لهاتين الكلمتين؟

أشهر كاملة توقفت فيها عن الذهاب إلى استوديو خريشة أو إلى المطرية لألتقي إيهاب، أشهر كاملة بدلت فيها نعلين لحذائي الوحيد الذي سمعت أنينه بينما أسحله معي في طرق البحث عن دميانة. تآكل أول نعل في مشاوير إلى أقسام الشرطة، والمستشفيات،

ومديرية أمن القاهرة والجيزة، أبلغت الشرطة أولا عن اتهامي لزهران، الذي لم نعثر له على أثر، ولم يدلنا خاله على مكانه، رفض الضباط في مديرية الأمن اتهامي للشيخ المختفي، برروا رفضهم لعدم وجود صلة قرابة بيني وبين المختفية، قلت لهم إن أباها طاعن في السن، ولا يقوى على الحركة والمشاوير، رد أحدهم في حزم أثار غيظي: أبوها لو مش همه يبلغ عن اختفاء ابنته، إحنا مش هنروح ندور له عليها.

كظمت غيظي، وأدركت أن سبيل البحث من خلال الأمن ليس منه فائدة، تداينت لأطبع صور دميانة، ألصقتها على كل أعمدة الإنارة في أنحاء البلد، في القاهرة والجيزة، كتبت أسفل صورتها: «مختفية منذ شهر، بنت مسيحية اسمها دميانة وفي الخامسة عشرة من عمرها، وتسكن في منطقة مثلث ماسبيرو، على من يجدها يتصل بي» ثم وضعت اسم عم يوسف ورقم تليفوني، لم يكن بحوزته هاتف محمول، شهر كامل لم يعبأ أحدهم بالورقة الملتصقة على أعمدة الإنارة، لا أعرف إن كان أحدهم كلف خاطره وقرأ الورقة أم لا، ثم إنني تداينت مرة أخرى، وطبعت المزيد من الصور، ووزعتها مع نفس الكلمات على الناس في الأتوبيسات، وألصقتها على أبواب مترو الأنفاق، تآكل النعل الثاني في هذه المشاوير، بعضهم يغيّر الأحذية كلما تآكلت نعولها، وأنا أغير النعول كلما اهترأت، ويرزقنا الرب بهذه الفاجعة! ترددت مرارا على مواقف السيرفيس في بولاق أبو العلا وبولاق الدكرور وناهيا وأحمد حلمي والمطرية والسيدة زينب والسيدة عيشة والجيزة والمقطم والمريوطية والدويقة ومنشية ناصر وحلوان والمرج والخصوص،

لم أعد داريا أين أذهب؟ ألصقت صورها على عربات السائقين الذين كان بعضهم يعرفني، والبعض الآخر يتعاطف معي حينما يعرف أنني أقطن في المثلث، كان اليأس قد دب فعلا في قلبي، إلى أن تلقيت هاتفًا من أحدهم، صاحب مبادرة ما عن خطف الفتيات المسيحيات، طلب مني صورتها، وبياناتها، عبر الإيميل، قلت: يا أستاذ أنا ماعنديش إيميل.. لسه هعمل إيميل.. شوف حضرتك فين وأنا أجيب لك المطلوب.

إيميل.. في الوقت الذي أستدين لأطبع آلاف الأوراق التي تحوي صورة دميانة يطلب مني أحدهم أن أرسل له صورتها وبياناتها عبر الإيميل، أرسل لي إيميله عبر رسالة على المحمول، ذهبت إلى إيهاب وطلبت منه أن يرسل بيانات دميانة للرجل، سألني إيهاب وهو يكتب البيانات في صفحة الإيميل: بس أنت تعرف منين إن ده حد فعلا عاوز يساعد؟ مش جايز يكون ملعوب واحد عاوز ياخد بيانات كاملة عن البنت ويحطها في حاجة.. شهادة ولا ورقة رسمية؟ ما تدراش يا صاحبي.

قالها بأريحية وهو ينقل بيانات بطاقة يوسف شفيق الشخصية إلى الشاشة التي يحملق فيها، فخطفت البطاقة من كفه، قائلا في جزع: كنسل الميل يا ابن الذكية.

ألا يكفيني يأس الفقر والغُلب.. لماذا يضاف إليه يأس الضياع والظلم والخوف والهلع من أي مساعدة محتملة؟ كنت أصحو في الصباح، وأحدق في صورة دميانة المعلقة أمامي على المرآة القديمة المشروخة، ألملم الأوراق المكدسة على فراشي وعلى الأرض

بالمئات، كلها تحوي صورها، واسمها وتاريخ تغيبها، ورقم هاتفي واسم أبيها يوسف شفيق، صورها في كل مكان في العشة، حانت مني نظرة إلى كف يدي التي تمسك الأوراق، وأصابعي التي تبحث عن دوبارة لربطها قبل التحرك في رحلة جديدة إلى الشوارع، والأرصفة ومواقف السيرفيس، شعرت أن كف يدي ستنطق وتصرخ فيّ أن أكف، وأتوقف عن البحث، الحمد لله أن كف يدي لن تنطق، وليس بوسعها أن تنطق، لن أسمع لأي عضو من أعضائي أن يجهر بيأسي، خرجت إلى الشوارع مرة أخرى، مرة أخرى كلمة ليست حقيقية، حانت مني نظرة قبل الخروج إلى الميكسر والدي چي.. إيه معنى غنوة وإحنا ضايعين.. وإحنا مش ضامنين نوصل.. أو نرجع.. وإحنا مش عارفين.. إن في آخرتها فيه وحْش هيبلعنا؟

غمغمت بهذه العبارات وأنا أشعر أنني أؤلفها لتكون مقاطع مهرجان جديد، ثم نفضت الفكرة من رأسي، لن أغني، لن أغني ودميانة ضائعة.

خرجت إلى الشوارع الساخنة، وأنا أستنكر روحي، كيف لم أبكِ على دميانة؟ لأنني لا أفهم البكاء سوى على الراحلين، الذين ماتوا فعلا، لأنني لا أتصور فكرة أنها ماتت أو صارت إلى العدم، لم أبكِ لأنني لم أصدق، كنت أصرف تفكيري عن أي أذى قد تكون قد تعرضت له خلال هذه الشهور، هي بالتأكيد تعرضت لأذى كثير.. ليه يا رب.. ليه يا رب.. دي عندها خمستاشر سنة بس.. ليه يا رب؟

كنت أقولها دون كلمات، دون صوت، أقول كلمات أخبئ صوتها

عن أعضائي، تظل محبوسة داخل فمي وعقلي، أو ربما خارجهما لكنها مع ذلك لا تريد أن تهبط إلى حنجرتي، أخشى من أعضائي أن ترد ردا لا يعجبني، أن تطالبني بالاستسلام والتوقف عن إنهاكها في سبيل دميانة، أمسك نفسي عن البكاء، وأستمر في صبر أوزع الأوراق على الخلق في الأتوبيسات والميكروباصات، كأنني أوزع عليهم بضاعة فاسدة، أو ورق مناديل، كانوا يتجاهلونها، أحدهم وكان عرقانًا، أمسك الورقة ودون أن يقرأها، مسح بها جبهته، كان عرقه غزيرا، كأنه سار في قلب الشمس، أشفقت عليه، ولم أشعر بخيبة أمل من فعلته، مددت إليه بورقة أخرى تحوي صورة دميانة، قد إيه إنتِ نبيلة يا دميانة.. صورتك الناس بتمسح فيها عرقها.. وإنتِ غايبة ومسامحة.. يا رب ترجعي يا دميانة.

الجو حار، والهواء ساخن، ومع ذلك أشعر أن أنفاسي باردة، تدخل إلى أنفي، فتتثلج ذرات الأكسجين التي تمر إلى رئتَي، أشعر بألم فيهما، كأنهما يستنكران أن أتنفس مثل هذه الذرات الباردة، كدت أقول لرئتَي إنه ليس بمقدوري، ليس بمقدوري أن أعالج الهواء الذي يدخل إليكما، إنه الهواء المفروض علينا، الهواء الذي يجبروننا على تنفسه، سواء كان مفعما بذرات حانية، أو ذرات مسمومة، شائكة مثل الصبار، أو ناعمة مثل السحاب، من يستطيع أن يعالج الذرات المسمومة في أنفاسنا، لا يهمني أن أتنفس هواء نقيا، لم يعد هناك شيء نقي في حياتنا، نحيا في جحر، فكيف نبحث عن النقاء؟ بأي عين نتكلم بهذه الكلمات؟ حتى ما معناها؟ عبث.. كلمات اخترعها أحدهم لتزييف حقيقتنا المسممة، حقيقتنا التي نتجرعها كل يوم مع ماء الصرف الصحي.

صورني أحدهم واقفا حول المصلين وسط دائرة كبيرة من الأقباط داخل الميدان، يحرسون المسلمين، يحمونهم، ريثما ينهون صلاتهم، تخوفا من هجمات محتملة على دائرة الاعتصام.

كانت الدنيا بردًا، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث غدا، ربما تهطل أمطار، ربما يمر الشتاء، ويأتي الصيف، ربما تستدير الشمس في السماء في دورتها من الشرق للغرب وتمرق عبر الشوارع الجانبية بعيدا عن الميدان، لكن أن يذهب الرجل، أو يستسلم، هذا هو المستحيل بعينه، هكذا كنا نظن.

هكذا كنا نظن حينما بدأت المظاهرات، من المستحيل أن يسقط الرجل، ثم إننا لم نتظاهر أصلا ضده، بدأ كل شيء في عيد الشرطة، لا أعرف تنظيمات شبابية أو غيرها، فقط وجدت المظاهرة تمر في عبد المنعم رياض، مثل سحابة عابرة، تستهدف التوجه إلى ميدان التحرير، حيث كانت عربات الأمن المركزي تنتظر الجميع، كنت أخرج من الحارة الضيقة المؤدية إلى عشتنا داخل المثلث، وفي حوذتي صور دميانة، مرقت إلى جوار نيلو، شقيقي البلطجي، كان واقفا مرتديا بنطلونًا ممزقًا، وفانلة بيضاء مصفرة من العرق، لم يبدلها منذ أيام، تجاهلته، وأنا أتجه مباشرة إلى المظاهرة، كان واقفا يدخن سيجارة حشيش باستمتاع، وسرواله الداخلي الذي انتزعه من الأجنبي يعلن عن نفسه أسفل البنطلون، الذي تدلى قليلا عن إليتيه، تجاهلته وأنا أغادر إلى الميدان، استوقفني بصوته الأجش: على

فين؟ على فين يا ضنى أمك.. ارجع يا فنان.. جماهيرك عاوزاك، ما تضحيش بروحك دي خناقة بين طرفين إحنا ملناش دخل فيها.

ثم أطلق ضحكة ساخرة، لكنها هزتني، وصدمتني كلماته، خناقة بين طرفين ملناش دخل فيها، والله وبقيت حكيما يا صايع يا ضائع، التفت إليه، قائلا في تهكم وأنا أقبض بشدة وحرص على صور دميانة كأني أستمد منها الشجاعة: ما بقاش إلا أنت اللي هتقول لي أمشي في مظاهرة ولّا ما امشيش.. شد أستك اللباس على وسطك، ولما تيجي تنام اخلعه وحطه على وشك يمكن تغور من وشنا على بلد صاحبه.

ثم أعطيته ظهري، وأنا أتقدم تجاه ميدان التحرير.. كنت خائفا، طبعا كنت خائفا، لم أمش في مظاهرات من قبل، مثلي مثل كثيرين نزلوا للشوارع لأول مرة في حياتهم في هذا اليوم، ما الذي أنزلنا؟ هل هي عربات الأمن المركزي التي تبدو عن بعد مثل الحيتان التي تسعى للانتحار الجماعي بالتهامنا؟ لم تكن المرة الأولى التي نراها بهذا الوضوح وهذا الجوع. ما الذي أنزلنا؟ لا أعرف، لكن الأسفلت كان ملمسه غريبا، ناعما، كأنه لوح كبير من الإسفنج، يتفاعل معنا، يلهمنا الإيقاع المناسب للركض هربا من المجنزرات المتوحشة، ومع ذلك تتدحرج المظاهرات تجاه الميدان، البرودة والنمل الأسود ينتظران الجموع، الكل يتقدم، هرعت أجري، والتحمت بالصفوف التي تخطو خطوة واثقة غير متهيبة هادئة ورصينة في نفس الوقت، الأفواه تهتف: عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية. الكل يهتف في حماس، كأنهم لا يرون الحيتان، من بعيد كانت عربات

الأمن المركزي تبدو كحيتان سوداء جائعة أحفاد تلك التي التهمت يونان النبي، فهل ستلفظنا مثلما فعلت؟ يقف حولها النمل، أخذت أوزع صور دميانة على الكل، المتظاهرون يتناولون مني الورقة التي تحوي صورة دميانة ويواصلون الهتاف، لم يمسح أحدهم عرقه بصورتها، الجو كان باردا، والحماس يتغلغل داخل الجميع.. عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية، تغلغل الحماس داخل عظامي، فوجئت أنني أخذت أقذف الأوراق التي تحوي صور دميانة وأنا أهتف في حماس: عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية، كنت أوحي للجميع أنني أوزع منشورات المظاهرة؛ مطالبها، مبادئها، أخذ المتظاهرون ينحنون على الأرض، ويلتقطون الأوراق، فيجدون فيها صورة فتاة مسيحية مختفية، يدعوهم أبوها للبحث عنها، فيهتف الذين تجري عيونهم على صورة دميانة في حماس. عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية، كأن الهتاف صار هو الشفرة، الكلمة السحرية، التي ربما تعيد دميانة.

لكن الحيتان لا تفهم معاني الكلمات الثلاث، كيف أحكي عن روعة ذلك؟ كيف أحكي عن روعة استنشاق روائح ملهبة للأعين، كأنها أطنان من البصل انفجرت فجأة في الهواء، قنابل غاز، أم قنابل بصل عطن فسد في مخازن أحدهم؟ لا أستطيع أن أميز ماذا حدث في عروقي، وأنا أجري وسط الجموع التي كانت تركض، بينما الحيتان تطاردنا في وحشية، انكسرت هيبتها، فزادت شراستها، فقدت مهابتها وإطلالتها الشرسة البعيدة، كانت تقف فيما مضى في تراخ حول أي مظاهرة، يحاصر نملها الأسود الأعداد القليلة، اليوم تفوقنا على النمل والحيتان، تكتل حولها الناس، صارت الحيتان

تحت الحصار، تطلق من رأسها قنابل الغاز، ورشاشات مياه ساخنة تصفعنا، تبللنا، فلا نبالي، ونستمر في الهتاف، نستمر، ولا نعبأ، ثم كيف أتتهم القدرة على ارتكاب هذه الفظائع فيما بعد؟ لم أتخيل أن بمقدورهم أن يقتلوا بعضنا هكذا ببساطة في الشوارع؟ ظللت في الميدان الذي ابتل بالمياه الملوثة حتى العاشرة من مساء الثلاثاء ٢٥ يناير، ثم هرعنا جميعا، بعدما انضمت حيتان جديدة للأسطول المنهك منذ الصباح، جاءت الحيتان من شارع القصر العيني، كانت هناك أسر كاملة قد تدفقت على الميدان، وافترشت الحدائق كأنهم في نزهة، لم أصدق أن البعض قد يخاطر بعياله، ويأتي بزوجته، وينتظر الحيتان القادمة، لتبتلعنا جميعا، كل الموجودين في الميدان صاروا يونان النبي، لم يفكر أحدنا في إلقاء بعضنا من السفينة لكي ننجو من غضب الرب، هرعنا بعدما أطلقوا المزيد من القنابل التي ألهبت عيوننا، هرعنا وغادرنا الميدان، اندسست في سهولة إلى الحارة التي تصل إلى المثلث، هذه بعض فوائد العيش في العشوائيات كان نيلو واقفا مع مجموعة من أصدقائه بلطجية أبو العلا والمثلث، تجاهلتهم، فاستوقفني بضحكة مجلجلة وهو يطلق شخرة في فاصل توسط الضحكة: عملت إيه يا ضنى أمك، مشّيتو العادلي؟

تجاهلته، لم أشعر بقلق، إلا حينما قطعوا الاتصالات، وقتها فقط شعرت أنني أبتعد عن فرصة تلقي تليفون من أحدهم ليطمئنني على دميانة، أو يحمل لي خبرا سعيدا، لم يبال الناس حينما تحولت هواتفهم إلى أحجار في أيديهم، نزلوا إلى الشوارع، في إصرار لاستكمال ما بُدئ.

٨

وآخرتها يعني إيه يا حبيبي؟ يا عم لا حسني مبارك هيمشي.. ولا أنتو هتحكموا البلد.. البلد دي هتفضل كده.. ومش هتتغير.. واللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش.. يبقى خلينا في مهرجاناتنا ولّا إيه.. فين الصفافير؟

إنه إيهاب تكنو، كان يجلس معي في العشة، بجوار عم يوسف شفيق الذي استحال خيال مآتة تقريبا، جاء ليزورني، فدله دلدول على مكاني هنا، كنت أحرص كل يوم على تناول الإفطار مع عم يوسف، أذهب في الصباح لعربة الفول على أطراف الحارة، وأجلب له الطعمية والبصل والطماطم، ورغيفين، انتهينا من تناولها مع قدوم إيهاب، الذي سلم على عم يوسف فلم يجبه الرجل، فأشار نحوي مستفهما، فلوحت له محاولا تغيير الموضوع، وأنا أقول: إزي عم خريشة؟

قال: عاوز يشوفك على فكرة.. إحنا حالنا واقف جامد.. فين الصفافير؟

قلت بلهجة مريرة وأنا أضع راحتي اليمنى على جبهتي: صفافير إيه بس؟! أنتو عاوزين تعملوا مهرجانات والبلد مقلوبة!

نظر إيهاب إلى عم يوسف وكاد يقول شيئا، ثم تراجع كأنه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة عن سباب ساخط، ثم هتف في حدة: ملناش فيه يا عم.. ما إحنا طول عمرنا عايشين والبلد مقلوبة..

والخلق ماشيين على رءوسهم، صحيح بنشتغل في بنزينات، أو بنمسح أرضيات مطاعم البهوات، لكن عايشين.. بناكل فول وبصل وبنسميهم لحمة.. لكن عايشين.. وماشيين.. بنروح نصلي وندعي على الظلمة.. وربنا ما بيستجبش وأهي ماشية.. ما هو لو ربنا بيكره حسني مبارك ماكانش عمله ريس يا جوجو.. إحنا الظلمة مش هو.. طب تفتكر لو حسني مبارك باطل.. كان ربنا هيسيبه؟ هتعرف أكتر من ربنا يا مقدس! فين الصفافير؟

نظرت إلى عم يوسف، كان ذاهلا تماما عنا، قلت لإيهاب: عاوزني أعمل إيه دلوقتي.. مهرجانات؟ مش هغني ودميانة غايبة.. ترجع دميانة أرجع أغني.

نهض في حدة، وهو يصرخ في وجهي: إن شا الله ما عنك رجعت يا جوجو.. سلام يا كوفتس.

لكنني رجعت أغني، لم تعد دميانة، لكن حدث شيء مبهج جدا يوم ١١ فبراير، كانت الفرحة عارمة، في ذلك اليوم توجهت إلى الميدان الصاخب ليلا، وأنا أحمل تحت ذراعي أوراق صور دميانة، دخلت الميدان بصعوبة، دبابات ومدرعات رقدنا على جنازيرها ليالي طويلة في الميدان لنمنع تقدمها، صارت الآن توجه مدافعها في الجهة العكسية، نحو ميدان عبد المنعم رياض، كأنها تحمي التحرير، دخلت ومعي الأوراق، الاحتفالات في كل مكان، وجوه صاخبة منتشية، الرجل رحل، الرجل رحل، لافتة كبيرة نصف قطرها يلتف حول جانب من جوانب صينية التحرير، تحوي كلمات: خبر عاااااااااجل الشعب أسقط النظام، ألعاب نارية

تضيء سماء الميدان، احتفالات صاخبة، الكل يهتف في حماس: «ارفع راسك فوووق أنت مصري»، الأجساد متلاصقة، ولا أحد يشعر بأي خطر، أو تخوف من وقوع مشاحنات، صفوف طويلة من الشباب والشابات يحملون عَلمًا كبيرا لمصر، يكاد يصل طوله إلى عشرة أمتار، ويسيرون وسط الزحام، الكل يفسح الطريق للعلم، الاحتفالات ممتدة، في كل شريان من الشرايين المؤدية إلى صينية الميدان، إلى قلبه، لا موطئ لقدم، بصعوبة أتحرك، وأنا أقبض على صور دميانة في حماس، وتخوف أن تسقط الأوراق من يدي، سأجدها، أشعر بأمل كبير، قلبي يخفق، رفعت الأوراق وقربتها إلى وجهي، قبّلت صورتها، هتفت وصوتي يشهق وسط الزحام: يا رب.. يا رب.. رجع لي دميانة.. يا رب رجعها يا رب.

رفعت رأسي إلى السماء، الكل يمسك أقلام الليزر ويعبث بالأضواء الخضراء، مبارك رحل، قالها نائبه ذو الملامح الجامدة الصلبة المخيفة، بصوته الذي كان صارما فيما سبق، قالها بصوت منكسر، وهامته محنية، سمعت الخطاب في السادسة في تلفزيون القهوة، لم يتوقعها أحد، لم نتوقع أن يخرج الرجل ليقول مثل هذه الكلمات، كان اليوم جمعة، والإحباط يخيم على الجميع، بعد خطاب غريب ألقاه الرجل أمس الخميس؛ ١٠ فبراير، الميدان كان ممتلئا، والناس جاءت لتحتفل، ففاجأ الجميع بنقل صلاحياته لنائبه، البعض غادر الميدان وهو يقول في إصرار: بكره العصر.. نروح نهد عليه القصر، وآخرون انطلقوا في مسيرات ضخمة إلى مصر الجديدة، شعرت بالرغبة في تتبعهم، منطقة أخرى لم أوزع فيها صورة دميانة، قضيت الليلة أمام التلفزيون في القهوة، الكل

كان يتخوف من أن تحدث مواجهة دموية بين الحرس الجمهوري والناس التي انطلقت إلى هناك لتحاصر القصر، قلت في نفسي: لا يمكن الجيش يموتنا.. ده جيش بلدنا.. مش جيش حسني.

تجدد الأمل داخلي أن أجد دميانة، الأوراق التي تحمل صورتها اصفرت من أثر عرقي الذي غطاها، كنت أحملها تقريبا معي في كل مكان، على الرغم أنني لم أتلق اتصالا واحدا يقودني لأي أمل، لكن صورها كانت معي، يا ترى كيف تقضين أيامك يا دميانة؟ يا رب.. احفظها.. يا رب.. يا رب صُنها.. يا رب دي مقدسة.

كنت أقول ذلك لروحي، منذ شهور لم يجر في كفي قرش، لم أضغط على زرار الباور في الميكسر، كنت أبدأ يومي بتنظيفه، تخوفا من ذرات تراب قد تتسلل إليه، فتفسده، ثم أضعه داخل كيس بلاستيكي رقيق، وأعيده إلى الدولاب، الذي أغلقه بمفتاح لا يفارق جيبي، خشية أن تمتد إليه يد نيلو؛ شقيقي الذي كان لم يزل منهمكا في تصريف المسروقات التي سرقها من مبنى الحزب على الكورنيش، كانت نيران المبنى مستمرة حتى ظهر السبت ٢٩ يناير، لكن ذلك لم يردع اللصوص، اجتاحوا المبنى كالجراد، حملوا كل ما يمكن حمله من قطع الأثاث، للسجاد، حتى علب الأوراق الكرتونية، لم تفلت من أيديهم.

بعدما أغلق دولابي على الميكسر، أذهب لتناول لقمتي، فول وبصل، هكذا كل يوم، وأختم يومي بعلبة كشري بثلاثة جنيهات، بجوار صور دميانة. ماذا تأكلين الآن يا دميانة؟ يا ترى بيعاملوكِ كويس؟ يا ترى آذوكِ؟ يا رب يموتوا لو كانوا مدوا إيديهم عليكِ

يا دميانة.. يا رب.. يا رب أنت كبير فوقنا.. يا رب يسوع المسيح.. رجع دميانة يا رب.. حافظ عليها وصُنها من أذى الأشرار.. يا رب صُنها من أن تدخل في التجربة، بشفاعة القديس العظيم البابا كيرلس.. يا رب صُنها واحميها وخليك معاها وابعد عنها كل وجع يا رب.. «وقال دعوت من ضيقي الرب فاستجابني، صرخت من جوف الهاوية فسمعت صوتي، لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار فأحاط بي نهر جازت فوقي جميع تياراته».

٩

ومرت شهور.. وذهبت إلى استوديو خريشة في بين السرايات.

هتف في وجهي: حسني مبارك وغار.. اللحمة رخصت يا عم جوجو دلوقتي؟ ولا إيه الإيفكت اللي جاي؟

كنت أدخل إلى الاستوديو متوجسا، المنطقة تغيرت في بين السرايات، بيوت كثيرة تهدم، أبراج ترتفع مواجهة للجامعة على ناصية شارع السكري، وعلى ناصية البطل مرسي سلطان، ما إن رآني عم خريشة حتى هتف: الثائر الحق.. الذي يثور ليبني الأمجاد، ثم يهدأ ليغني المهرجانات.. ولّا إيه يا جوجو؟ آه معلش أنت كوفتس.. تلاقيك ما كنتش بتسمع الشعراوي وأنت صغير بعد صلاة الجمعة.

قلت ضاحكا في مرارة: أسمعه إزاي بس يا عم خريشة؟ إحنا عمرنا ما كان في بيتنا تلفزيون.

ضحك ساخرا وخبط على كرشه وهو يقول متهكما: يا قلب أمك.. تصدق الإيفكت ده يوجع، وينفع يبقى كوبليه في مهرجان.

لم أرد، تجاهلته، وأنا أمرر نظري على الحجرة، لم يكن هناك سوى إيهاب تكنو، جالسا خلف الميكسر يختبر لوبات ظننتها جديدة، انتزعني صوت خريشة من أفكاري: يعني البلد دلوقتي.. بقت أحسن؟ يا بني دي السجون اتفتحت، وشباب ياما دمهم ساح، والمجرمين طلَقوهم علينا، أنا وقفت لأول مرة في حياتي بسنجة وشومة على ناصية الشارع، تنفع البهدلة دي؟ ولّا ولاد الكلب سواقين التكاتك.. اللي بقوا بيتّنكوا عليّ وبيرفضوا يشغلوا المهرجانات بتاعتنا إلا بتسعيرة.. البلد باظت يا بني.. ولّا إيه؟

قلت في ضجر. عم خريشة.. أنا فيّ اللي مكفيني.

تفرس في ملامحي قليلا، كما لو كان سيسبني، ثم قال في خفوت: البت حبيبتك لسه ضايعة؟

نظرت إلى إيهاب لائما، فتشاغل عني، وأشاح بوجهه بعيدا، فواصل خريشة: حسبي الله.. تلاقي عيال ولاد حرام يا بني غووها بالحرام.

نهضت في عصبية، واتجهت نحو الباب، فصاح: على فين.. الله؟ فتجاهلته وأنا أصفق الباب خلفي في غضب، نزلت إلى الشارع وداخلي نار، ورغبة عارمة في البكاء، أو تحطيم شيء ما، لن أغني في استوديو خريشة، قلتها في ضيق وأنا أزفر في حنق، وما إن خطوت عدة خطوات خارج الشارع، حتى لمحت زهران..

بشحمه ولحمه، يقف أمام مكتب صرافة، كأنه ينتظر أحدهم، ظهر على عتبة المكتب شاب ممشوق القوام مفتول العضلات قوي البنية، كأنه مدرب في صالة كمال أجسام، ومع ذلك ملتحٍ، وفي جبهته بقعة داكنة لزبيبة صلاة، صافحه في ترحاب، ثم اصطحبه للداخل، زهران.. ها هو زهران.. أي صدفة، أي صدفة يا رب! الشكر للرب، الشكر للرب، دق قلبي في عنف، أشعر أنني أسمع صوت دميانة، كأنها تستنجد بي، ولكن ماذا أفعل؟ أنتظره هنا، أم أقتحم المكتب فورا؟ ماذا أفعل؟ يا رب.. «يا رب لا تدخلنا في التجربة لكن نجنا من الشرير».. ظللت واقفًا متجمدًا في مكاني، مثل تمثال من البرونز صبه أحدهم في عجالة، ولم تزل رائحة المعدن تتصاعد منه، شعرت بالخيبة من قلة حيلتي، لكن سرعان ما ظهر زهران خارجا من المكتب، وفي يده كيس أسود حمله تحت إبطه في حرص، كان الكيس منبعجا، يبدو أن داخله رزم أموال، لم يكن من الصعب أن أخمن ذلك، الرجل يخرج من مكتب صرافة، ويتجه نحو مطلع كوبري ثروت، وثب في أحد الميكروباصات، أوقفت تاكسيا، وقلت للسائق. ورا الميكروباص يا اسطى.

السائق تفحصني في ضجر، وقال لي ببرود: مش عاوز مشاكل.. البلد مش خالصة.

صحت في وجهه بغيظ والميكروباص يبتعد: يا اسطى هديك اللي أنت عاوزه.. خليك ورا الميكروباص في عرضك.

انطلق السائق متبرما، لم يكن في جيبي سوى عشرين جنيها اقترضتها من إيهاب، وهاتفي المحمول، هاتفت إيهاب تكنو، جاء

صوته غاضبا: كده برضه يا جوجو.. تسيب عم خريشة وتهج.. والله أنت مش متربي يا كوفتس...

قاطعته قائلا: إيهاب.. أنا لقيت زهران.. مش عارف رايحين فين، بس شوية ويمكن تليفوني يفصل رصيد.. ممكن تطلبني كمان نص ساعة، وحياتك أحسن أنا خايف.. بس متأكد إن زهران هيوصلني لدميانة.

ساد صمت طويل، لم يجب إيهاب، عيناي معلقتان على الميكروباص الذي يتوقف كل خمس دقائق، ويلفظ عددا من ركابه، ويبتلع آخرين، لم يظهر زهران، أجابني إيهاب في صوت قلِق: طيب خلي بالك من روحك.. الواد ده يعرف شكلك؟

قلت في خفوت: آه يعرفني طبعا.. مش كنا جيران في المثلث.

عاد صوته يقول: طب اقفل وكمان نصاية هكلمك.

طريق طويل قطعه الميكروباص، حتى وصل إلى منطقة منشية البكاري، أسفل الطريق الدائري، الغبار كان يميز المنطقة، ترجل زهران من الميكروباص، وركب آخر، وظلت العربة تنتظر اكتمال ركابها، وقف التاكسي على مبعدة من موقف منشية البكاري وسألني: إيه يا أستاذ؟ خلاص.. المراقبة انتهت.. ولا إيه؟

قلت: ممكن بس تصبر شوية؟ عشان خاطري.

قال الرجل مزمجرا: لا والله ماكانش اتعذر.. معلش.. اتفضل حضرتك كمل المشوار ده في بوكس تاني.. وهات الأجرة.. إيدك على خمستاشر جنيه.

قلت متذمرا: خمستاشر جنيه.. دا احنا جايين من بين السرايات.. كمان أنا بقولك خليك معايا وهدفع لك اللي أنت عاوزه، ماقدرش أركب الميكروباص ده لأن اللي أنا قاطره عارفني.

التفت السائق في حدة نحوي، ولوح بقبضته في وجهي كأنه سيصفعني، قائلا: بقولك إيه.. العربيات دي رايحة كرداسة.. وأنا مش ناقص لبش.. دي منطقة كلها بلطجية.. ومش هاروحها.. تعالَ استنى المحروس اللي بتراقبه بكرة، وشوف حد غيري يوصّلك.

ترجلت من التاكسي متذمرا، ودفعت ما طلبه، وتبقى معي خمسة جنيهات، مرت نصف ساعة ولم يتصل إيهاب كما وعد، لا يهم، حتى إذا خطفوني مع دميانة، عزائي الوحيد أنني سأكون معها، نظرت في توتر إلى الميكروباص، زهران كان يجلس داخله متوجسا، ضجرا، العربة لم تكتمل، أشرت نحو تاكسي مقبل، لا أعرف ماذا سأقول له، كيف سأقنعه أن يظل معي، أمال الرجل رأسه نحوي ليسمعني عبر نافذة عربته، انحنيت بدوري قائلا: بعد إذنك يا اسطى.. هروح كرداسة.. بس كمان شوية.

ظهرت علامات الحيرة على وجه السائق، قال وهو يحاول أن يتخطى حيرته: فين في كرداسة؟

نظرت في يأس تجاه الميكروباص، لم يكتمل ركابه بعد، أنا وزهران نتمنى أن تكتمل العربة بأسرع ما يمكن، قلت للسائق: هي العربيات دي بتروح فين؟

وأنا أشير تجاه الميكروباصات، فالتفت الرجل نحوها، ثم قال: بتروح عند القسم، موقفها في وش قسم المركز بالظبط.

قلت متهللا: هي دي الحتة اللي أنا رايحها، بس كمان شوية، قلتها وأنا أفتح باب التاكسي، فنظر لي السائق في ريبة، وقال في حذر. مش فاهم قصدك.. طالما عارف وجهتك.. مستني إيه؟

نظرت مرة أخيرة إلى الميكروباص، كان السائق يقذف سيجارة في فمه، وهو يقفز في مقعد القيادة، قلت في تردد: اطلع.. اطلع يا اسطى.. بس استنى شوية كده.. هشوف معايا فكة ولّا لأ

تظاهرت أنني أدس كفي اليمنى داخل جيبي، تفحصني السائق في توجس، كانت عيناي على الميكروباص الذي يطلق موتوره زمجرة بائسة بينما ينطلق، اعتدلت في مقعدي، وقلت متنهدا في راحة: اطلع يا اسطى.

١٠

مثل مطر أعمى، سرت متتبعا خطوات زهران وأنا لا أدري أنه لمحني، لا أعرف متى لمحني، المهم أنني تتبعته، يقودني لهفي إلى دميانة، كأنها شبح تستدرجني في العتمة، تحجب أدخنة الأزقة وضبابيتها عن الشراك الموزعة على جانبيها، هكذا سرت في طرق كرداسة الضيقة، بعدما منحت التاكسي خمسة جنيهات، وجردني من هاتفي المحمول لاستكمال حقه، صحيح أن هاتفي المحمول قديم وعتيق وتقريبا لا يساوي شيئا، لكنها الترضية التي وجدها سائق التاكسي بعدما قطع مشوارًا متتبعا عربة ميكروباص، حتى قلب كرداسة، ثم عندما ترجل زهران في الموقف، هبطت من

السيارة، ورفض سائقها أن يعفو عني، فمنحته المحمول، بعدما انتزعت الشريحة، وتتبعت زهران وأنا لا أعرف أنه يراني، ويقودني مثل الأعمى إلى هاويته.

في حارة ضيقة، تبدأ من أحد الشوارع الذي يحوي مدرستين متقابلتين، إحداهما حملت لافتة بكلمات: «إدارة كرداسة التعليمية»، اختفى زهران، هرعت متفحصا الحارة التي دخلها منذ دقائق، كانت تحوي في نهايتها بابًا حديديًّا لبيت من طابقين، هل صعد زهران هذا البيت؟ كيف لم أره، ولم أسمعه بينما يفتح الباب؟ كان أمامي منذ لحظات، وفجأة اختفى، كأنه ذاب في جدران البيوت، أو التصق بها، هل هذا هو البيت الذي يحتجز فيه دميانة؟ ثم بغتة، هوى ذلك الشيء على رأسي، سمعت قبل دوامة الظلام التي غرقت فيها، صوت الهواء بينما شيء ما يشقه، كان الصوت قريبا جدا من أذني، ولم أتخيل أنه لشومة صلبة إلا بعدما استيقظت ووجدت نفسي في حجرة عارية إلا من البلاط البارد، الذي حمل آثار دماء جفت في موضع رقاد رأسي، هذه الدماء لي، هذه الآلام لي، وعلى الحائط تتعلق شومة خشبية صلبة، تأملتها بنظرات واهنة، هذه الضربة القاسية التي هوت على رأسي تمُت بصلة بالتأكيد لهذه الشومة التي تتدلى على الحائط في عتو وفخر، لحظات وفتح أحدهم باب الحجرة، حينما حاولت أن أتحرك أدركت وضعي الذي لم أستوعبه للمرة الأولى بسبب قوة الضربة، أدركت أن رأسي مرتج وفقد سيطرته على أطرافي، كنت مقيدا، ملقى على الأرض مثل فرخة يعدونها للذبح، ساقي مقيدة بحبل غليظ، وذراعاي مقيدتان خلف ظهري، لا ينقص المشهد سوى أن

أوضع فوق حلقة نار لأنال بقية عقابي، اقتربت خطوات نحوي، لم أستطع أن أرى صاحبها لأن وجهي كان نحو الحائط الذي تتدلى على صدره الشومة، أمسك أحدهم شعر رأسي بغلظة، وجذبني في حدة فأطلقت صرخة ألم من موضع الضربة، قال صاحب الصوت الذي تعرفته فيما بعد: بتقطرني ليه يا روح أمك؟

كان زهران طبعا، زهران وقد صبغ صوته بصبغة غلظة وحقد، صرخت من الألم، قبل أن أقول صارخا لعل أحدهم يسمعني: أنت اللي خطفت دميانة يا ابن الكلب.. والمسيح مهما عملت فيّ.. مش هسيبك.

ضحك ضحكة متشفية، ثم بصق على رأسي، كان لم يزل يصوب جسدي نحو الحائط، فتلقيت البصقة لامباليا، لم أرها، فقط شعرت بلزوجتها العفنة وهي تلتصق بشعري الذي كان لم يزل يشدني منه، قال وهو يركلني في ظهري: بص يا نصراني يا نجس.. أنا مش هعمل فيك اللي عملته فيها.. لإن في منها أمل إن ربنا يهديها.. وتبقى زوجة مسلمة صالحة.. أنا قبل ما هبعتك على جهنم.. هقولك على سر صغير.. هيسويك على نار هادية قبل ما تدوق طعم العذاب.. أخوك النصراني النجس التاني.. هو اللي ساعدني في استدراج الجارية بنت النجس يوسف شفيق.. والله يا أنجاس الوساخة منكم فيكم.. يلّا عشان بس تتعذب شويتين قبل ما أخلص من نجاستك.

ثم أطلق ضحكة ساخرة متشفية، وهو يعاود ركلي في ظهري، ويترك شعر رأسي، ويغادر الحجرة، لم أشعر بأي آلام في ظهري أو

في مواضع ركلته، شعرت بالرغبة في التقيؤ، أنت يا نيلو! ليه كده يا ابن ابويا.. أعمل إيه يا رب؟

أطلقت صراخا مولولا كأن ثعبانًا لدغني، وعيناي تفرزان دموعي بغزارة، وبكائي يبدأ بهمهمات حانقة مصحوبة بصراخ ونشيج طفل تعرض لخيانة حرمانه من ثدي أمه.

لا أدري كم مرّ علي في اختطافي، ظللت يومين وليلة ملقى على الأرض مثل ذبيحة انشغل عنها الجزارون، بدني صار واهنا من الجوع، بطني الخاوي ظل يزأر أول ليلة وكدت أبكي من ألم الخواء، مصاريني كانت تلتف حول بعضها البعض، كأنها ستلتهم نفسها، أو كأنها تبحث عن فضلة من طعام لم تهضمه معدتي، لا أعرف ماذا كان يحدث داخلي، جربت شعور الجوع من قبل، ولم يكن غصبا بهذا الشكل، كنت أجوع عن تناول الخبز نهارات كاملة، وأتحايل بأي طريقة لأجد وسيلة لسرقة رغيف، أو ألقي بثقلي على أي جار، أحيانا كانت دميانة تشعر بجوعي، فتأتيني بأرغفة، وجبن قريش، وبصل أخضر، أتذكرها محاولا أن أتلهى بصورتها عن جوعي، وجفاف حلقي، أستطيع أن أتحمل خواء معدتي، لكن جفاف حلقي ورئتيّ يقتلني أكثر، قطرة ماء، قطرة ماء بوسعها أن تحييني ليلة أخرى، هل تمطر السماء؟ أيها الرب.. أيها الرب دعوتك أن تنجيني من الشرير، فلماذا جعلتني فريسة له؟ رددت: «فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت، وقال: دعوت من ضيقي الرب، فاستجابني. صرخت من جوف الهاوية، فسمع صوتي».

انتهيت من ترديد بعض كلمات سفر يونان ثم غمغمت بأنفاسي المكتومة: أيها الرب.. أيها الرب.. هل ترى كل هذه الآثام؟ هل تراها وتطّلع عليها؟ نحن مظلومون.. مظلومون.. مظلومون.

كنت أتأوه، محبوسا في حجرة مقيدا كالذبيحة، لا أقوى على الصراخ، أظن أن أحدهم سيمد لي طبق طعام في نهاية أول نهار، مر يومان، وليلة، ولا يبدو أن أحدهم سينجدني، حتى دموعي نشفت، كأن عيني استنزفتا كل نقطة مياه في جسمي، شعرت بالوهن، ظلمة أخرى تقترب، فجأة اقتربت مني خطوات حذرة، كان يصحبها ضوء يتنقل في حذر كأنه نديمها، انتبهت، وحاولت أن أفتح فمي لأزعق بعلو صوتي، انطبقت شفتاي، الجفاف أطبقهما، تشقق جلدهما وصار فمي مغلقا رغما عني، تأوهت وأنا أمط شفتي محاولا تحريرهما من بعضهما البعض، فشلت، لم أستطع أن أفتح فمي، ألم مريع، كأن أحدهم أمسك موسى وحاول قطع لحم شفتيّ، كانت الخطوات قد فتحت الباب، مصطحبة كشافًا ضوئيًّا أبيض مبهرًا، اقتربت من ظهري، لم أستطع أن أرى صاحب الخطوات، فقط كانت هالة الضوء تقترب من الحائط المقابل، تتصدر الشومة دائرة الضوء، ثم انحنى الضوء بغتة نحو جسدي الراقد مقيدا، هزتني يد، انتفض جسدي كأنني بوغت، على الرغم أنني رأيت دائرة الضوء بينما تقترب مني، ووقع الخطوات صار أقوى في أذني الملتصقة رغما عني في البلاط، حينما لمستني اليد، التي شعرت بانتفاضتي وخوفي، فطبطبت عليَّ في حنو، ثم انبعث صوت أنثوي: ما تخافش.. أنا مش هأذيك.. أنا هفكك.

تنهدت في داخلي تنهيدة راحـة، أطلقت غمغمة خرساء، بسبب شفتيّ الملتصقتين، وجدت كفا حانية تقترب من وجهي بزجاجة ماء، حاولت في صعوبة فتح شفتيّ، أحنت على فمي فوهة الزجاجة، كأنها تتوقع تأهب فمي لالتقاط رشفة، فمي لم يزل مغلقا، فهطلت الرشفة على فمي ووجهي، انسابت قطرات الماء في شفتيّ الجافتين، ارتوت الأنسجة المتجلطة، فتحت فمي لأول مرة منذ جفاف الشفتين، قربت الزجاجة مني مرة أخرى، التقت الشفتان الضامرتان، بفوهة الزجاجة في لهفة، جرت في عروقي المياه، شعرت بانقباض جوفي، كأن أعضائي تنهض من سباتها العميق لتلتقط القطرات في تصارع، كل أعضائي الآن تنتظر دورها في الارتواء، ربتت عليّ الكف في حنوّ ولم أكن قد رأيت وجه صاحبتها، قالت بصوت هامس: أنت الولد اللي جاي عشان دميانة؟

شهقت بغتة حينما قالت عبارتها، صحت في جزع: أبوس إيديكِ.. لو تعرفي طريقها.. دليني.

التفت إليها وأنا أقولها، كنت لم أزل مقيدا، كانت سيدة منتقبة، صارت والظلام قطعة واحدة من الليل، عدا عينيها المتوقدتين في حماس وحذر، هزت رأسها هزتين متتابعتين، وهمست: مش هينفع أدلك.. هي في أمان، لكن حواليها مجرمين عينهم عليها، فيه طريقة، بس اوعدني إنك تساعدني؟

قالتها ويداها تمسكان سكينًا، لوحت بها نحو قيد معصمي، قلت في لهفة: اللي تؤمريني بيه.. أي حاجة أعملها عشان دميانة.

قالت وهي تقطع الحبال التي تقيدني في حماس وسرعة: هديك

عنوان.. دكتور في جامعة القاهرة.. تروح تقابله، وتدي له رسالة هكتبها بالإنجليزي.. أنت بتعرف إنجليزي؟

قلت وأنا أساعدها في فك قيودي: لأ أنا تحت أمرك.. وحتى لو كتبتيها بأي لغة.. أنا تحت أمرك.. بس دميانة.. هتساعديني أوصل لها إزاي؟

اعتدلت واقفة، بعدما تخلصنا من قيودي. دميانة تحت عيني.. هي وبنات تانيين.. ما تقلقش.. إن شاء الله يرجعوا لبيوتهم ولأهاليهم.. بس أنت فرصتي عشان تساعدني.. أنت الوحيد اللي جيت من بره العالم اللي أنا عايشة فيه.. أنا محبوسة هنا زي دميانة.. ومحتاجة مساعدتك.. لو ساعدتني.. هساعدك.

نهضت واقفا وظللت صامتا أتأمل كلماتها، قلت في تردد: يعني أنا هخرج من هنا وهفضل مستني دميانة.. إيه يضمن لي إنك هترجعيها؟

قالت في سخط محاذرة أن ترفع صوتها: إني فكيتك.. أنت عارف كانوا ناويين يعملوا فيك إيه؟ كانوا هيسيبوك تموت من الجوع.. هتسمع الكلام وتنفذ اللي بطلبه منك.. ولّا إيه؟

ظللت صامتا، هي فعلا خاطرت بروحها من أجلي، من أجل إطلاق سراحي بمعنى أصح، لم يكن بمقدورها أن تفعل ذلك لسواد عيوني، أو حتى لثواب تبحث عنه، هي بالتأكيد صادقة، ثم إنها مطلعة على شر بالغ يتم تدبيره هنا، دميانة ليست وحدها، معها أخريات، مسيحيات بالتأكيد، قلت في استسلام: تحت أمرك..

دليني بس على طريق الخروج.. وهاتي الرسالة اللي إنتِ عاوزاني أوديها للدكتور.

١١

أخوك عمل مصيبة المصايب يا جوجو هتتكتب باسمه في دفتر أحوال البلطجية..

قالها دلدول وهو يسحب نفسا من سيجارته، ويطلقه من فمه، ثم يتأمله في الهواء وهو يتشكل أدخنة متلاصقة في عشوائية. كنا جالسين أمام باب عشة عم يوسف شفيق، عدت إلى المثلث، بعدما غادرت المكان الذي ظللت مختطفا فيه بمساعدة السيدة المنتقبة، كنت موضوعا في بدروم فيلا فاخرة تقع في محور اللبيني المؤدي إلى كرداسة، قطعت الفدادين المترامية المحيطة بالفيلا من كل اتجاه في خوف وجزع أن ينتبه إليّ أحد، قالت لي لا تشغل بالك، الذين اختطفوك ذهبوا إلى ميدان التحرير مع كبيرهم لتنظيم مظاهرة إسلامية، لم أفهم شيئا، غادرت الفيلا مهرولا، كانت عضلاتي متيبسة من القيد الذي أحاط بساقي طيلة هذه الفترة، فتعثرت بعد ثلاث ثوانٍ من محاولتي الركض، نهضت في حذر وأنا ألتقط أنفاسي، ثم تحركت ببطء، وأنا أرجع سبب عثرتي لحجر ارتطم بقدمي، عاودت الركض، حتى غادرت الفيلا التي كان بابها مفتوحًا، نظرت إلى الفيلا من بعيد مغمغما: يا ترى دميانة هنا؟ أكيد في مكان آخر، بالتأكيد، قلتها وأنا أستدير مواصلا الهروب، حتى وصلت إلى المثلث، لم أستطع أن أهرع إلى العشة، لا أعرف ماذا سأفعل إذا

رأيت نيلو في وجهي، ذهبت إلى دلدول، الذي تلقفني في لهفة، واحتضنني في شوق، وصاح في وجهي بغلظة: بقى إحنا يجرى فينا كده يا جوجو؟ تسيب نفسك لولاد الكلب يخطفوك!

قلت وأنا أتهاوى على بلاط عشته: الحمد لله إنها جت على قد كده.. كانوا هيموتوني.. لولا واحدة بنت حلال نجدتني.

ثم حكيت الحكاية، وحينما وصلت للمقطع الذي يخص نيلو، امتقع وجه دلدول، قائلا في غيظ: أتاريه يوم خطف دميانة طلب مني نروح مشوار.. روحنا، وفضلنا واقفين في الطل ساعتين بحالهم.. بنعمل هنا إيه يا نيلو؟ مستنيين حد هنعمل عليه نصباية.. نصباية إيه يا نيلو؟ مالكش فيه يا دلدول.. انت هتاخد حسنتك سواء النصباية اتعملت أو لأ وفعلا، ظرفني ٢٠٠ جنيه، وافتكرته مجنون، لم يحدث شيء، لم تظهر أي مصلحة، فعلا كان عاوز يبعدني عن المنطقة.. الكلب الواطي.

نظرت إلى دلدول نظرة لائمة، فهمها سريعا، أدرك مغزاها، ثم أشعل سيجارته في قلق، وقال في توتر وحنق: فيه مصيبة تانية.. أخوك فَجَر

قلت في استخفاف: مفيش مصيبة عندي أكبر من جريمته بحق دميانة.. المهم إن الست اللي أنقذتني دي.. عاوزاني أروح لدكتور في الجامعة.. كتبتْ له رسالة بالإنجليزي.. دكتور اسمه شاندور.

نفث دخان سيجارته، وحملق في سقف العشة الصاج، ثم قال دون أن يحول نظره نحوي: الدنيا صغيرة.. واللي خلق الخلق..

خلَّى الدنيا صغيرة.. عشان الوشوش تلف وتدور.. تمشي في سكك ومتاهات.. وتخلي الناس تتقابل.. ما هو شاندور ده.. هو اللي أخدنا منه لباسه هنا في الحارة.. أخوك بيلعب بالنار من زمان، وما بطلش لعب.. دلوقتي بقى بيلعب مع الحكومة.. أو تحديدا.. هوّ لعب خلاص.. شارك في مذبحة بشعة.. حصلت وأنت مخطوف.

دق قلبي في عنف، تهدج صوتي وأنا أقول: يا نهار أسود.. إيه الكلام ده؟

شد نفسا آخر من السيجارة، ونفثه في توتر، ثم التفت إليَّ قائلا في خفوت: من أول ما الثورة دي حصلت.. والدنيا اتغيرت مع نيلو.. الأرض نعمت تحت منه.. لبس جزمة.. وهدوم جديدة.. إيه الحكاية يا نيلو؟ بتروح فين أنت وزمايلك؟ باشتغل في الحراسات يا دلدول.. إوعى تكون بتعمل حاجة حرام يا نيلو.. والمسيح الحي ما بعمل حرام يا دلدول.. ولا همشي في سكتك البطالة تاني.

ثم صمت، ونفث دخان سيجارته مرة أخرى، قبل أن يواصل وهو يحك شحوم لغده الضخم: بس الأيام الناعمة ما استمرتش كتير.. مرة رجع واخد طوبة.. ومرة رجع واخد ضربة مطواة.. ومرة تالتة واخد خرطوشة في جنبه.. إيه الحكاية؟ طلع بيأجر روحه هو وزمايله لبتوع الأمن المركزي.. يهجموا على المسيرات.. ويضربوها.. أو يمشوا في مسيرات ثورية قبل أن يقلبوا عاليها واطيها، سبوبة البلطجة ازدهرت بعد الثورة.. يدخلوا وسط الثوريين في أي مظاهرة.. يقلبوا كيانها.. يضربوا عساكر الأمن المركزي.. عشان دول يردوا عليهم بالضرب.. تحصل الفوضى.

كانت ملامحي تمتقع وأنا أستمع لدلدول، الذي راقب التغيرات على وجهي في توتر، ثم قال: آه.. كنا مخبيين عليك.. عرفت بالصدفة لما رجع ليلة شايلينه اتنين، ورموه بره، اتنين من عساكر الأمن المركزي، طلع إنه اتصاب بخرطوشة بالغلط، الخرطوشة جت في جنبه، غالبا محدش عرف بالحكاية في المثلث لإني أخدته عندي، نيمته، وشُفت له تمرجي إدا له أمبول تراي بي، والصبح ودنياه مستشفى، وخرجنا الخرطوشة، وأخدنا تقرير طبي كمان، وقدمناه في مكتب المجلس بتاع الشهداء والمصابين، عشان ياخد تعويض، المهم، خف، ورجع تاني، حذرته، قلت له إني هفضحه، مارضيش يسمع، لحد ما اشتغل في حراسة البرجين، مش رسمي، إنما يحرسهم من بعيد هو وشوية بلطجية راخرين، بيدفعوا لهم إتاوة، المهم فضل في الشغلانة دي، لحد ما جاله حد من المخبرين.. ماعرفش إزاي البلد لسه فيها مخبرين، كنت فاكرهم انقرضوا، أتاريهم نشطوا يا أخويا بعد الثورة، بقت شغلانة اللي مالوش شغلانة.. والحكومة بتدفع.. ما هي مش عاوزة تنضرب على قفاها تاني.. المهم جاله مخبر، وقال له إن فيه مظاهرة مسيحيين جاية على التلفزيون، وإنهم عاوزين يضربوا النصارى علقة سودا، أو علقة موت، مش فاكر الراجل وصفها إزاي.. لكنه والعدرا.. ماجبش سيرة خالص لحكاية الهرس دي.

صمت ليلتقط أنفاسا أخرى من سيجارته، كنت أشعر أن عضلات ساقي تيبست مرة أخرى من الجلسة الطويلة، أو من سحر الكلام الذي يقوله دلدول، أين كنت طوال هذه الشهور؟ أين كنت ونيلو يعمل بلطجي مرتزقة لضرب الناس الغلابة في المظاهرات؟

آه يا وسخ، ظللت محدقا في دلدول الذي نظر لسقف العشة، وهو يحك أظافره في لغده قائلا: بدأت المظاهرة من دوران شبرا، مشى فيها نيلو عشان يدرسها، ويهتف مع الناس، ويطمنهم إنه معاهم ويعرفهم ويعرفوه، وسلط شوية من صحابه يضربوا المظاهرة في كوبري السبتية بالحجارة، النصارى ماخافوش.. كملوا المظاهرة، كان أخوك وسطيهم، بس فجأة انسحب ولمّ زمايله، ودخلوا تاني، وعملوا مناوشات مدروسة مع عساكر الجيش، بعض زمايل أخوك اتهور، وضرب خرطوش على الناس اللي مشاركة في المظاهرة، وبعضهم هجموا على شوية عساكر من الشرطة العسكرية وقطعوا لهم هدومهم، هوب كلوب، الراس وقعت في الراس، يا ريتها كانت فاس، كانت تبقى هينة، ما تعرفش إيه اللي حصل، طلعت مدرعة سايقها عسكري أعمى، دهس شوية من الناس الغلابة اللي كانوا في المظاهرة، أخوك وأصحابه أول ما اطمنوا إن الدنيا سخنت، ضربوا خرطوشتين، واتفرقوا، بس كانت المجزرة البشعة بدأت.

ثم صمت وتأملني، وشد آخر نفسين في السيجارة، وهرسها بكعبه المتشقق، لم يعبأ بلسعتها الطفيفة، تحملها جلد كعبه الميت، خيم علينا صمت ثقيل، قال في خفوت: مش قلت لك مد له إيديك.

قلت في حسم وأنا أنهض مغادرا العشة: همِد عليه إيدي.

ثم غادرت العشة، ودلدول يهتف: بلاش تهور يا جوجو أنت فنان.. مش زي أخوك.

لم أدر أي شيء عن الفظائع التي ارتكبها نيلو.. كيف نظل

شقيقين؟ كيف صرنا شقيقين؟ لأن لك الملك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور.. نجنا من الشرير ولا تدخلنا في التجربة.. بالمسيح يسوع ربنا، اغفر لنا خطايانا، أعطنا خبزنا كفاف يومنا، ماذا أفعل؟ أنتقم لدميانة.. أم للمساكين الذين تسبب نيلو في قتلهم؟ سأنتقم لهؤلاء.. وفي الحقيقة أنا أنتقم لدميانة أيضا، ذهبت في اليوم التالي إلى كاتدرائية الملاك ميخائيل في مدينة السادس من أكتوبر، قطعت طريقا طويلا لأصل هناك، وأقف أمام لوحة تذكارية تمجد شهداء المذبحة، كانت جنازة الجثامين قد خرجت، ولم أستطع اللحاق بها، روى دلدول الحكاية بعدها بأيام، عرفت أن بعضهم مدفون هنا، في الكنيسة التابعة لإيبارشية الجيزة، أعلى اللوحة الرخامية البيضاء، حُفرت عبارة سوداء: «باسم الثالوث المقدس»، ثم تحتها بفنط أصغر «فأعطوا كل واحد ثيابا بيضا وقيل لهم أن يستريحوا زمانا يسيرا أيضا حتى يكمل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضا العتيدون أن يقتلوا مثلهم».

وتلتها عبارة ثالثة تقول: «هنا ترقد أجساد بعض الشهداء أولاد الشهداء انضموا إلى المذبح السمائي يوم ٩ أكتوبر ٢٠١١ - توت ١٧٢٨، برصاص ومدرعات الجيش المصري أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون (ماسبيرو) أثناء وقفة سلمية بدون سلاح لوقف هدم الكنائس في مصر».

هل رأيت ما فعلته يداك يا نيلو؟

في نفس اليوم كان موعدي مع الدكتور الأجنبي، لم يكن هناك موعد، فقط سألت عليه مرة كنت فيها في بين السرايات، سألت

عليه أحد الطلبة الذين يخرجون ويدخلون من بوابات الجامعة، عثرت على أحد طلبته، قال لي إنه يجلس في مكتبة الكلية يومَي الاثنين والثلاثاء، من العاشرة صباحا حتى الثالثة، في الحقيقة كنت أرغب في انتقام لا ينسى من نيلو.. أخي.. الذي قتلني.. مثلما قتل آخرين أمام ماسبيرو، تآمر عليّ مثلما تآمر على أشقائنا، على الرغم أنه عرف طريق محلات الوكالة، وملابسها عرفت جلده، إلا أنه لم يكف عن ارتداء السروال الذي حصل عليه غصبا من الدكتور الأجنبي، انتهزت فرصة الليلة التي عاد فيها نيلو منهكا يترنح من قعدة حشيش وخمرة مع باقي أفراد عصابته البلطجية، خلع ملابسه، وظل بالسروال، ألقى بنفسه على الأرض ونام كالثور، انتظرت ساعة، وأنا لا أعرف ماذا سأفعل، ساعة كتمت فيها أنفاسي، وأنا أقترب، من نيلو، إنني أخشاه، تغلبت على ضعفي وخوفي منه، وجردته من السروال ببطء، هل هذا الانتقام يكفي؟ سيستيقظ، ويجد نفسه عاريا، ويثور ويفكر في قتلي بفرد الخرطوش الذي يخبئه في الحفرة على ناصية الحارة التي حاصر فيها الدكتور الأجنبي، لم أعد أخاف نيلو، لم يشعر بينما أخلع السروال من على وسطه في بطء، وحرص، كانت الخمرة قد سدت مسام حواسه، الآن يرقد عاريا، رفعت السروال القذر على مبعدة من وجهي، لكنني لم أزل قادرا على أن أشم الرائحة العطنة، ومع ذلك يحتفظ السروال برونقه، قلت متهكما: صناعة بلده.

حينما التقيت شاندور، كنت أقف أمامه ممسكا كيسًا أسود باليًا، داخله السروال، وفي يدي الأخرى الرسالة، مددت له اليدين، التقط

الرسالة، وشعر بالارتياب من الكيس، حدق فيه أولا، تعرف على شيء يخصه، ارتسمت علامات الفزع على وجهه، قلت مبتسما وأنا أرمق الطلاب حولنا في المكتبة: حضرتك بتعرف عربي؟

هز رأسه دون أن يتكلم، كأن المفاجأة ألجمته، اتسعت ابتسامتي وأنا أقول: باعتذر لك عن عملة أخويا.. بس أنا آسف.. ماقدرتش أغسله.

نهض في ارتباك، ودس الكيس الأسود كما هو في حقيبته، ثم عاد وجلس ليواجهني، قبل أن يشير إليَّ بالجلوس، ورمق مشرف المكتبة بنظرة مرتابة، ثم فتح الرسالة وهو يقول: وهذه الرسالة؟ من أخيك أيضا؟

قلت في حيرة: لأ الرسالة دي ماعرفش منين.. واحدة منقبة إدتهاني.. وطلبت مني أوصلها لك.. لإنها زي ما تقول كده.. محبوسة.

ارتفع حاجباه وهو يقرأ الرسالة، وخلع نظارته الطبية، ودعك عينيه كأنه يفكر في معضلة، وكدت أنهض، فاستوقفني قائلا: بتقول منقبة؟ كيف ذلك؟ الذي أعرفه أنها قبطية!

بوغت بكلمته، وقلت في دهشة وأنا أعاود الجلوس: قبطية؟ دي كانت منقبة!

ثم سكت، وأنا أسترجع ما قالته لي عن دميانة والأخريات، ربما تكون هي نفسها مخطوفة مثل دميانة، قطع أفكاري صوته وهو يميل برأسه نحوي ليقول لي في خفوت: هي تطلب مني شيئا.. لن

أستطيع أن أنفذه.. هل يمكنك أن تعود لها.. وتخبرها أن ما تطلبه مستحيل؟

لم أكن أفكر من قبل في إمكانية أن أعود إلى هذه الفيلا التي كنت مختطفا فيها، قلت في حذر: غالبا مش هقدر أرجع لها تاني.. بس ممكن.. ممكن.

اعتدل شاندور، وعاد بظهره إلى الوراء، ثم دعك ذقنه، وعيناه تسرحان بعيدا، ثم حانت منه نظرة إليَّ قائلا: قل لها إذا استطعت أن تعود إليها.. إنني لا أنوي ترك البلاد قريبا، ولن أستطيع أن أوفر لها ملاذا في بلادي، الأمر يحتاج لتدبير كبير، خاصة بعد كل ذلك الذي ورطت نفسها فيه.

قالها كأنه ينهي اللقاء، نهضت في حذر، وأنا لا أعرف كيف أعود إلى الفيلا، وماذا سيكون مصير هذه المنتقبة إذا عدت أصلا؟ وهل سأنجو من يد زهران إذا عدت؟ أومأت له برأسي، وأنا أغادر المكتبة، كنت أحاول أن أتذكر كلماته، شيعني هو بنظرة ساخطة، لم أفهم معناها حينما استدرت لألقي عليه نظرة أخيرة، كأنه ناقم علي لأنني أعدت له سرواله.

زهـــــران

١

تحوم أرواحنا طويلا في سماء هذه البلاد، لا نملك إحداثيات الطريق إلى الجنة، ونحن نظن أن في أيدينا مفاتيحها، وأن الصراط إليها واسع، سنهرول.. أم نسير ببطء.. سنطمئن أم نحاذر.

في الأرض عشت في عشة.. لم أجد قوت يومي، ويطالبونني أن أثبت جَلَدي، وقوة إيماني، تسيل دمائي على الأسفلت، ويعقبون: أنت تجاهد بروحك ونفسك في سبيل الله، طالما ليس لدي مال أجاهد به مثلما يفعلون، وهل يفعلون؟ هل يجاهدون بمالهم؟ وإذا كانوا يجاهدون بمالهم.. لماذا ظللت فقيرا؟

هم لا يتقدمون الصفوف الأمامية في أي موقعة، ويخبروننا أن المعركة لا بد لها من قادة، ونحن أوراق شجر الجنة، يا ليت كلامهم كان صادقا، هل نحن فعلا أوراق شجر الجنة، أم حطب جهنم؟

هم هجروا الميدان، ونالوا المناصب في البرلمان، وجلسوا في الحجرات الفاخرة، وارتدوا الملابس الناعمة الطيبة، ويتنقلون في العربات الفارهة، ويظهرون في التلفاز تدمع أعينهم على الشهداء

تحت قبة المجلس، بينما يرفلون في الحرير، ونحن لنا الضرب، والحبس، والزنازين القذرة، وأخيرا ارتوت الأرض منا، بعدما تحولت أجسادنا إلى ظهر قنفذ مليء بالرصاص.

هم.. أين هم؟ نجوت من كل المذابح، لأسقط في فخ الكذبة التي صنعوها عن عودة الرئيس الشرعي، كل ليلة، كل صلاة فجر، كل صلاة عشاء، هتافات على المنصة، صارت أوردتي تهتف، أوردتي وشراييني، صار الهتاف وِرْدنا اليومي، في اعتصام رابعة بمدينة نصر وفي اعتصام النهضة بالجيزة، هتافات: باطل.. باطل.. مش هيرحل.. مش هيرحل.. ونحن نرفع الأحذية في وجه البيان المشئوم يوم الثالث من يوليو، كان الهتاف واحدًا في ميدان النهضة وفي رابعة.. مش هنرجع حكم العسكر يسقط يسقط حكم العسكر.. باااااااطل.. الانقلاااااااااب.. باطل.. حكم العسكر.. بااااطل.

يرددها البلتاجي فوق المنصة، ونرددها خلفه في هتاف مسعور، تختنق له الحناجر، وتنقبض له شرايين الرقبة، كلنا كنا نهتف في حنق وغيظ، الوجوه ملتاعة، والانفعال الصادم يرتسم على ملامحنا، كنا نهتف ومقل أعيننا تكاد تنفجر من محاجرها: ارحل يا سيسي.. مرسي هو رئيسي.

يردد البلتاجي قسما، وتعيده الجماهير خلفه. نقسم بالله العظيم إن هذا الانقلاب.. لن يمر لن يمر.. ولو قدمنا أرواحنا فداه.

ألجمتنا الصدمة جميعا، احمرّت وجوهنا، ثم اسودت، انتهى الحلم، انتهى بهذه السرعة؟ كنت أسأل نفسي وقلبي يخفق في قوة، قبل أن أتهاوى، جلست على الأرض، كان رأسي يدور،

ولساني يلهج بها: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ليلة أمس دارت موقعة دامية شاركت فيها معتليا أسطح المنازل لأقتنص كل من حاول إعاقتنا عن التقدم في طريقنا إلى ميدان النهضة، معركة اقتحام بين السرايات، كان الغرض من اقتحام المنطقة، تأمين طريق لنقل سلاح من كرداسة إلى معتصمي النهضة، الشيخ حمزة أخبرنا أن الرئيس سيلقي خطابا بعد قليل، وأن أفضل وقت لنقل السلاح للمعتصمين، مع بدء الخطاب، كنت مع إسماعيل وعمر قد سبقْنا الشباب الذين سيأتون بالسلاح، كنا نعرف أننا لسنا بمفردنا في الطريق إلى النهضة، لذلك رفعنا بانر أزرق كبيرًا، مطبوعًا عليه بفنط أبيض واضح بالعربية والإنجليزية: ضد الانقلاب (Anti coup)، أعرف لأول مرة كلمة إنجليزية.. «Coup» لكنني أرددها هكذا: كوووب.

ما إن وصلنا بين السرايات حتى فوجئنا بعدد من شبابها يخرجون من شارع المرور، ويقذفوننا بالحجارة، صرخنا من الألم حينما أصابتنا الحجارة في وجوهنا وأجسادنا، صرخنا في غضب صرخة واحدة، لم يكن بحوزتنا سلاح، فقط كنا نحمل البانر، ونرفعه في إصرار وتحدٍّ، بجوار صورة لمرسي كان يرفعها إسماعيل، تراجعنا ونحن نشتمهم، اتصلت بالشيخ حمزة، كان يعد قافلة السلاح المتجهة إلى بين السرايات، أمرني بانتظار الرفاق، حتى يأتوا بالمؤن، ثم نقتحم المنطقة، حتى لو اضطررنا إلى هدم بيوتها على رءوس قاطنيها.

منذ عام ٢٠٠٨ والشيخ حمزة يحتضنني، يعاملني كأبي الذي لم أره، احتضنني عندما لمس فيّ ولعي بالجهاد، هل هذا حقيقي؟ أم أنه فقط ما أظهرته له كي يحتضنني ويضمني إلى حاشيته؟ أنا قذر.. وهم قذرون، لكن الفارق بيني وبينهم، أنني لم أصدق أبدا أنني أحمي العقيدة، وأريد تطبيق الشريعة كما أردد، وربما هم أيضا لا يصدقون أنفسهم، ويكتفون بالتظاهر بذلك فقط، كنت أبحث عن لقمة وهِدمة وسقف.. ثلاثة أشياء ارتكبت من أجلها الأباطيل وأنا أعرف أنها أباطيل، فيما هم لا يعرفون أو يتظاهرون أنهم لا يعرفون، لماذا خلقني الله بدون لقمة وكسوة وسقف ويطلب مني الشيوخ أن أصبر على ابتلائي؟ تظاهرت ومثلت على روحي أنني قوي الإيمان، وسأبذل روحي من أجل رفعة الدين، لكن كثرة التمثيل ومحاولات حبْك الدور المستمرة، تولد الاقتناع في النهاية، وتلبسك ما كنت تتمرن عليه فعلا.

لم أفقد يوما يقيني بما يدور داخلي، لا يهمني الإسلام في شيء، ولا الجهاد، بل يهمني الثلاثة الذين قضيت عمري مرتكبا ما ارتكبته من أجلهم، ولدت فقيرا، قالوا لي اصبر، وازهد، وتجلّد، وصلّ، وصم، فصبرت، وصليت، وصمت، على الرغم أنني صائم أصلا طول الدهر، ولا آكل سوى البصل والطماطم والعيش الناشف، حاولت مرارا أن أكون فعلا ذلك المؤمن المسلم الذي يتمنونه، فشلت دائما، أنا أعرف أن العيب فيّ، لذلك حينما ضمني الشيخ حمزة لفرقته عام ٢٠٠٨، اختار لي المهام التي أهواها، خطْف الجواري النصارى وتسليمهن للشيوخ لهدايتهن، وحرق قلوب أهاليهن الأنجاس عليهن.

لم أسمع ولم يسمع أحد عن فرقة الشيخ حمزة السرية لتطفيش النصارى من البلد، بخطف بناتهم، وحرق قلوبهم عليهن، عرفت هذا التنظيم للمرة الأولى من أحد جيراني الذي فقد أهله وذويه في حادث انهيار الصخرة في الدويقة، كنت وقتها أعمل محفظا للقرآن للأطفال الغلابة الذين يسكنون في العشش، في ذلك الصباح كنا كلنا خارجها، حينما انهارت الصخرة، وهرست ١١٩ جسدًا، كان من بينهم أهل عبد الرشيد الذي فقد رشده، فعفر نفسه بالتراب، وأخذ يهذي عن ذنوب ارتكبها، وأنه يدفع ثمنها، وفضح سر الشيخ حمزة وسط بكائه الحار.

ذهب إلى الشيخ في الدقي، حيث يلقي دروسه، وانتظرته بعد الدرس. كان يتكلم عن النصارى واعتقادهم الديني، دخلت المسجد وهو يقول. المسيحي يرى أن العقيدة المخالفة كفر، واليهودي يرى أن العقيدة المخالفة له كفر، والمسلم يرى كذلك، هذا منطق العقائد، وهذا يختلف عن دفاع الإسلام عن منطق العقائد وممارسة الشعائر داخل دور العبادة، سيدنا عمر عندما دخل بيت المقدس، ذهب إلى كنيستين. الأولى رفض أن يصلي فيها، والثانية صلى فيها صلاة المسلمين، حتى لا يظن الناس أنه لا يجوز أن يصلوا فيها صلاة المسلمين طبعا، وكتب لهم عهدا ألا تحوّل كنيستهم إلى مسجد.

لكن من هو الشيخ «حمزة أبو نور»؟ كل ما أعرفه عنه أن وسامته حققت له جماهير غفيرة من الفتيات والسيدات، قدم نفسه متحدثا لبقا عن دين عصري، بدأ في الأندية والصالونات المغلقة التي تنظمها الأوساط الغنية، لا أعرف كيف أزاح شيوخا معروفين

من مساجدهم العامرة بمريديهم من مناطق معينة في القاهرة مثل مساجد الدقي الكبيرة، في التسعينيات بدأت تتعاظم شهرته، بعض الأوساط تتناوله بوصفه الصورة غير التقليدية للداعية، الصورة المحببة التي يبحث عنها الشباب، لم يعد أحد يرغب أن يجلس في درس على أرض المسجد مربعا ساقيه، بدأت الدروس الدينية تتقدم بهدوء إلى الصالونات الثقافية والمناطق التي يحضرها جمهور يرغب في الاستماع لقصيدة شعر، تدريجيا تكونت شعبية الشيخ حمزة أبو نور، تتناثر أقاويل أنه ربى أجيالًا كاملة من الشباب في منطقة الدقي، رباهم على حفظ القرآن بالموسيقى، لم يدْعُهم لهجرة عائلاتهم كما يفعل بعض الدعاة الآخرين، لم يدْعُهم لتكفير آبائهم وأمهاتهم، أو الشجار معهم من أجل تطويل الجلباب أو «الجيب»، كما لم يدْعُهم لتخليص القدس، أو زجهم في مواجهات مسلحة مع الشرطة، بل تركزت دعوته لمستمعيه على الاستمتاع بدنياهم، في رحاب القرآن.

أراحني كلامه الذي سمعته في الحلقة، وأربكتني سمعته الطيبة، حيث لمن له هذه السيرة، أن يكوِّن فِرقًا لخطف القبطيات، انتظرت حتى انتهى الدرس، وتقدمت منه في تردد وخوف، كان برفقته عدد من صحابته، يطوفون حوله، كأنهم يحلبون بركاته، شعرت بالضيق واليأس، كيف أفاتحه أن يضمني إلى فرقته؟ لا أتذكر مغزى هدفي في هذه الأثناء، أظنني كنت أرغب في الالتحاق بعمل أفضل من تحفيظ القرآن لأبناء الفقراء الذين لا يدفعون شيئًا، تقدمت منه في حسم، وناديته في خفوت وقلق: شيخ حمزة.

التفت إليَّ بوجه متهلل، أبيض ناصع ككرة من اللؤلؤة البيضاء،

شعرت بالحبور والجرأة، مدّ لي يده يصافحني في ترحاب قائلا ببسمة صافية: أهلا أهلا.. إزيك؟

باغتني ترحابه، وشجعني في نفس الوقت، قلت مرتبكا وأنا أتصفح وجوه رفاقه الذين كانوا تقريبا يشبه بعضهم بعضا: قامات ممشوقة، وجلاليب بيضاء قصيرة، لحاهم طويلة ممتدة، وزبيبة الصلاة محفورة في جباههم كأنها قطع متدرنة من الجلد ستسقط من تلقاء نفسها، قلت في خفوت وكفي في كفه. الشيخ عبد الرشيد يقرئك السلام يا شيخنا.. وأنا... أنا نفسي أحلّ محله.

انقبض فجأة الوجه الملائكي الصافي الذي يشبه كرة اللؤلؤة، لم أكن أظن أن بمقدوري إفساد بياضه المتلألئ، تدحرجت نظرات متوترة من صحابته إليّ، وتقدم أحدهم مني وربت على كتفي في حزم وهو يقول بملامح ممتقعة وأعين جاحظة صارمة النظرات: عبد الرشيد مين.. أنت منين يا شيخ؟

هتف فيه الشيخ حمزة قائلا بسرعة: أبو صالح.

فتراجع الرجل، وعاد إلى موضع وقفته الأولى، كأنه انكمش وشعر بالندم جراء تصرفه المباغت تجاهي دون إذن الشيخ، ابتسم الأخير، وقال لي: وأنت بقى.. الصخرة ما موتتش أهلك؟

٢

ستجدني دائما في كل مشهد.. وفي كل صورة.. وفي كل حدث.

أنا الواقف هناك في ميدان التحرير بعد سقوط الطاغوت أهتف

في حماس مع إخوتي: الله وحده أسقط النظام.. كان الشباب يعانقون الفتيات السافرات ويهتفون: ارفع راسك فوق أنت مصري.. حدقتهم بنظرات كلها غل وشهوة، وأنا أعاود الهتاف: الله وحده أسقط النظام.

ستجدني أيضا قبلها بأعوام أقف في العباسية أمام الكاتدرائية أطالب باسترداد أختي كاميليا.

أنا المقبوض عليه في بعض الأحداث الطائفية بتهمة حض البعض على ارتكاب أعمال تهدد السلم العام.

أنا الذي لم تمتد إليه يد الدولة أبدا بطعام.. أو بطبطبة.. بل امتدت إليّ تكهربني وتصعقني وتجلدني وتسقيني بولي وتطعمني برازي، فامتدت يدي عليها وعلى رجالها.

أنا هناك.. وهنا.. وفي كل مكان.. في كل ركن.

في بداية التحاقي بفِرق الشيخ حمزة السرية، هالني ما يرتكبونه، وشعرت أنني أخيرا وجدت مكاني، تمتد أيديهم على فتيات النصارى القاصرات، في كل حي هناك فتاة مرصودة، في كل مدينة هناك شيخ ينتظر غنيمته بفارغ الصبر، لأنه بمجرد أن ينجح في إقناع إحداهن بالدخول في الإسلام، ينال تقديرا وتكريما هائلين، وسط الحي، ووسط الجماعة السلفية التي ينتمي إليها، وكذلك يتم استدعاؤه في المناظرات الدولية التي يتم عقدها في مؤتمرات حوارات الأديان المزعومة، سفريات هائلة يحظى بها الشيخ الذي يستطيع إقناع أكبر كم من القاصرات النصارى المختطفات باعتناق الإسلام، سفريات وبدلات دعوة، وتكريم مستمر في معظم مؤتمرات الدعوة خارج

وداخل البلد، ويوضع اسمه باستمرار في قوائم الجامعات الإسلامية العربية والإندونيسية والماليزية المعنية بالدعوة وتقريب النظر بين الأديان، وفي عنوان آخر باطني غير ظاهر مقاومة التنصير والإلحاد، هذا بالإضافة طبعا لكونه المحاضر الدائم في كل مساجد الجمعيات الشرعية، وتتدفق الأموال لدعمه في هذه الجمعيات، وتقوية شوكته، وشوكة أتباعه، وتنهال عليه عروض عمل شرائط كاسيت الدعوة، ومن بعدها سي ديهات الوعظ، وأخيرا يصبح اسمه ضمن قائمة الشيوخ الذين يتم استضافتهم في القنوات الدينية ليتحدث فيها عن سماحة الإسلام وتقبُّله الآخر.

أما الفتيات القاصرات.. فيتم الضغط عليهن دون المساس بهن، يحبسن أولا في حجرة مهجورة في بيت الشيخ، تطعمها زوجاتهم طعاما جافا قميئًا بكميات قليلة، وهن يعايرنها بدينها، كلي يا نصرانية خسارة فيكِ العيش المعفن.. فراخنا أولى بيه منك يا نجسة.. كلي ويا رب تموتي من الجوع خسارة فيكِ شربة الميه.. مش هتدوقي النعمة الطيبة إلا لما تنضفي من دنسك.

تُحبس البنت أشهرا في الحجرة، تقريبا يسمح لها بالاستحمام كل بضعة أيام، بعضهن تساقط شعرهن من الجفاف، فارتدين إيشاربات بالية ليغطين بها رءوسهن التي أصابتها تقرحات الهرش والفراغات البشعة في رءوسهن، يرضخن في النهاية للخروج من الحجرة إلى المشيخة أملا في التخلص من الظروف القاسية التي يعانين تحت وطأتها، يخرجن ذاهلات الأعين، ملتفحات بعباءات سوداء تغطي أجسادهن، وتحجبهن عن المارة أو أية أعين متطفلة قد تتعرف

عليهن، لم يكن يعنيني من أمرهن شيئا، كنت أرنو بحسد إلى هؤلاء الشيوخ الدعاة الذين لا يمارسون جهدا حقيقيا في إقناع المختطفات بالدخول في الإسلام، ظننت أن بوسعي الانتقال من فريق الخاطفين، إلى خانة هؤلاء الدعاة، الذين ينتظمون في طوابير السفر المستمرة للمحظوظين من الدعاة والشيوخ والوعاظ، طلبت ذلك مباشرة من «أبو صالح»، فحدجني بنظرة مستنكرة، كأنني سببته، ثم قال متجهما: كلٌّ ميسر لما خلق له يا زهران.. الشيوخ دول بنصرف عليهم آلاف ليتحصلوا العلم الذي يستطيعون به إقناع الضالات بالدخول في الإسلام.. أما أنت.. فاعذرني يعني.. من السفلة.. أقصد سفلة الناس الذين لم يتعلموا، وفاتت فرص تعليمهم.

هكذا قالها بكل جرأة.. أنا من السفلة.. انحطاطي يقف حائلا بيني وبين هذه الترقية، فظللت من ضمن كتيبة الخاطفين، مجرد ملاك من ملائكة الهداية الذين يحملون اسما كوديا ناعما بدلا من وصف كتيبة الخاطفين.

ملاك الهداية يتنقل في السكن في المناطق المتعادلة، التي يحيا فيها الأقباط بنسب معقولة مع المسلمين، لا تطغى أعداد أي فريق على الآخر، يتم زرعنا وسط المنطقة باستمرار عن طريق أحد المقربين من فِرق الشيخ حمزة، له أتباع في كل منطقة تقريبا، في فيصل والهرم، في الدويقة والمنشية، في الحيتية وفي مثلث ماسبيرو، وفي عزبة جبريل بفيصل وفي إمبابة وفي العامرية بالإسكندرية، في كل مكان من هذه الأماكن هناك عدد من المعاونين لملاك الهداية، الرجل الموكول إليه خطف الفتاة القبطية، التي

يجب أن تكون قاصرًا، أو عذراء، قمة الإذلال يلحق بالأسرة التي تفقد ابنتها القاصر، البكر، التي ليست على عهدة زوج نصراني، قمة الإذلال والهزيمة وكسرة النفس تلحق بأم وأب هذه الفتاة، وقمة العار تطارد أشقاءها ـ لو لها أشقاء ـ في حياتهم الاجتماعية، في مدارسهم، أو كلياتهم، أو بين عائلات أصهارهم، تدمير كبير يصيب كل المتصلين بها، لذلك كان التركيز دائما ينحصر على الفتيات القاصرات، يا حبذا لو كانت ابنة عائلة ميسورة الحال، يتضاعف إذلال أسرتها، ويطفشون بأسرع ما يمكنهم من البلد، أو ينشرون ألمهم في أكبر محيط ممكن حولهم.

قد تستعصي الوسائل التقليدية على الفتاة التي عليها العين، الوسائل التقليدية التي أتبعها دائما هي خطف الفتاة، وتسليمها إلى بعض بيوت الفقراء والغلابة في قرى ونجوع بعيدة، منها قرية بشتيل لعبة، التي تقع تحت سيطرة شيوخ السلفية والبلطجية، لا أستغرق كثيرا في خطف الفتاة، الصعوبات التي أواجهها كثيرا أن الفتاة دائما ما تخرج برفقة أحدهم؛ شقيقها، أو والدها، أو أمها، هذه الصعوبات تجعلني أرسل لـ«أبو صالح» مساعد الشيخ حمزة، والمسئول عن ملائكة الهداية، فيهاتف أحدهم في المنطقة ليتدخل في معاونتي؛ صيدلي وسيم، أو بائع فول في مطعم، أو أي شخص يعرف الجماعة ويعرفونه ويثقون به، الصيدلي الوسيم قد يطلب استدراج الفتاة وحدها إلى منطقة ما، يغويها بمعسول كلامه ووسامته، أحيانا كثيرة تفشل هذه الوسائل، فنضطر لهؤلاء الذين يترددون على البيت باستمرار، مثل مكوجي الشارع، الذي يتردد على البيت، أحدهم بإمكانه أن يشغل مرافق الفتاة، حتى أتسلل

وأستدرجها إلى أقرب توك توك أو تاكسي، دائما ما نجد طريقة، وفي حالة دميانة، كان الأمر صعبا، فهي تسكن في عشة، لا يتردد عليها أي بائعين أو أرباب حرف ما، وفوق ذلك يحبها ولد مغنواتي، وشقيقه بلطجي.

كنت قد انتقلت إلى مثلث ماسبيرو بتكليف من أبو صالح، قال لي إن المنطقة يسكنها بعض النصارى، كان يرغب في خطف قبطيات فقيرات نظرا لأن بعض المخطوفات في الفترة الأخيرة لم يستسلمن بسهولة للشيوخ الذين حاولوا معهن، قرر أبو صالح التركيز على الفتيات الضعيفات الفقيرات، لعل الفقر يرهبهن، أنفسهن مكسورة فعلا بسبب العوز، فلن يسببن مشكلة كبيرة عند إرغامهن على الإسلام، المهم الذهاب بهن إلى المشيخة، وإصدار شهادة اعتناق الإسلام دون جلبة أو ضجة، ودون الاضطرار للفت نظر الأمن، أمن الدولة لا يتحرك إلا إذا تحركت الكنيسة، والكنيسة لا تتحرك إلا إذا أهل وذوو الفتاة تحركوا، وأثاروا جلبة، ووصلوا إلى الإعلام، والقبطيات الفقيرات لن تتحرك من أجلهن الكنيسة، ولن تثار من أجلهن الجلبة، هذا ما حدث في بعض حالات الفتيات المختطفات.

كانت المعضلة في حالة دميانة ذلك الشاب الغرّ الذي يراقبها باستمرار. في البداية فكرت في أن أصرف نظري عن دميانة وأبحث عن غيرها لا يكون لديها هذه العلة؛ علة تعلقها بشاب يلتصق بها تقريبا في ذهابها ومجيئها وقد يتدخل لحمايتها ويفسد العملية ويكشفني، وربما تقع مواجهة غير مطلوبة قد تلفت إليّ الأنظار،

خش نضيف واخرج نضيف، هذه كانت قاعدة أبو صالح، كان يجمعنا في مسجد الجمعية الشرعية بالجيزة، وأحيانا كان يجمعنا في مسجد الجمعية الشرعية ببولاق الدكرور، نتحلق حوله نحن ملائكة الهداية، أتفحص وجوه باقي زملائي، لديهم نفس الصفات التي أتصف بها، كأننا قوالب مصبوبة من نسخة شيطانية واحدة، أستطيع أن أخمن أن لهؤلاء جميعا نفس معاناتي الثلاثية: اللقمة والكسوة والسقف، جميعنا نبحث عن السقف.

يقول أبو صالح وهو يجلس مربعا ساقيه أسفل جسده: لا تلفت إليك أنظار ذوي الفتاة.. لا نريد أن نترك وراءنا أثر.. ابحث دائما عن بنت مغلوبة على أمرها.. عائلتها ناقصة ضلع. أب متوفً.. أم معيلة.. لا تتورطوا مع فتيات قويات الشخصية.. لا نريد عنادا.. ولا نريد فتيات بأسهن شديد.. نبحث عن بنات هزمتهن الدنيا.. خرجن مغلوبات من صراع منهك ضارٍ.. نبحث عن قاصرات يستجبن لأول صفعة.. لا نريد فتيات شرسات.. احرصوا على انتقاء الضعيفات المقهورات.

انتهت وصايا أبو صالح، لذلك كدت أن أنصرف عن متابعتي لدميانة، ثم كانت الخطة، حينما فكرت في الاستعانة بالبلطجي نيلو شقيق جوجو، منحرف يبيع نفسه من أجل سرنجة، ويستطيع أن يقاتل في بأس المرتزقة إذا ضمن جوانًا. بدأت أرسم الخطة، حصلت أولا على صباع حشيش، ولففته بضعة جوانات، ثم وقفت أمامه بالتوك توك، نظر لي في ريبة ولا مبالاة، قلت في خفوت وأنا أرمق المكان بنظرات حذرة: يا معلم نيلو.. أخبار المزاج إيه النهارده؟

٣

انتقلت دميانة إلى ثلاثة بيوت، أقامت في أحدها عند أحد شيوخ السلفية في قرية بشتيل لعبة شهرًا كاملًا، كنت قد انتظرتها أثناء خروجها من الحارة في المثلث نهارا وليلة قبل أن أنفذ العملية في الصباح الباكر من النهار التالي، اصطحب نيلو السائق دلدول خارج المنطقة، كنا قد حددنا يوم التنفيذ بعدما ذهب جوجو ليقضي أياما في منطقة بين السرايات حسبما كشف لي شقيقه نيلو الذي حدد موعد التنفيذ، قال لي وهو يسحب أنفاس جوانات الحشيش التي أوفرها له: قدامه يومين ويرجع.. يعني يا إما تنفذ النهارده.. أو بكرة عشان تكون في الضمان.

قلت له بينما ألف جوانًا آخر، وأقربه منه: يبقى بكرة الصبح.. بس نضمن إزاي خروج البنت من بيت عم يوسف شفيق.

نظر لي باستنكار، ولوح بكفه التي تنتهي بأصابعه النحيلة ذات الأظافر القذرة: ماليش فيه يابااا.. أنا عليَّ إني أسحب لك دلدول بره المنطقة.. البت هتبقى قاعدة لوحدها.. وأبوها في الورشة.. تخش تجرها من العشة.. تنده عليها تخرج لك.. تستناها لما تقضي مصلحة.. ماليش فيه.. اتصرف.

حدث وتصرفت، غادر نيلو ودلدول المنطقة مبكرا، لحظات وغادر والد الفتاة إلى ورشته ناحية الوكالة، انتظرت دقائق، ورمقت باب العشة، بالداخل تجلس دميانة تنتظر أباها، وربما لا تزال

نائمة في هذه الساعة من النهار، ذهبت تجاه التوك توك، وأدرته، واتصلت بالشيخ أبو صالح، رد عليّ بصوت ناعس، فقلت بصوت خافت حذر: صباح الفل يا شيخنا.. لا مؤاخذة.. محتاج مساعدة الإخوة.. في ميدان عبد المنعم رياض.. أنا هجيب البنت دلوقتي.. بس خايف تقاومني.. محتاج مساعدتك.

ظل صامتا قليلا، ثم أجابني في حزم. قدامك قد إيه؟

قلت مترددا وأنا أرمق مدخل الحارة: نصف ساعة.

قال: خليها ساعة.. هبعت لك شابين.. هيساعدوك.

نفذت ما طلب، ثم تحركت بعد ساعة، مرقت بالتوك توك داخل الحارة، تفحصت المنطقة بنظرات قلقة، كانت الشمس ساطعة كأنها تنتظر عودتي بالبنت، شعرت بالتوتر، لم تكن المرة الأولى التي أفعلها.. ماذا دهاني؟ لماذا أنا خائف؟ في الحقيقة كل مرة ترتعش أعضائي أثناء تنفيذ تلك العمليات.. إنها سرقة روح.. القتل أهون من خطف بني آدم.. المقتول أهله يعرفون طريقه ومصيره ويفوزون بنعمة التطلع في وجهه لدقائق أو ساعات أخيرة.. المخطوف مجهول.. يظل مصيره يكوي قلب أحبائه.. يتمسكون بشعرات من الأمل، عله يعود.. علهم يسمعون صوته يوما ما، المقتول مصيره أريح من المخطوف، تجول هذه الأفكار بخاطري وأنا لا أعرف أنني سألقى مصير القتلى بعد سنوات.

توقفت بالتوك توك أمام باب عشة عم يوسف شفيق صحت بصوتي الأجش الذي خرج متحشرجا مرتعشا من حنجرتي: دميانة.. أخت دميانة.

فتحت باب العشة، ورمقتني بنظرة حيرة، كانت ترتدي جلبابا فقد لونه، حوافه مهترئة اصطبغت بلون تراب الحارة وتقف حافية على العتبة، قلت في ثبات متحكما في انفعالي، وارتعاشة ملامحي وصوتي: أبوكِ يا أخت.. بعافية شوية.. وقع في الورشة.. الناس الطيبين بعتوني عشان أقولك.. تعالي أوديكِ.

بُهتت وتسمرت على عتبة العشة من المفاجأة، كادت أن تقول شيئا، ثم سكتت، ثم قذفتني بالسؤال الذي لم أتوقعه: طب ماجبتهوش معاك ليه؟

تسمرت من المفاجأة، ثم استرددت رباطة جأشي، قائلا: الناس هناك بيفكروا يودوه مستشفى.. والتوك توك مش هيساعه.

لم يبد عليها الاقتناع، قالت: طيب طيب.. ألف شكر.. روح أنت.. أنا عارفة الطريق.

شعرت بغيظ مكتوم، ظللت محتفظا بملامح جامدة، مع ثقتي أنها لمحت شيئا في عينيّ، قلت في سرعة قبل أن تغلق باب العشة في وجهي. بخاطرك.. أنا قلت أساعد.

غادرت وأنا أشعر باستياء وهزيمة، «غلبتني الجارية»؛ قلت في نفسي، قدت التوك توك حتى أطراف الحارة، ووقفت أراقب عشتها، غادرتها في سرعة بعد قليل، متجهة نحوي، تلفت حولي في قلق وعصبية، الخطة ستفشل، اللعنة عليك يا جارية، تحركت بالتوك توك عائدا إلى الحارة الضيقة، نظرت إلى أعلى، كنا لا نزال في الصباح الباكر، الشمس ساطعة كأنها تحدق فينا، قطعت طريقها موقفا التوك توك قبالتها في حدة، جذبتها في عنف داخله، كادت أن

تصرخ فلكمتها في عنف وغضب وعصبية، كتمت اللكمة صرخة كادت تنطلق من جوفها، سقطت مغشية على روحها متكومة في التوك توك وساقاها تتدليان خارجه على الأسفلت، قفزت في سرعة من خلف المقود، ودفعتها في سرعة وأنا أتلفت حولي، غمغمت في قلق وأنا أسندها: سبحانك اللهم إني كنت من الظالمين.. استر يا رب.. استر

ثم وثبت عائدا إلى مقعد السائق، وانطلقت بالتوك توك خارجا من الحارة مغادرا المثلث إلى الأبد، في ميدان عبد المنعم رياض وقف معاونا الشيخ أبو صالح ينتظراني في سأم وضجر، ظهرت بغتة وعبرت الميدان متجها نحوهما وأنا أتنفس في ارتياح، وثبا إلى التوك توك بمجرد أن أوقفته بجانبهما، وصاح أحدهما في جزل حينما رأى دميانة فاقدة وعيها ويترنح جسدها في استسلام: بارك الله فيك يا أخ زهران.. الجارية صبوحة.. عسى الله أن يجعلها من المؤمنات القانتات.. العابدات.

كدت أطلق شخرة، لكنني كتمتها وأنا أمسح عرقي، وأعاود الانطلاق إلى بيت الشيخ متعب في بشتيل لعبة، كان الطريق طويلًا، ومن الصعب أن نشقه بفتاة فاقدة وعيها، أخرج أحد الرجلين طرحة بيضاء، ولفها حول رقبة دميانة وشعرها، وثبَّتها بدبوس مشبك كان بحوزته، مسح من على شفتيها خيط دم، قائلا في استنكار: هي قاوحت؟

لم أرد، كنت أفكر أي طريق أسلك، إذا سرت من على الكورنيش، إلى كوبري قصر النيل، ثم إلى الجيزة، عبر شارع مراد، سنصادف

ألف عسكري أو ضابط مرور في لجان، ماذا نفعل، ما العمل؟ ظللت صامتا، سارحا في الهم المقبل، فجأة قطع أحدهما حبل أفكاري، قائلا: أنت ماشي إزاي يا شيخ زهران؟ فيه عربية معانا مستنية عند الوكالة.. ناحية بولاق أبو العلا.

زفرت في حدة وأنا أقول: ما تقولوا يا اخوانا طيب.. قولوا.

قال أحدهم: ما إحنا بنكلمك وأنت سرحان.

شعرت بقرب تخلصي من المصيبة، انحرفت بالتوك توك عائدا في طريق الكورنيش، مررنا مرة أخرى على الميدان، ألقيت نظرة سريعة مضطربة على منطقة المثلث، مضيت إلى النقطة التي أشارا إليها، وتوقفنا بجوار عربة بيجو كبيرة، كتب عليها بحروف زرقاء داكنة: «سيارة تكريم الإنسان ـ الجمعية الشرعية ببشتيل».

لم تكن هذه المهمة الأخيرة في خطف القاصرات، مارست عمليات أخرى في مناطق شعبية كثيرة، ظللت على هذا المنوال حتى يناير ٢٠١١، سارت العمليات كلها في سلام، لكن المستجدات فرضت نفسها في هذا الشهر، بمجرد اندلاع الثورة توقفت عمليات ملائكة الدعوة، اجتمع بنا الشيخ حمزة في مسجده بالدقي، بجواره جلس الأخ أبو صالح مثل التلميذ المفضل عند شيخه، قال حمزة بصوت خافت وقور وهو ينظر يمنة ويسرة في أرجاء المسجد: الوقت وقت عمل من نوع آخر.. لدينا أهداف جديدة.. جاءتنا فرصة من عند الله لتغيير المجتمع.. المجتمع ليس كله أقباطًا، هناك أقباط وملاحدة ومهتدون ينقصهم الرشاد والتوعية والتذكرة، ومؤمنون غافلون، ومؤمنون صار

الدين عندهم عادة وليس غاية، تحرك الناس ضد الطاغوت، ولا أحد يعلم ما ستسفر عنه الأمور، لكننا بحاجة لتغيير أنفسنا حتى يغيّر الله ما بنا، إذا توقفت الأحداث، سنواصل الجهاد لتطهير المجتمع وتهيئته، لاحظوا أن هناك فرصة للعلمانيين والملاحدة وأهل الذمة أن يسرقوا أمتنا منا، ويجنحوا بها في منعطفات لا يرضى عنها الله ورسوله، هم يناضلون ضد الطاغوت، وقد.. أقول قد.. قد ينجحون في تغيير هذا الواقع الظالم.. هنا تأتي فرصتنا للوثوب فوق الواقع الجديد.. لا تلقوا بأيديكم للتهلكة.. واللهم اضرب الظالمين بالظالمين.. وأخرجنا منهم سالمين.. أي أن ننتظر ماذا ستسفر عنه الأيام القادمة.. إذا انتصر هؤلاء الضالون.. أقصد هؤلاء الذين تحركوا دون رفع آيات الله فوق رءوسهم.. إذا انتصروا.. فهذا لا يعني أن الله يؤيدهم أو وكّلهم وأورثهم أرضه.. بل يعني أن نصف الدعاء فقط هو الذي تحقق.. اضرب الظالمين بالظالمين.. سننتظر سنهجع الآن، ونرى ماذا سيحدث في الغد.. وفي الوقت المناسب.. أقول الوقت المناسب.. نتحرك.

٤

أين كان الشيخ حمزة أبو نور ساعة الثورة؟

السؤال الذي بت أتلقاه أكثر من ألف مرة بعدما أعلن الشيخ نيته الترشح لرئاسة الجمهورية، كنا نجيب عن السؤال بصبر وثبات، وابتسامة واثقة كما علمنا أبو صالح.. لكي تحاجّوا أعداء

الدين.. يجب أن تظهروا لهم ثباتكم وصبركم على إفكهم.. اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله.

هكذا كنا نفعل، لقاءات في طول البلاد وعرضها، كنا ننزل البلد قبل مجيء الشيخ، ننشر البوسترات والبانرات التي تحمل صورته، ببسمته المبتهجة الواسعة، ولحيته المحددة التي تمثل التيمة الرئيسية لوسامة وجهه، كنا نتلقى بجانب هذا السؤال سؤالًا آخر هل الشيخ حمزة إخوان؟ وهل ستدعمه جماعة الإخوان المسلمين؟

أجيب عن السؤال بصدر حانق ووجه باسم، أمري كان عجيبًا، لكنني أتقنت الدور: يا إخوتي.. اليوم لا يجب أن تتداعى أرواحنا وعقولنا حول البحث عن هذه الأسئلة.. إنها أسئلة الشتات وليس التوحد.. امنحوا أنفسكم الأمل؛ لذلك يجب علينا أن نعمل من أجل تحقيق هذا الهدف.. انتظروا هذا الوعد.

التصقت العبارة بحملة الشيخ حمزة، بدا سعيدا به، قربني منه، وسألني. كيف ابتكرت هذه الجملة الرائعة؟ أين سمعتها؟

نظرت إليه متأملا بسمته ووجهه الناصع الذي اتسعت أساريره مبتهجا بي، قلت في زهو: جاءتني كَسَهم وحي يا مولانا.. كأن الله سبحانه وتعالى ألهمني أن أقولها.

جلس إلى مقعده، وقال في سرور وبهجة: سأكتب العبارتين على جميع لافتاتي الدعائية.. امنحوا أنفسكم الأمل.. انتظروا هذا الوعد.

قطع حديثنا همهمة، التفت في سرعة دون حذر، كانت سيدة

منتقبة تختفي ملامحها خلف النقاب، لم يبالِ الشيخ بي، ولم يأمرني بالانصراف، التفت إليها قائلا في سرور: أهلا يا شفق.. جيتي في وقتك.. إيه رأيك في الشعارات دي.. هنعممها في الحملة؟

صمتت السيدة المنتقبة ولم ترد، كنا كلنا نعرفها، ونسمع عنها، أمرها لم يكن سرا، مسيحية أسلمت على يد الشيخ، وطلبت أن يتزوجها، فضمها إلى عائلته، ليس هذا المهم، السر الأكبر الذي نتداوله في تكتم، ولم يصارحنا به الشيخ، هو علاقة هذه السيدة بالممتلكات التي يشتريها في منطقة بين السرايات، أفضل البيوت المطلة على الشارع الرئيسي المواجه للجامعة صارت ملكا للشيخ حمزة، همسٌ في فيلا الشيخ في كرداسة أن السيدة تمتلك حججا قديمة، أو أوراقًا تثبت ملكيتها للمنطقة فيما سبق، قبل أن تأخذ شكلها الحالي، لا نعرف حقيقة الموقف، كل ما نعرفه أن السيدة أمرها غامض، سليلة أسرة عريقة، وأنها تتمتع بصلاحيات لم يمنحها الشيخ لباقي حريمه، منها مثلا أن تطلع على أسرار الفتيات المسيحيات اللواتي خطفناهن في السابق، قبل الثورة، تزورهن، وتحاول إقناعهن باعتناق الإسلام، الشيخ أبو صالح هز رأسه في زهو منتشيا بذكاء أستاذه حمزة وهو يقول: طبعا الشيخ له حكمة في هذا الأمر.. إذا كانت جارية نصرانية أشهرت إسلامها هي من تسعى لإقناع الجواري القاصرات باعتناق الإسلام، تأثيرها سيكون أقوى من تأثير أتخن تخين من شيوخنا المتعلمين اللي بيحضروا مؤتمرات حوارات الأديان.

لم أعترض، ولم أؤيد، ظللت صامتا مثل باقي ملائكة الدعوة، لم

نعد نحمل هذا الاسم، كان يجب أن ننهي هذا النشاط إلى الأبد بعد تقلب الأحداث في البلاد، صرنا نوجه جهودنا لأشياء أخرى، لحشد الأنصار للشيخ حمزة في كل قرية، وندق أبواب العباد طلبا للدعم، نجحنا في تكوين أرضية خصبة للشيخ في مدن لم يطأها من قبل، تنال منا الأعين الحقودة، الحاسدة، الأحزاب المدنية المنحطة، العلمانيون الفاسدون يرمقوننا في غل، وحقد، ويهاجمنا البعض، ويصفوننا أننا بداية لما يسمونه بالميليشيات.. نحن ميليشيات؟ ما معنى ذلك؟ لم أفهم.

كانوا يحذرون الناس منا، يظهرون في التلفزيون ويقولون. هل ترون؟ رفاق «حمزة أبو نور» هم نواة ما سنقع فيه إذا حكَمَنا الإسلاميون.. الميليشيات.. الكتل غير القانونية التي تحمل السلاح، وترغب في تأديب المجتمع، هؤلاء هم جماعة الأمر بالمعروف.. هؤلاء هم الثيوقراطيون الجدد.. احذروهم.. إذا لم نتنبه.. ستتحول ثورة يناير إلى نسخة كابوسية من ثورة الخميني.

لم أفهم كل ما كان يقال، تبرع أبو صالح بالشرح، قال بحزم: دعهم يتحدثون.. دعهم يحذرون الناس منا.. إنهم يا صديقي يجعلون من الفقاعة هيكلا حديديا راسخا.. كلما حذروا الناس منك.. أحبك الناس.. فالناس تعبد القوي.. وتكره الضعيف المستكين الذي يقضي عمره في الصراخ والتحذير.

سألته بغتة: ما معنى ثيوقراطيين؟

هز أبو صالح رأسه في حيرة: لا أعرف.. هذه مصطلحات معقدة.. أسماء سميتموها.. لا تعبأ.. كلما قالوا ثيوقراطيين.. ازدادوا بعدا

عن الناس الغلابة.. الناس الغلابة الذين سيحبوننا.. وسينتخبوننا.. لأنهم ببساطة مثلنا لا يعرفون ما معنى ثيوقراطيين بل يعرفوننا حينما نمد إليهم يد المساعدة في شدائدهم، حينما نقف بجوارهم وقت الملمات، فنحضر الأكفان، والمغسلاتية وعربات تكريم الإنسان، ونتكفل بمصاريف الموت الباهظة، وقتها يتذكروننا، ثم بعد ذلك.. لن نلعب هذه اللعبة.. سنقيم دولة الخلافة.. بإذن الله.

كيف تدخل الحجرة ولا ترى فيها الفيل؟ أحدهم ردد هذه المقولة أمامي ولم أفهمها، لكن ما حدث بعد ذلك فسرها لي، أي دولة خلافة يرتدي فيها شيخنا البدلة والكرافتة بعدما هجر الملابس الإسلامية؟! لم أستنكر هيئته، بالعكس، اعتبرته مثلي، صادقًا مع نفسه، هذه هي هيئته الحقيقية التي يحب أن يظهر بها، وكان يضمرها أسفل الجلباب والطاقية، هذا هو جلده الحقيقي، يتنقل، يعقد اللقاءات، يظهر متماسكا، محاورا، مناورا، من خلفه نعمل كخلية نحل، ننشر لقاءاته التلفزيونية على اليوتيوب، لأول مرة أجلس أمام شاشة كمبيوتر، أتحسسها كأن شيطانًا سيطل منها، لكن الشيخ حمزة هو الذي كان دائما يتصدرها، ويطل منها، لم أتخيل أن أبتعد تماما عن العمل في الشارع، أن أقبع خلف الشاشات، نحادث الآلاف، نكتب عشرات الآلاف من التعليقات على الشيخ حمزة، كنا آلته الإعلامية الضخمة، على الأرض، وخلف الشاشات، أسطورة تتكون الآن، وخلف هذه الأسطورة، يجلس مئات الرجال، هنا في فيلا الشيخ في كرداسة، وفي بيوته العديدة التي صار يمتلكها الآن في بين السرايات، وفي أحياء أخرى لا نعلمها، الله ورسوله يعلمها، طلبة في الجامعة، وفي المدارس الثانوي، ربات بيوت، أخوات، صفحات عديدة بدأت

تنطلق بكثافة مثل نمل يزحف في أوديته العديدة، كنا نعمل في موقع «أزرق» تعرفت عليه تلك الأيام.. نسبوا له كل العجائب، وأرجعوا له القدرة الهائلة على دفع الصخرة الهائلة من فوق الجبل، تصورته منحدرا مخيفا، تصورته مثل جبل المقطم الذي تصدع وهوت صخرة منه فوق رءوس جيراني، كنت أسميه الموقع الأزرق، وكانوا يسمونه الشيطان الأقرع، هو الذي لدغ مبارك، ويجب أن نلعب اللعبة مرة أخرى، هكذا يقول الشيخ أبو صالح، ونحن ننفذ. حتى عندما أمرنا بأن نتوقف عن كل شيء، ونتراجع خطوات، ونكف عن الدعاية للشيخ، أطعناه، ونحن نتعجب، بعضنا أراد أن يصرخ، أو يحتج، فجأة انطفأت ماكينات الدعاية الانتخابية، ماذا حدث للشيخ حمزة؟ هل أجبره أحدهم على الانسحاب؟

٥

لم نجتمع لأيام، لم نلتق، كانت الصدمة تشملنا جميعا، ذهب بعضنا لمشاركة الإخوة المعتصمين أمام فيلا الشيخ في كرداسة لمطالبته بالعدول عن قراره بالانسحاب من سباق الترشح للانتخابات الرئاسية، تحولت المنطقة إلى مخيم اعتصام كبير، كانت هذه أول مواجهة مع الشيخ، الذي اختفى من المشهد، كنا مصدومين، وهو يرفض أن يخرج ليشفي غليلنا بكلمة، تناثرت الشائعات بيننا، تقدم إخوة منا لمقابلته، وعادوا خائبين، ورفضوا مواصلة المبيت أمام منزله، غادروا الاعتصام، خرج أبو صالح من فيلا الشيخ، ووقف على مقعد مرتفع أمام الشباب الذي قضى ثلاثة أيام في الشارع أمام

الفيلا، قال أبو صالح: الشيخ حمزة بعتني أقول لكم كلمة.. درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، سنواصل حلمنا بإقامة الخلافة، فقط سنساند من يحققونه، ويطبقون الشريعة، سيقف الشيخ بجوار أحد المرشحين الثلاثة المحسوبين على الصف الإسلامي، وأخيرا الشيخ يبلغكم أنه لم يتعرض لأي ضغوط.. تذكروا هذا وثقوا بشيوخكم.

نكوص الشيخ أثار داخلنا الشكوك وأربكنا، اهتزاز كبير شق صفوفنا، لكننا لم نقدر على البوح بها، كتمناها، حتى بعدما أطلق الشيخ تصريحه المثير للسخرية.. لم أعلن أبدا نيتي للترشح.. أنا داعية وسأظل كذلك.

كنت أجلس في البيت الثالث الذي انتقلت إليه دميانة، كانت أحوالها قد ساءت، قررت الامتناع عن تناول الطعام منذ أشهر، جربوا معها كل الوسائل، إلى أن تدخلت شفق.. زوجة الشيخ النصرانية.. وأقنعتها بأن تتناول الطعام، بطريقة ما أقنعتها، نجحت النصرانية فيما فشل فيه الشيوخ، شعرت بالحيرة، لم يكن مسموحا لي أن أدخل عليها، لكنني كنت أرى شفق وهي تمر بمدخل البيت، متجهة إلى الحجرة التي تحتجز فيها دميانة مع رفيقاتها من القبطيات القاصرات، كن قد خضعن لهذه الحبسة منذ ثلاث سنوات الآن، لا يرغبن في اعتناق الإسلام، ولم يعد بإمكاننا إطلاق سراحهن، صار موقفهن معقدا، ولكن لم يعبأ أحد، لم يفكر أحد فيهم، كنا نفكر في أزمة الشيخ حمزة.

تمرق شفق بنقابها الأسود، تمر إلى حجرة دميانة في فيلا الشيخ

السلفي في بشتيل لعبة، تبدو كما لو كانت تعد مخططا، لم يعد في الإمكان أن أثير أي أزمة من هذا القبيل، لكن فضولي يزداد ويتعملق تجاه هذه المرأة، نصرانية في النهاية.. فكيف أثق فيها.. لكنها تتمتع بوضع وحماية الشيخ، الشيخ الذي خرج فجأة من اختفائه، حينما صار المرشح الإخواني رئيسا، تجاهل حمزة إعطاءنا تفسيرات لنكوصه عن خوض سباق الانتخابات، تظاهر أمامنا بالسعادة، وأن الأمر لا يعنيه، لكننا كنا نشعر بحنقه، وغيرته الشديدة.

أيام كنا نراه سعيدا، يصلي بنا الجمعة، ويخطب فينا خطبة حماسية شديدة التمسك بالأمل، يخطو ببطء بيننا بعد الصلاة، متلفعا بعباءته، وزنه ازداد، وسامته تتآكل، هل يأكل بنهم مستغلا انحسار الأضواء عنه، بدأ يفقد رشاقته، جسده يستدير تدريجيا، يميل للبدانة، خطواته تقل، وظهوره يكاد يخفت، لم يعد له دور الآن، الإخوان تصدروا المشهد، كنت أرمقه بإعجاب وأسأل نفسي: كيف يحافظ على نفسيته مزدهرة وسط سيل الإحباطات المتتالية!

بدأت مشكلات مرسي تتزايد، استعاد الشيخ حمزة بريقه في الظهور مجددا بصفته حامي الرئيس، ومناصره، لا أعرف علاقتنا بهذه المواجهة، الانتقادات كثرت على الرئيس، ازدادت حماقات جماعته حينما اندفع بعض شبابها الموتورين لمحاصرة الأحزاب، اعتصم الشباب الثائر في ميدان التحرير ضد حكم الإخوان، ظهر هتاف جديد.. يسقط يسقط حكم المرشد.. كان على وزن يسقط يسقط حكم العسكر، من الذي يخترع الكلمات؟ إنه الموقع الأزرق لا ريب.. الثعبان الأقرع، انتشرت في البلاد طولها وعرضها

موضة الحصارات.. أحدهم يدعو لحصار الأحزاب.. والآخر يدعو لحصار المحاكم.. الشيخ حمزة ابتكر دعوته هو أيضا.. دعا لحصار مدينة القنوات الإعلامية.. التي تسمى مدينة الإنتاج الإعلامي.. نفس القنوات التي ظهر على شاشاتها مرتديا بدلته وقميصه، الآن يدعو لحصارها مرتديا الجلباب.. اللبس لن يفرق.. الابتكار في الدعوة، وتنفيذها، ذهبنا.. الكل كان يحاصر الكل، كان هذا هو طابع هذه الأيام، كنا على مبعدة من أربعة أشهر من الانقلاب، من الطامة الكبرى التي غيرت مصيرنا جميعا، وشتّتنا، قبل أن تسحقنا.

لكن قبل ذلك كان هناك حساب قديم لم يتم تصفيته بعد، ثمن كان على جماعة الرئيس أن يسددوه للشيخ حمزة، لم أفهم شيئا من الشيخ نفسه، لكن الأقاويل تناثرت في معسكرنا.. لقد جرت نصف مؤامرة، نصف اتفاق، يرضخ الشيخ بإبعاده من الانتخابات الرئاسية، وتصب شعبيته الجارفة في كفة المرشح الإخواني، هل كانت هذه حقيقة، هل جرت الأمور هكذا؟ وكيف أسأل وقد أعطيت صوتي للمرشح الإخواني بناء على توجيهات الشيخ حمزة؟!

الكل كان يسأل في تكتم وخفوت، كنا نخاف الجهر بما يعتمل في صدورنا من شكوك، إلى أن كلفني الشيخ أبو صالح بالذهاب إلى صاحب مكتب صرافة في بين السرايات، قال لي إنه سيعطيني مبلغًا كبيرًا من المال، وأمسك رسغي بقبضة صارمة مضيفا: احترس وأنت جاي يا زهران.. هتبقى وقعتك ووقعتنا سودا لو الفلوس دي ضاعت أو اتاخدت منك.. تخفيها في نخاعك.

شعرت بالرهبة والقلق، ما أمر هذه الأموال؟ هذه حلقة تكمل سلسلة حلقات الحكاية الغامضة التي ترفض أن تكتمل.. مثل فتلة تنأى بنفسها أن تلج في سم الخياط، وإذا ولجت.. ترفض بعدها اللضم.

ذهبت إلى المنطقة، لم تكن المرة الأولى التي ألتقي فيها حسبو، ربما كانت المرة الثلاثين أو الأربعين، أول مرة كشفني الولد المطرب جوجو وتتبعني حتى كرداسة، مما اضطرني أن أضربه، وأربطه في بدروم فيلا الشيخ، لكن النصرانية هرّبته، كل مرة كان يستقبلني حسبو هاشًّا باشًّا، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا، عام ونصف مرّا على أول لقاء به، صرت مرسال الفلوس، أتلقى من حسبو أكياس النقود، وأجلبها للشيخ حمزة، استقبلني حسبو هذه المرة بوجه مكفهر، قلِق، جلست أمامه، فطلب لي كوب شاي وهو ساهم، دون أن يسألني مثل كل مرة، قلت له معتذرا: معلش مش باشربه.

فأرسل للولد القهوجي أن يسك على الطلب، دون أن يطلب لي شيئا آخر، شعرت بالحرج، لكنه لم يشعر به، بل مط شفتيه وتراجع بظهره في مقعده الجلدي، تأملت المكان كأنني أدخله للمرة الأولى، كان مكتب صرافة محدودًا، بجوار مكتب حسبو هناك كاونتر آخر بفاصل زجاجي، لا يجلس خلفه أحد، وهذا ما استغربته، خلف الفاصل الزجاجي لوحة بلاستيكية سوداء طويلة، تومض بها أرقام بأسعار العملات، وبجوارها على الحائط لوحة كبيرة معلقة على الحائط بصورة الدولار، ويعلوها لوحة للرئيس مرسي؛ من تلك

اللوحات التي كان يوزعها الإخوان إبان الحملة الانتخابية، تحت صورته عبارة «قوتنا في وحدتنا»، ودائرة حمراء محددة بخطوط سوداء تتوسطها كلمة «النهضة إرادة شعب»، ظللت صامتا، نقل هو نظراته القلقة إلى وجهي، كأنه يتفرس فيّ، ثم سألني بغتة: إزي الشيخ حمزة؟

كان يلقي السؤال غير مباليًا، كأنه يسألني عن الساعة، لكنني شعرت أن السؤال يضمر شيئا آخر، كأنه يريد أن يستدرجني إلى شيء ما، قلت في عفوية وأنا محاذر ما سأنطق به: بخير.. بخير الحمد لله.

مال نحوي متكئا براحتيه على سطح مكتبه قائلا في خفوت بصوت بدا لي مثل فحيح ثعبان: وإزي مدام شفق؟

نظرت إلى عينيه في حرص، كأنني أحاول أن أرى ما وراء سؤاله، فلم يحول نظراته عني، وواجهني بها في حسم وثبات وتحدٍّ، فقلت: بخير راخرة.

فقال: أهو ده السر اللي إحنا حفظناه للشيخ.. ومع ذلك هو بيطلب مقابل لمساعدتنا.. لو كنا مش طيبين.. مش إخوة.. مش كيان له نفس الهدف والغرض.. كنا أفشينا سره.. وسر المدام النصرانية اللي الشيخ بيشتري عشانها بيوت الحتة.

شعرت بالخطر قد يكون هذا فخا يقتادني إليه حسبو بالاتفاق مع أبو صالح ليعرف حقيقة نفسي تجاه الشيخ حمزة، قلت بينما أستجمع أفكاري وأحاول التركيز: أنا ماعرفش أي حاجة من اللي حضرتك بتقولها.. أنا هنا لمهمة محددة و...

قاطعني حسبو وهو يعود بظهره إلى مقعده ملوحا بكفه في استهانة وإشفاق: أنت خفت؟ ما تخافش.. إحنا إخوة.. وطيبين.. والشيخ حمزة متربي في بيت الإخوان.

ثم استدار إلى اليمين، وانحنى على خزانته الحديدية التي وضعها على الأرض، فتحها وأخرج ظرفا دسما، كبيرا ومستطيلا، لونه بني، ومغلقًا بإحكام بشرائط لاصقة، وموقَّع عليها باسمه حسبو، قال وهو يريني توقيعه على الشرائط اللاصقة التي تحكم غلق الظرف: عشان ما تضطرش تعد.. أنا قافل الظرف بتوقيعي.. والشيخ حمزة هيفتحه من قفلتي.. أقرئه السلام.. وقل له. الإخوان لن ينسوا له وقفته بجوارهم.. نتجاوز المحنة القادمة.. وسنكافئه مكافأة عظيمة.. لن ننساه.

أخذت الأموال دون أن أعقب، وغادرت المكتب، لم تكن هذه أول مرة، ركبت الميكروباص، ووصلت إلى موقف منشية البكاري، حيث ركبت عربة تنتظرني هناك، لتأخذني إلى فيلا الشيخ حمزة في طريق اللبيني، وأنا في العربة تذكرت أول مرة حينما طاردني جوجو، وقتها شعرت أن أحدهم يطاردني، مشاعر غريبة تولدها معايشتك للمخاطر باستمرار، يفرزها شيء في جسدك لا تدري كنهه، في عربة الميكروباص لمحت الولد المطرب.. يحاول استيقاف تاكسي، في البداية ظننتها صدفة، خفق قلبي بعنف، من دله عليّ؟ من كشف له علاقتي بخطف دميانة؟ ارتجت نفسي بالأسئلة في قلق، وأنا أحتضن ظرف النقود الذي وضعته في كيس أسود، اضطربت روحي، ثم قررت أن أرى ماذا سيفعل، لكنني اكتشفت أنه جاء في أثري فعلا، ما العمل، كيف أتخلص منه؟

عام ونصف مرًّا على مواجهتي لجوجو حينما ضربته على رأسه، وحبسته في قبو فيلا الشيخ، عام ونصف ازدادت فيهما كراهيتي لزوجته النصرانية التي هرّبت الولد المطرب، وبت مشغولا بتصرفاتها غريبة الأطوار، إنها لا تغادر الفيلا تقريبا، لكنها تعاطفت مع الولد، وهرّبته، حينما عاتبها الشيخ، قالت: ماقدرتش أستحمل أنام فوق.. وواحد بيموت من الجوع في البدروم.. إيه.. أنتم مجرمين؟ دينكم بيأمركم بكده؟ مش كفاية البنات الغلابة اللي بتحرقوا قلوب أهاليهم عليهم.

حنت النصرانية لدينها، حنت لأيام نجاستها وضلالها، كدت أقول ذلك، لكن الوقت لم يكن مناسبا، كنا على وشك أيام نحسات، الأمور لا تظهر خيرا في المستقبل، شباب موتور يجمع توقيعات لإقالة الرئيس، لهذا كانت الدفعة الأخيرة من الأموال التي حصلت عليها من حسبو ووصلتها إلى الشيخ حمزة، بدأنا نعمل في مجموعات: مجموعة تجمع توقيعات مماثلة لاستمرار الرئيس في سلطته، كان الأحباب الذين يوقعون الأوراق كثيرون، لكنهم لم يكونوا أكثر من هؤلاء الذين وقعوا الورقة الزرقاء.. ورقة زرقاء مكتوب عليها بالعربية تمرد، وبالإنجليزية كلمة أخرى لا أعرف معناها، شعرت أننا في مأزق، اجتمع بنا أبو صالح وقال في حزم: سنعلن أننا جمعنا خمسة عشر مليون توقيع لاستمرار الرئيس في منصبه؟

قلت في خفوت محاذرا من ردة فعله: وهل جمعنا هذا الرقم فعلا يا أبو صالح؟

نظر لي متنمرا كأنني طفل غر سكب الحليب على ملابسه: وهل جمعوا هم الأرقام التي يتحدثون عنها؟ هم يعلنون.. ونحن نعلن.. والحق معنا.

سكتّ، ولم أعقب، كان واثقا، صارما، محتدا وإن أخفى حدته، قال بعد فترة من التحديق في. وسنفعل الأكثر من ذلك.. إذا هدد هذا الحق شيء.. سوف نلجأ للخطة الاحتياطية.. المواجهة.

لم أسأله، تكفلت الأيام التالية بالكشف لي عن هذه الخطة الاحتياطية، خطة المواجهة، كل شيء يبدأ في بشتيل لعبة وينتهي، كل شيء هناك. المجاري الطافحة، الصرف الذي ينشر الأمراض في الجو وفي التربة، وبجانبه المعاهد الأزهرية التي يسيطر عليها الدعاة والوعّاظ الذين يحاولون تحويل الفتيات إلى الإسلام، ومحاولات التخويف المستمرة التي يمارسونها ضدهن، في بشتيل لعبة ستجد الوحدة الصحية الوحيدة التابعة للقرية وهي تعاني من العوز والفقر في معداتها، لمست ذلك حينما أوشك أحد الشيوخ ذات ليلة على الموت بعدما ابتلع شيئا قبل مجامعة زوجته، في بشتيل لعبة ستجد الكل يتظاهر أن لا خطر هناك، بينما الخطر ينمو، ويتنفس، ويزداد حكمه كفطر عفن يتمدد كل حين، ويستولي على أنسجة جديدة فيتلفها بعفنه، في بشتيل لعبة يعاني كل بيت من الفقر والعوز، وأهلها يلتزمون بالفروض الخمسة، طاعة مع ضنك، ويدفعون بأبنائهم إلى من يملأ عقولهم بأحاديث عن الجنة

والنار وتمجيد الآخرة وعذاب القبر، لا أحد يحدث الأطفال عن المستقبل، عن لهو، أو عن فرح، هناك كنا نودع الفتيات النصارى القاصرات في ذمة شيوخ متطرفين يسقون الناس كراهية النصارى في خطب الجمعة، يصفونهم بالأنجاس أعلى المنابر، وهناك أيضا كشف لي الشيخ أبو صالح عن ترسانة من الأسلحة يمتلكها الرفاق، وقفنا في بدروم أحد المنازل، كان يبدو مثل حجرة طرنش صرف صحي، وتم وقف استخدامه، براز أهل القرية يذهب إلى شوارعها، بينما يستخدم أبو صالح والشيخ حمزة حجرة الطرنش لتخزين السلاح، وقف أبو صالح وسط الحجرة المليئة حتى حيطانها بصناديق السلاح، وقف متباهيا، بينما وقفت أنا متجمدا محاولا كتمان دهشتي في فضول نظراتي، قال لي في زهو: خير الزاد.. التقوى.. بتعرف تضرب نار يا أخ زهران؟

جفلت، ثم انتبهت حينما طال تحديقه لي، قلت: على حسب نوع السلاح، ضربت نار في الجيش.

تقدم نحوي منتشيا وهو يرفع كفيه في وجهي كأنه يدعو الله: حلو.. ولاد حلال.. إحنا بقى عاوزينك تضرب نار يا حلو.. شفت بقى؟ بضاعتهم ردت إليهم.. اللي علموه للناس.. الناس هترجّعهولهم.

ارتجفت، ولكنني كنت ماضيا في الطريق، ومصمما عليه، السقف واللقمة والكسوة، قلت في خوف لم أستطع أن أخفيه: لكن سلاحهم تقيل.. وسلاحنا مهما كان.. هين.

امتقع وجهه، كأنه يسمع شيطانًا مريدًا، لوح بسبابته في وجهي

محذرا، وهو يقول في وعيد: حذار حذار يا أخ زهران.. حذار الضعف أو ثقل الهمة.. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.. طلقتك قنبلة ذرية نيتروجينية تمحقهم لأنها مؤيدة من الله.. ودانتهم بومبة لن تنفجر بإذن الله لأنها دانة الطغيان والأبالسة.

قلت مبتسما في ارتباك وأنا أحاول أن أحتويه: وعلى إيه نسبق الأحداث يا أبو صالح؟ إن شاء الله ربنا يخيب ظننا.

ضحك في استخفاف وهو يعقب: يخيب ظننا.. الأبالسة وتدبيرهم المبطن وضح خلاص يا زهران.. لقد توعدوا الأمة وأهانوا الرئيس.. خيبه الله.. لو كان الشيخ حمزة.. الأسد.. لكان افترسهم.. الحق لا بد له من قوة تحميه يا زهران.. هذه المرة لن نعود.. انكسرنا في المرات السابقة.. التاريخ يمتلئ سجله بهزائمنا أمام دولة الأبالسة.. الدولة التي لم تفقرنا فقط.. بل أباحت المنكرات والمعاصي وسير السافرات.. اسمعني.. الله خير الماكرين.. إنهم يتوعدوننا.. يظنون أن السلاح في أيديهم طالما الجيش في أيديهم.. الجيش ليس سلاحًا فقط.. الجيش بني آدمين مؤمنين صالحين.. وقت الجد سينفرون جميعا لنصرة الحق.. صدقني يا زهران.

قلت مستدركا: طب ما هو طالما كده.. إيه لازمته إننا نرفع السلاح على إخواتنا.. ولّا إيه يا أبو صالح؟

استند أبو صالح إلى أحد الصناديق، قائلا: كل الحروب ـ كلها ـ اندلعت لأسباب تافهة وليس لأسباب حقيقية، الهدف هو أن تكون هناك باستمرار حرب ما يا زهران، أنت أصل إيديك ناعمة

ما تفهمش في الاستراتيجية اللي تعلمناها على يد الشيخ حمزة. أنت فاكر إن التهديدات على مرسي.. أو على حكم مصر؟ الحرب مش على كرسي يا زهران.. مرسي مجرد سبب.. لا هو بنى جامع.. ولا حتى طبَّق الشريعة.. الغرض هو الحرب على الدين.. طمس الهوية الإسلامية من البلد.. إكراه الناس على كره العبادة.. وعلى كره المؤمنين. بكرة لو انتصروا علينا.. هيضطرونا لحلق ذقوننا يا زهران.. هيشدونا منها على معسكرات الاعتقال.. وهيسحلونا من وجوهنا بإشعال النار في لحيتنا.. ظنك غرضهم مرسي؟ مرسي مش الغرض.. بالعكس.. هم كسّبوه.. عشان يفشّلوه.. ويعلنوا الحرب اللي بيجهزوا لها.. وإحنا لهم بالمرصاد.

٧

قتلوا منا وقتلنا منهم.. ولكننا لم ننتصر ولم ننهزم.. هكذا هي الحرب. ولكن قتلاهم في الجنة كما يظنون ويحظون بالتكريم وبالجنازات الشعبية المهيبة التي تنطلق خلالها الأعيرة النارية الجنائزية.. فيما نواري شهداءنا التراب في صمت وخلسة، وتحت جنح الظلام، بدون أوراق تثبت كيف تم قتلهم قتلا جماعيا بشعا، ذهبوا إلى بطن الأرض بدون هوية، أهَلنا عليهم التراب دون أن يكتب أحدهم ورقة يعترف فيها بالذبح، يقف أبناؤهم حائرين أمام أكوام التراب التي تبتلع آباءهم بأجسادهم المثقوبة، لا يعرفون سوى أنهم سيحملون الثأر في صدورهم إلى المستقبل.

أستطيع أن أعترف أنني ما كنت بصدد الاستجابة لما قاله أبو صالح لي من ضرورة رد بضاعتهم إليهم، ولكن الدماء في ذلك اليوم كانت تنهال من كل مكان كأنها ضروع دموية بتر أحدهم حلماتها في قسوة فتدفقت دماؤها أنهارا. لا أعتقد أن الذين اقتحموا الاعتصامين كانوا جنودا، بل كانوا مبعوثي المذبح، كميات الدم التي أريقت في ذلك اليوم لا يمكن أن تجعلنا نكف ولن تمحى صورتها بسهولة من أعين الأحياء، كرات الدم الحمراء والبيضاء التي ظنوا أنهم أحرزوها في شباكنا، سترتد بعد قليل إلى مرماهم، حقا امتلأت الأرض بالدم، لكنها لن تشربه، دماؤنا تستعصي على الأسفلت، نتلقى طوال أيام الاعتصام توهمات الانتصار، ننتفخ وتتحول ذواتنا إلى أشياء عملاقة جعلت التراجع مستحيلا، المنصة أسرتنا بكلمات الوعيد والترغيب، أحدهم يتحدث عن قوتنا المفرطة، وآخر يتحدث عن الشهد الذي ينتظرنا في الجنة، أحدهم يتحدث عن التمترس والتأييد الرباني والملائكة التي تصلي معنا وتذود عنا وقت الشدة، وتنتظر موعد الفض لتقاتل معنا، وآخر يدعونا لكتابة الوصايا، ويعدنا بتدبير أحوال الورثة، ويطمئننا أن الجماعة لن تتخلى عنا، أو عن أطفالنا، الدشم ومشاهد الرجال الأشداء الذين يقفون على مداخل رابعة والنهضة وبعضهم يحاول التظاهر بالعزة، والفخر، والإباء والشمم، كلها كانت مظاهر خادعة، الأزمة كانت كالتالي: كيف تؤمِّن اعتصامين نجحا في الفترة الطويلة التي سبقت الهجوم عليهما في السيطرة على مساحة واسعة وكبيرة من الأرض، دون قوة بشرية وعددية مدربة على القتال والذود عن هذه المساحة؟ كيف تؤمِّن هذه المساحة الضخمة وسط تهديدات متواصلة بالفض

تتوالى من كل المحيطين بالاعتصامين، قوى إعلامية، قوى حزبية وسياسية، كنا كثيرين، نكرر الكلمة كل لحظة وحين، نحن كثيرون، وقوتنا مفرطة، وسنسحقهم، لكنني في الحقيقة كنت أشعر بالمحنة على الملامح الممتقعة، وجه الشيخ حمزة كان أبرز هذه الوجوه، لم يبرح فيلته طوال فترة الاعتصام، كانت كرداسة مشحونة وسكانها قلبا وقالبا مع المعتصمين ومع القضية، عبر سنوات طويلة تحولت البلدة التي تتنفس صناعة النسيج وتتلهف لوصول سائح، إلى بلدة مظلمة، تصنع العباءات وتصدرها في بؤس لتنافس المصانع الخليجية، في هذه البلدة استطاع الشيخ حمزة أن يجد أرضا خصبة لأفكاره وأن يؤسس نواة فرق ملائكة الهداية ويمارس فيها وجهه الرجعي المتعصب الذي يقف خلف الوجه العصري الذي قدم به نفسه في الندوات الدينية بالأندية والصالونات الثقافية التلفزيونية.
في هذه البلدة كانت أولى ضربات الثأر على بحيرة الدم في رابعة، قبلها كان الشيخ حمزة قد أُسقط في يديه عندما تلقى طلبا من الإخوة في الاعتصامين بمساعدتهم على حماية الميدانين من الهجوم، كيف يدبر الحماية اللازمة؟ استسلامنا للعجز وقلة الحيلة كان واضحًا، الاعتصامان يحاصران نفسيهما أكثر فأكثر كل يوم، بمرور الساعات الثقيلة كان الموقف يتأزم، كلٌّ يبني آماله وطموحاته وفقا لأهوائه الخاصة، دعا أبو صالح الشيخ إلى محاولة ملء الاعتصامين بالناس، كان وجه حمزة مربدا قلقا، ويشي بعجزه الحقيقي عن التفكير، تنفس في صعوبة، وزفر في حنق، وهو يتفرس في ملامح أبو صالح قبل أن ينقل ملامحه نحوي، وغمغم بشيء، حاولت أن أخفض من صوت أعضائي ودقات قلبي تخوفا من غضبة مفاجئة، لم أره من قبل على

هذه الحال، ظل محملقا فيّ فازداد توجسي، قال فجأة: ماعندكش فكرة يا زهران؟

امتعض وجه أبو صالح امتعاضة سريعة سرعان ما توارت خلف وجهه المنفعل بالفعل، شعرت بما شعر به، كيف تحوّل عنه الشيخ ليأخذ رأيي، بدأ الشيخ حمزة يطلب رأيي منذ أن عجبه الشعار «سنحيا أحرارا»، لا أعرف كيف واتتني الفكرة، لكنني هتفت فجأة: ما إحنا عندنا الفتيات النصارى يا شيخنا.. نبعتهم الاعتصام.. دول كتير، حوالي أربعين أو خمسين بنت، بس مش لازم نطلعهم في مظاهرة.. نخلي بناتنا الأحرار بس هم اللي يطلعوا.

رمقني الرجل بإعجاب وإكبار، فيما حدجني أبو صالح بنظرة غل واضحة، التفت إليه حمزة فارتسمت على ملامحه ابتسامة باهتة صفراء، عاجله الشيخ بغلظة: ما بتفكرش كده ليه يا أبو صالح؟

أشفقت على نفسي، لم يرد أبو صالح، ظل صامتا ممتقعا، كأنه تلقى صفعة، سقنا الفتيات بعدما ألبسنهن نُقبًا سوداء إلى اعتصام النهضة، توالت عربات ميكروباصات تحمل الفتيات المسيحيات من كل ديار الشيوخ، أليس ذلك خير انتقام من البابا الذي وضع يده في يد المتمردين الذين أطاحوا بالرئيس الشرعي، لوهلة تعجبت من نفسي إزاء سرعتي في طرح الفكرة، هل كنت أنتقم أيضا من جوجو أم من دميانة؟ ولماذا أنتقم منهم؟ أم أنني كنت أنتقم من شفق.. النصرانية التي أطلقت سراح جوجو؟ أم أنني كنت أنتقم من ثلاثتهم معا؟ في النهاية استجاب لي حمزة.

لم يفُتنا أن نصور الفتيات وهن يدخلن اعتصام النهضة، ووضعنا

الفيديو على اليوتيوب، لنضرب الشائعة التي ظلوا يروجونها طويلا، وهي انسحاب المعتصمين من الميدانين، ظللنا نردد: قالوا شعب جبان واحنا هنا في الميدان.. تعالَ بكرة وهات صحابك تعالَ بكرة وهات جيرانك.. حيوا معانا الأبطال اللي دافعوا عن الميدان ضد الخاين الجبان، ويوم الجمعة العصر.. مرسي راجع القصر.

معظم الهتافات كانت مستنسخة من هتافات ٢٥ يناير، فيما عدا هتاف يوم الجمعة العصر مرسي راجع القصر، كان الهتاف الوحيد الذي ظللنا نردده من قبل المحنة، أطلقنا الفيديو على اليوتيوب لنبدد بعضا من مخاوفنا، ونستعيد بعضا من ثقتنا الضائعة، فتلقينا سخرية ألعن وأشد، الكل كان ضدنا، وحصارنا لأنفسنا مستمر، والأوهام فخاخ نسير إليها مسحورين، كالمنومين، الذين فقدوا غدد عقولهم، على أمل النصر أو الشهادة، عودة مرسي وشيكة، الخروج من الاعتصام يعني إلقاءنا في غياهب السجون، أو إعدامنا جميعا، لا فرار من المقاومة، ولا مصير غير الموت، أو عودة مرسي، ومرسي لم يعد.

٨

الآن أقف في الظلام فوقي سقف يحجب عني كل شيء، حتى النفَس.

أتذكر.. والذكرى لعنة.. كيف بدأ هذا كله؟ آه. كنت أبحث عن كسوة ولقمة وسقف.. ها أنا هنا أجلس منكمشا على نفسي

تحت سقف عربة ترحيلات، عاجزًا أن أمدد ساقي، مكبل اليدين بأصفاد صلبة قاسية، أكاد أختنق تقريبا، حبيسا مع خمسة وأربعين آخر داخل العربة التي ستتحول عما قليل إلى مقبرة صلبة تشفط جدرانها رويدا رويدا أرواحنا، ها أنا أجلس تحت سقف لكن بدون كسوة أو لقمة.

هي رصاصة أطلقناها في البداية.. رصاصة واحدة.. ولم نستطع بعدها أن نفرق بين رصاصهم وذرات الغبار.

الجرافات تتقدم بينما الشمس تقف تشرف وتراقب، فرت العصافير من أشجار حديقة الأورمـان بينما الجرافات تهدم المتاريس، وتتقدم في بأس وشراسة، ينتقل إليها نبض الجالس على مقودها وطاقة حقده، فتدهس في طريقها دشمًا سهرنا ليالي لنرص أحجارها وندعمها بأجولة من الرمال، تدهس الجرافات لافتات زرقاء كبيرة كتبنا عليها بخطوط عريضة «يسقط الانقلاب».. اللافتة الزرقاء علقناها على التمثال الضخم الرابض وسط ميدان النهضة، يتقدم خلف الجرافات عساكر، يضربوننا بالقنابل المسيلة، وآخرون يحملون قذائف لهب، يحرقون بها خيام الاعتصام، كان لم يزل بداخلها أجهزة المراوح والمصاحف وبعض الإخوة الذين لم يستطيعوا المسارعة بالفرار، السيارات التي أوقعها الحظ العاثر في طريق الجرافات تطلق سارينات الإنذار بجنون بعدما دهستها المجنزرات، فيما الرصاص يتطاير فوق رءوسنا كالجراد، كنت أنا وأبو صالح وأربعة من الإخوة متمترسين في النهضة مع عدد من شيوخ الجماعة الإسلامية ننتظر الهجوم، كل ما بحوزتنا كان ١٥

بندقية آلية، على الرغم من كميات السلاح التي اقتحمنا بها المنطقة ليلة عزل مرسي، إلا أن النصيب الأكبر منه تبدد خلال الفترة السابقة، أين ذهب السلاح؟ خلا اعتصام النهضة تقريبا من الإخوة المدربين، ما إن بدأ الهجوم فجر الأربعاء ١٤ أغسطس، حتى اختفى أبو صالح بغتة، لم يقل شيئا، انتقلت إلى خيمة الإخوة الأربعة القريبة من مدخل كلية الهندسة، تتردد كلمات آلية قاسية تقول:

وزارة الداخلية تناشد المعتصمين بالاحتكام إلى العقل وإنهاء الاعتصام فورا.

وزارة الداخلية حريصة كل الحرص على سلامة كافة المعتصمين وعلى عدم إراقة نقطة دم واحدة.

تتعهد وزارة الداخلية بعدم ملاحقة المعتصمين واستثناء الصادر بحقهم قرارات من النيابة العامة بالضبط والإحضار.

وزارة الداخلية تناشد المعتصمين بالخروج الآمن من خلف شارع الجامعة باتجاه ميدان الجيزة.

نطالب المعتصمين بإخلاء كبار السن والنساء.

تتردد العبارات مثل الإبر في أذني، بينما أصل إلى خيمة الإخوة الأربعة هوت أمامي قنبلة بغتة، يتصاعد منها الدخان بسرعة وكثافة بصوت مرعب مثل فحيح ثعبان، شهقت من الفزع ومن الاختناق، فتنفست المزيد والمزيد من الدخان إثر هذه الشهقة، عدلت عن التوجه إلى خيمة الإخوة القريبة من مدخل كلية الهندسة، كنت أراها بينما تتأجج نارًا، ويحيطها عدد من الجنود. ألقيت السلاح

في هلع، وزحفت تحت أدخنة الغاز الذي تتدحرج جزئياته بشراسة داخل فتحات وجهي، طلقات الرصاص تتناثر ولا أعرف أهدافها ولكنها ويا للعجب تعرف أكثر مني، هرعت باتجاه بين السرايات كان الإخوة هناك محاصرين تقريبا، يضربون الجرافات في يأس بالطوب والحجارة، محتمين بالمتاريس الهشة التي تنهار أمام المجنزرات، يسقط بعضهم مصابا بطلقات لا أميز أنواعها، مثل صرصار يبحث عن مهرب من البكابورت. تراجعت نحو شارع الجامعة مرة أخرى، أملا في أن يكون الحديث عن المخرج الآمن حقيقيا، كانت الجرافات في هذه اللحظة تقتحم حديقة الأورمان. بحثا عن المزيد منا، تناثر رجال الشرطة بسرعة بين الأشجار، كأنهم صيادون في رحلة ترفيهية مع الملك، وبدءوا في اصطياد الإخوة مثل العصافير، فيما بدأ بعضهم في تنكيس الأعلام السوداء راية الجهاد. لم أشعر بالألم، لم أشعر بالأسف، كان الهلع يضرب في صدري بقوة، الاختناق يغلف شرايين جسدي ويمنع سريان الدم. كانت بعض الفتيات المنتقبات يسلكن خطًّا طويلا في الطريق إلى ميدان الجيزة، سارعت إلى أولى المنتقبات اللواتي تقدمن الصف، وقبضت على ذراعها لأجبرها أن تتأبط ذراعي، دفعتني في غضب وحنق، وصرخت في وجهي، كانت عيناي محتقنتين بالدماء، وعروق رقبتي نافرة، وعرقي متصببا، وشعري أشعث، حدجتني بنظرة ساخطة ناقمة، لم أستطع أن أميز وجهها، لكنني ميزت عينيها، إنها الجارية بنت يوسف شفيق.. دميانة، رمقتها بنظرة توسل وتلفّت في رعب وهلع نحو الطريق الذي يتجهن إليه في خفوت كأنهن سرب من الراهبات يتحركن في ثقة وتؤدة أثناء تأدية شعيرة جنائزية

غير مباليات بزخات الرصاص التي تمزق شرايين الهواء حولنا، صحت فيها وأنا أسرع الخطى بجوارها متلفتا في هلع قائلا في رجاء: أبوس إيديك.. خرجيني معاكِ.. أبوس إيديك.

رمقتني في اشمئزاز، لا أعرف إن كانت سترضى أم ستأبى، وافقت في النهاية، دون أن تقاوم تركتني أتأبط ذراعها اليسرى، سرنا معا خلف المنتقبات، كانت عربات الشرطة السعرانة تنتظرنا عند منتصف الشارع، خرجت أنا والفتيات، فتفرسني الجنود بنظرات ملتهبة، رفعت رأسي مستسلما وأنا أهتف في تضرع: والله كنا مجبورين.. مالناش ذنب يا بهوات.. والله كانوا خاطفينا.

هل سيصدقوننا؟ صدقونا وتركونا نمر، على الرغم أنني رأيتهم يجبرون بعض الأخوة على الركوع ولعق التراب، لكنني مررت، وما إن ابتعدنا خارج الدائرة الجهنمية، حتى انحنت الجارية على الأرض واستلت قالب طوب وهوت به على رأسي وهي تصرخ بسباب لم أميزه، تلقيت الضربة وأنا أفر مبتعدا عنها، كانت أدخنة النيران المتصاعدة من ميدان النهضة تكاد تصل إلى ميدان الجيزة وتحجب الشمس التي ارتفعت الآن إلى كبد السماء، أين أذهب.. أين أذهب؟

أتذكر هذه اللحظة الملتاعة، أتذكرها الآن وأنا أجلس داخل هذا الصندوق الصفيح الذي حشرونا فيه جميعا، لنمر عبره إلى السماء، كنت أجري وأتعثر وأنهض وأتعثر والدم يسيل من رأسي، إلى أن فتح فجأة أحدهم باب تلك الكلية الواقعة إلى اليمين من الشارع، فتح الباب، وهتف لي أن أدخل في سرعة، لم أعرف وقتها ما الفكرة، وكيف سيساعدني، ولكن الرجل كان غير مبالٍ، كان جريئا، أجلسني

أولا في حجرته الواقعة إلى اليمين من البوابة، ثم مد زجاجة ماء نحوي، فرفعتها إلى فمي وشربت جرعتين، قبل أن أتقيأهما في عنف، فأمسك قطعة قماش على مكتب معدني صدئ وبللها بالماء، ومسح بها وجهي الذي أصابه قالب الطوب، تأوهت، لكنني استسلمت لمحاولات مداواتي، قبل أن أغيب عن وعيي تماما، لم أدر ماذا حدث، فجأة صفعني الرجل على ملامحي، شهقت فزعا، هتف الرجل في وجهي قائلا: لازم تمشي.. فيه حظر تجول.

قلت في خوف: أنا مش هقدر أمشي في الشارع كده.

تغيرت لهجة الرجل وهو يصرخ فزعا في وجهي: بقول لك إيه.. ما تشيّلنيش بلوتك.. أنا نجدتك وممكن ألبّسك.. دا أنتو حرقتوا مبنى المحافظة.. وعشرين كنيسة.. إيه الفُجر ده؟ غور يلّا من هنا بدل ما أبلغ عنك.

نهضت متثاقلا، أمد خطوة وأؤخر أخرى، أنظر إلى الشارع الذي لفظ أنفاسه وانقطعت عنه الخطوات أو الحركة، حظر تجوال، ماذا أفعل، أين أذهب؟ كيف أقطع الطريق من الميدان حتى كرداسة؟ سأقع في قبضتهم لا محالة.. الجيش في كل مكان.. أين أذهب.. أين أذهب؟

التفتُّ خلفي، أغلق الرجل البوابة الضخمة وعاد إلى حجرته، انطلقت أسير بلا أمل في الشوارع التي توحشت روحها فجأة، كأنها هي أيضا خضعت لحظر التجوال، هجرها دبيب البشر، وبرزت المطبات الصناعية وحيدة بلا سيارات تزاول عليها نفوذها باعتراضها، أو تجبرها على أن تبطئ من سرعتها، شعرت أن

الأسفلت يشكو الضجر، ويتلهف على خطواتي، وتتنافس قطع منه على قدمي، التي كانت أناتها مسموعة، ورأسي جف جرحه إلا أنه لم يزل يفرز مادة صديدية تنبئ بنزيف جديد، فجأة برز من بعيد أتوبيس رحلات قادم من الاعتصام الذي تحول إلى أطلال وغلفه الظلام، ظهر الأتوبيس كأنه كائن أسطوري يمد لي خطاف هلب لأتعلق به، أشرت في جزع ولهفة نحوه فتوقف، ووثب منه أربعة رجال ممشوقي القوام، باغتتني الصدمة، لكنهم كانوا قد أحاطوني، وأحدهم يضحك ضحكات متشفية مغمغما: فيصل.. ولّا هرم؟

حاولت أن أضحك في ثقة لأتخفى في هيئة مواطن مسالم لا علاقة له بما حدث: مريوطية يا أسطى؟

فضحك آخر وهو يجيب: إحنا عندنا ماتش في الاستاد.. إيه رأيك تيجي تتفرج؟

فيما قال الأول صاحب النظرات المتشفية: بطاقتك يا شيخ؟

دسست يدي خلف ظهري في سرعة، فضربني أحدهم بقبضته خلف أذني، وهو يهتف في صرامة وحدة: إيديك الاتنين على قفاك.. وارقد على ركبك.

وقعت في الفخ، يا لك من غر يا زهران، نفذت ما طلبوه وأنا أبكي قائلا في استجداء: يا بهوات ارحموني.. ولادي مستنييني.. والله أنا...

بترت صفعة باقي عبارتي، وتدفق الدم غزيرا من جرح رأسي، وصرخ أحدهم فيّ وهو يركلني: بطاقتك يا ابن الوسخة.

قلت في رعب وخفقات قلبي تتزايد: أجيبها إزاي يا باشا وانت طلبت مني أحط إيدي على قفايا؟

فهوت الصفعة الثانية أقوى من الأولى، وتوالت الركلات، فسقطت على الأسفلت الذي كان يتسول منذ لحظات خطواتي، سقطت وتدفق الدم غزيرا من فمي، لكنهم لم يمهلوه ليسيل أكثر من ذلك، حملني اثنان منهم، وألقوا بي داخل الأتوبيس، كان في الداخل عدد من المحتجزين مثلي، لم يجلسوا على المقاعد، لم تكن هناك مقاعد، ولم يكن الأتوبيس مضيئا من الداخل، كانت مقاعده قد انتزعت من أماكنها لتتحول صالته الداخلية إلى كابينة احتجاز واسعة، عربة ترحيلات متخفية، تبتلع أجسادا فوق بعضها، وروائح عرق وعفن تنبعث من بينها، وأنات مخيفة تتصاعد كأنها بدايات غليان حمم البركان، وضعت كفي على رأسي والأتوبيس ينطلق مسرعا كأنه يبحث عن مزيد من الهاربين من الاعتصام ليلتقطهم مثل ملقاط يعمله صاحبه على الشعرات التي فرت من شفرة الحلاقة، انطلق الأتوبيس، واقترب من ميدان الجيزة، الذي كانت تطوق رئته قوات الجيش، أبرز الرجال الأربعة هوياتهم، كانوا من العمليات الخاصة، لوح لهم رجال الجيش بالمرور، انطلق الأتوبيس في سرعة متجها إلى وجهة لم أتبينها إلا بعد ساعة، اجتزنا خلالها مئات الأكمنة التي قبضت على أعناق الشوارع بقبضات ملتهبة، متى تم فرض حظر التجوال بهذه القوة وهذا الحسم، الشوارع ممتلئة عن آخرها بالحراس والعساكر، ولا أثر عين لكائن يرتدي قميصًا وبنطلونًا، الملابس العسكرية تمرح في الشوارع، لقد قضوا علينا، قضوا علينا تماما.

انطلق الأتوبيس نحو كوبري عباس، كانت الشوارع الخالية تفتح أذرعها لقائده، فأخذ يقتحمها في شراسة كأنه يسابق ذرات الهواء، عبر كوبري عباس وظل منطلقا في منطقة الروضة، قبل أن يعبر كوبري الملك الصالح، ليصل أخيرا إلى صلاح سالم، كانت الأنات في الأتوبيس لا تخفت، تتصاعد في وتيرة واحدة، أنات خافتة وغمغمات باكية تردد في آلية: حسبنا الله ونعم الوكيل.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. اللهم اضرب الظالمين بالظالمين.. وهكذا، تتصاعد الأنات، ويفتك الألم برأسي، فجأة يتوقف الأتوبيس في أحد الأكمنة في صلاح سالم، يلوح له رجال شرطة آخرون يرتدون ملابس العمليات الخاصة، كان بصحبتهم رجل يصرخ ويحاول أن يحرر نفسه من براثنهم، كانت قبضاتهم تهوي على رأسه ووجهه بلا تمييز، حينما توقف الأتوبيس بمحاذاتهم، دفعوه جميعا في غلظة، والتقطته قبضات الرجال الأربعة المشرفين على الرحلة الجهنمية، كانت صرخات الرجل تتواصل وباتت الآن قريبة من أذني: ورحمة أمي أنا مش إخوان.. ياعالم والله مش إخوان.. أنا أصلا حزب وطني.. والله العظيم حزب وطني...أنا ماليش دعوة برابعة.. ولا كنت في رابعة.. ارحموني.. ارحموني يا ناس.

وانحنى الرجل على أحذية أحد الرجال الأربعة يقبلها في نهم متوسلا، ودموعه تتدفق على وجهه الممتقع، الذي سالت الدماء من بعض أجزائه، المتورمة بفضل اللكمات التي نالها، امتقعت ملامحي بينما الرجل يواصل توسلاته وتقبيله لحذاء أحد الأربعة، تواصلت رحلة الأتوبيس، قبل أن يقترب من كمين آخر، وتكرر مشهد القبض والاعتقال بشكل آخر، هذه المرة كان شابًّا من المشاركين

في اعتصام رابعة بصحبة جثة والده، أوقعه حظه العاثر في قبضة كمين أثناء محاولته الخروج بجثمان أبيه من منطقة مدينة نصر، كان الشاب مستسلما لأفراد الكمين الذين استوقفوه بينما يحمل الجثة الملفوفة في كفن غارق في الدماء، حينما توقف الأتوبيس أمام أفراد الكمين، وعلم الأربعة أنهم سينقلون جثة، كشف أحدهم عن المفاجأة المروعة التي بددت لي سر الرائحة العفنة المنبعثة من بين أصحاب الأنات، قال أحد الأربعة لأفراد الكمين: إحنا معانا شوية جثث.. المشرحة مش ناقصة قُتلا.

نظر ضابط بالكمين إلى الرجل وقال في حدة: أنت عاوز تاخده وتسيب لنا الجثة.. هنعمل إيه بيها؟ ممكن تسيبهم هما الاتنين.. بس إحنا هنبلغ إنكم رفضتم تاخدوا المعتقلين.

نظر الرجل إلى زملائه الثلاثة في حيرة، فأومأ أحدهم إليه بحسم. هاتهم.. كده كده بعد ما هنزل المقبوض عليهم في الاستاد.. هنطلع على المشرحة.

خرج الشاب عن صمته واستسلامه وهتف في جزع: أبوس إيديكم.. مش هفارق جثة أبويا.

صرخ ضابط الكمين في وجهه: الجثة مكانها المشرحة.. خلونا نخلص من الليلة السودا.. عاوز تحصل أبوك دلوقتي.. هبعتك على طول.. والموضوع مش هيكلفني إلا طلقة.. ورحمة أمك ماحدش هيعد علينا الطلقات الليلة دي بالذات.

نهض الشاب وحمل جثة أبيه فوق كتفيه، وصعد بها الأتوبيس

في خضوع، أفسحت له مكانا ليضع فيه الجثمان، وجلس بجواره ودموعه تتساقط في صمت، أضيفت أنات جديدة إلى العربة، التي لم أكن أعلم أنها تحوي قتلى بالإضافة إلى الأحياء الذين سيصيرون بعد قليل أمواتًا.

وصلنا أخيرا إلى نهاية الرحلة، كان استاد الكرة، المرة الأولى التي أراه فيها، لم أخط عتبته في حياتي، مدخله كان شاهقا، طريق طويل توزعت فيه مدرعات عسكرية وشرطية وحاملات جنود وحرس، مباراة عسكرية أم معتقل كبير، كان المكان الأنسب لاحتجاز الآلاف الذين نجوا أحياء من فض اعتصام رابعة، طلبوا منا المغادرة، وطلبوا من الشاب الذي بقي ملتصقا بجثمان أبيه أن يتركه، ويغادر أيضا معنا، أبى الشاب في البداية، لكن أحد الأربعة تحرك نحوه وجذبه في قوة من قميصه، فتمزق في يده، فعاود جذبه من ساعده، تحرك الشاب مستسلما وهو يغمغم: حسبنا الله ونعم الوكيل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

تحركنا جميعا في الظلام بين المدافع المشهرة والأسلحة المصوبة على أعناقنا تجاه بوابة الاستاد. كنت لم أزل أتحسس رأسي، وجرحه لم يزل يفرز صديدا، كانت أتوبيسات الاعتقال الليلية تتدفق على الاستاد من كل حدب، وبكل منها فرقة مصغرة مثل الأربعة الذين جمعونا، كنا جميعا نخطو مترنحين، مضروبين، مصابين، تسيل دماؤنا ترسم خطوطا وهمية على الأسفلت لنهاية المباراة التي لم يشهدها الاستاد، المهزومون الأحياء شهود الموقعة يتجمعون في الاستاد ولا حق لهم في مغادرته على الرغم من

انتهاء المباراة، داخل الاستاد على النجيلة الخضراء تساقطنا وسط الآلاف الآخرين الذين سبقونا إلى الحلبة الكبيرة، حلبة المصارعة التي واجهنا فيها الوحوش، وننتظرهم حتى يجْهزوا علينا للمرة الأخيرة، هتفنا جميعا بعد أن دخلنا إلى الساحة الخضراء التي يتبارى عليها لاعبو الكرة: حسبنا الله ونعم الوكيل.. تركونا نرددها كأنهم يمنحوننا منة، رددناها بأريحية وثقة بأنفسنا وبجمعنا الغفير، من هذه الأبواب التي نمرق منها ظللنا ليلة كاملة نتبادل حكايات المقتلة، ونتبادل الاحتمالات المقبلة، ونقلبها على كل الوجوه، طالما جلبونا هنا فلا ريب سيفتحون علينا النيران جميعا ويتخلصون منا في مقتلة أخرى، لا أماكن لديهم في السجون، أو لا يريدون أن يرسلونا إلى السجون وأماكن الاحتجاز في الأقسام كي لا يفتضح أمرهم ويتجنبوا انتقادات ودعاوى القبض العشوائي، شعرت أننا ضعنا فعلا، هنا لن يتمكن أحدهم من تتبعنا، أو العثور علينا، إلا لو أبلغ أحدهم بمكان احتجازنا، كما فعل بعض المقبوض عليهم، الذين كانوا صحفيين، بعضهم يحمل كاميرات مهشمة، أحدهم كان يكتب على هاتفه رسائل ويرسلها لجهات عديدة، قبل أن يهرع إليه الحرس، وينتزعوا منه الهاتف، سلمه لهم في استهانة ولامبالاة، ثم أومأ لنا جميعا أن اطمئنوا، قنوات خليجية الآن تعرف أننا مقبوض علينا في هذا المكان، لم أشعر بالاطمئنان، ظللنا طوال الليل نجلس على النجيلة بدون ماء، أو طعام، الاستاد موحش، كيف أدخله للمرة الأولى في حياتي بهذا الشكل؟ رددت على نفسي قائلا بمرارة: ماذا كان سيجعلك تدخله أصلا؟

في الصباح لم تتأخر الشمس على الرغم مما حدث من بشاعات

الليلة الماضية، وأشرقت في موعدها، أليس ذلك أمرًا عجيبًا، تشرق الشمس على بحيرات الدم، وترسل ضوءها مجانا للقتلة، جالت الفكرتان بخاطري، الآن بعضهم يلعنونها على هذا الحر، وبعضهم يشكرونها أنها أشرقت على وجوههم التي قتلت بعضنا بدم بارد، واعتقلت بعضنا الآخر بدم بارد، وأسالت دماءنا الساخنة على الأسفلت بدم بارد أيضا، لماذا لا يتمرد الكون على ظلم أهل الأرض؟ هذه الدماء التي أريقت بالأمس.. كيف تتجاهلها الشمس وتشرق ببهائها وبكامل قرصها، وكيف يحمل الهواء نسماته وذراته لأنوف القتلة؟ كيف تعمل رئاتهم وتستنشقه باعتياد؟ بينما نتوسله نحن في عربة الترحيلات، التي تحولت إلى مقبرة من الصلب، في الصباح بدأ ترحيلنا إلى السجون، بعضنا تم ترحيله إلى أقسام الشرطة، والبعض الآخر قاده حظه الأفضل إلى استقبال طرة بدون تحقيق، بدون محاضر، بدون عرض على النيابة، جاء حظي مع مجموعة توجهت إلى قسم مصر الجديدة، كانت المرة الأولى التي أدخله أيضا؛ مثل الاستاد، استقبلونا بالركلات والصفعات، طابور طويل من القبضات والأرجل تركلنا وتلكمنا وتصفعنا، كيف تعمل هذه الأعضاء بهذه القوة العاتية في الظلم.. ولا يزال عبدي يتقرب لي بالنوافل حتى أحبه.. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها.. هل هذه يد الله التي تبطش بنا.. هل يحبهم الله ويكرهنا؟ لماذا تبدو هذه الضربات التي نتلقاها الآن باطشة بهذا الشكل؟ من منا على حق.. نحن أم هم؟

ألقونا في حجز القسم، كان ذلك أفضل من العراء، لكننا ظللنا على حال أخرى من البؤس، ننام واقفين، نعجز عن الانحناء،

عن التمدد، محرومون من التنفس، يرنو كل منا برأسه إلى أعلى لالتقاط نسمة عابرة من فوهة الكوة الضيقة في حائط غرفة الحجز، الذي اكتظ بالمحبوسين، كانت المحاضر في الخارج تدبج حتى تصدر النيابة قرارات عاجلة بالحبس أسبوعين على ذمة التحقيقات، والتهمة الانضمام لجماعة إرهابية، وتدبير أعمال تخريبية، واستخدام القوة في مواجهة الأمن، والعديد من التهم الأخرى لا أتذكرها، كنا جميعا فيما يشبه الكابوس، واقفين يلفنا الظلام، لا نعرف مصيرنا الساعة المقبلة، فجأة انفتح باب الحجز في السادسة صباح الأحد، فتح باب الحجز نفسه ظل حدثا فريدا، تتردد تأوهات، وأنات، وتسبيحات، وحسبنة مستمرة، كل هذا يقلل من الهواء داخل الحجز، ويدفع بكميات هائلة من الغاز المنبعث من البطون الخاوية إلى المساحات القليلة المتوافرة فوق رءوسنا، لذا كان فتح باب الحجز حدثا يستحق الفرح، فهو يجدد الهواء ويريحنا قليلا من بعض المغادرين، علاوة على أنه يدفع بفيوض من الأمل أن نتحرر من هذه الوقفة اللانهائية حتى إذا قادونا إلى حجز آخر، أقله تتحرك أعضاؤنا المحرومة من التمدد، ومن الخطو.

تحركنا إلى قبرنا الصلب؛ عربة الترحيلات، الطريق المختصر الذي لم ندر أننا نسلكه في هذه اللحظة إلى آخرتنا، بينما أقدامنا تخطو في تؤدة وثقل، ثم في إجبار محموم، هربا من الركلات واللكمات التي عاودت لطمنا في غزارة، هل كانت هذه القبضات تودعنا؟ هل كان أصحابها على دراية أنهم ينهالون علينا الآن باللكمات الأخيرة؟ صعدنا إلى العربة، بل تم زجنا إليها زجا، كانت

العربة قد امتلأت، فبدءوا يدفعوننا داخلها دفعا، صرخ أحدنا: حرام عليكم.. العربية مليانة.. دي علبة صراصير.

هوت الصفعات على وجهه، ودفعوه، وصرخ أحدهم: اقف على حيلك يا ابن الكلب أنت وهو.. اقف على حيلك.. ماحدش يقعد، أو يمدد، ماحدش يفرد أو يأرفس.. عاوزكم واقفين على حيلكم.. مفيش ليموزين في السجون يا روح امك منك له.

دفعونا دفعا في العربة، صعد أحدهم ليطمئن أننا ملتصقون تماما، كان من الواضح أن العربة لا تتسع إلا لعشرين سجينًا، لكنهم يرغبون في مضاعفة العدد لتوفير النقلات، كانت الأجساد ملتهبة، متعرقة، سخونة أغسطس ألهبت بالفعل جدران العربة الحديدية، صندوقها تحول إلى ما يشبه الصفيح الذي يشع شيئا يتأهب للغضب، أو للانفجار، تدفعنا القبضات في عنف وعتو إلى داخل العربة القبر، لم ندر أنه سيكون كذلك إلا بعد ساعات ست، تعاون ثلاثة حراس لدفعنا داخل العربة، جربوا إغلاق بابها أكثر من مرة، لكنه أبى، فعادوا يدفعون من جديد، كأننا أجولة بطاطا يبحثون لها عن ثغرة، ووجدوها أخيرا، أغلقوا الأبواب بعدما نجحوا في حشرنا داخل القبر الصلب، وانطلقت بنا العربة، انطلقت في طريق طويل، كنا خلال حركاتها واهتزازاتها المتتالية فوق المطبات أشبه بسلاسل متتالية من مكعبات الدومينو، تتوالى انحناءاتنا، وتمسكنا ببعضنا البعض، نتشبث بأكتافنا، ونحاول ألا نسقط، بعضنا سقط في قدميه، لا نعرف كيف سقط، توالى سقوطنا، البعض كانت مقاومته تضعف، لم نستسلم كالدومينو للسقوط المتوالي، لكن بعضنا ذهب بالفعل ليتحرر من القبر الصلب الضيق إلى البراح الذي كنا نتمناه،

وهكذا بدأت عملية التحرر قبل وصولنا إلى ساحة السجن، متى انغرزت هذه السجون في أرضنا؟ وكيف نمت، وظللت أبراجها تربتنا بهذه الظلال التي تشبه الإبر، من سقاها؟ ومن رعاها؟

داخل السجن صبت الشمس نارها في جوف النافذتين الحديديتين اللتين كنا نحاول عبرها استنشاق الذرات القليلة المتسللة مع الحرارة، الضباط أوقفوا عربة الترحيلات في ساحة السجن، وجلسوا تحت الظلال يحتسون الشاي، ويتضاحكون، فيما جنودهم يصرخون فينا كل دقيقة: قول ياض مرسي مَرَة.. قول ياض.

بعضنا كان يجيبهم قائلا: حسبنا الله ونعم الوكيل.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.. فيما البعض الآخر كان يقول: مرسي مَرَة.. حرام عليكو بق مية.. بق هوا.. ارحمونا.

أنا أتأهب الآن للصعود.. حدقت للمرة الأخيرة في سقف العربة، بينما أتأهب للطريق، الآن ألتحم التحاما بالسقف الذي كنت أتمناه، أمرق عبره، حانت مني نظرة أخيرة إلى أرض العربة، وأخرى للسقف، أطمئن للطريق.. لا تشدوني.. قادم معكم.. حانت مني نظرة أخيرة إلى السقف.. وغادرت.

حمزة أبو نور

١

انتهى كل شيء إلى غير رجعة.

انتهى حلم الخلافة.. زالت الدولة الإسلامية للأبد.

هكذا كنت أعد في محبسي الكلمات التي سأقولها لأنصاري، حينما يقتادوني غدا للمحاكمة، أي عبث وقعنا فيه، أي نهاية لم نكن نتصورها بعد سنوات قليلة من الثورة؟! تحطم كل شيء وانتهى إلى غير رجعة، بعدما ظننا أننا مَلَكنا.

ظللت أقول: يا حي يا قيوم.. برحمتك أستغيث.. يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، قمت، فشعرت بإعياء جسدي الضخم وأنا أنهض، الفراش كان وثيرا، الأغطية كثيرة، لكن جدران الزنزانة مع ذلك تشع بردا، هذه هي النهاية؟ حبيسا بين أربعة حيطان مثل فأر، كأنني يونس في بطن الحوت، يا رب، سأذبح ألف عجل، وسأملأ البطون الخاوية، فقط انتزِعني من مصابي هذا، هل هذه هي النهاية؟ أنا التقيّ.. أنا المجاهد! تنتهي أحلامي هذه النهاية؟ ليتني سافرت بعد الإطاحة بالرئيس.

شعرت بالخجل بعد الهاجس الأخير، هل قال يوسف لنفسه ما أقول؟ باعوه إخوته، وسجنته زليخة، وتآمرت ضده النسوة، لكنه خرج إلى الإمارة، لماذا فقدت إيماني وصبري؟ زفرت في حنق، ونهضت وسرت على بلاط الزنزانة الرطب، اقتربت من حوض الوجه، وفتحت الماء، تناثرت قطرات، فتوضأت، ثم عدت واضطجعت، رددت همسا: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس. ١٤].. صدق الله العظيم، لكنني لم أهدأ. كان السأم يضرب في صدري، أخذت أردد. حسبي الله ونعم الوكيل.. اللعنة على الانقلابيين، حسبي الله ونعم الوكيل.. سبحانك اللهم لا إله إلا أنت إني كنت من...

ثم بترت الدعاء، غمغمت: هل كنت من الظالمين؟ هل حقا ظلمت؟ وأي ظلم ظلمته؟ كنت أخطب في الناس كل أسبوع، في صلاة الجمعة وغيرها، أصولي كريمة، ووالدي كريم، وجدي، وجد جدي، هل تطلعي للوصول إلى السلطة يجعل مني ظالمًا؟ وأين الظلم وأنا لم أصل إلى السلطة؟ بفضل الملاعِنة المرتشين.. الذين يكرهون الدين، ويفضلون عليه الغواني والراقصات، والأغوات.. اللعنة عليكم.. اللعنة عليكم.. يا رب.. إنك لا ترضى لعبادك الصالحين الكرماء، الهداة، المهتدين، لا ترضى لي يا رب هذه النهاية.. انتزعني من هذا الكرب.. يا رب.

شعرت بتسارع ضربات قلبي، كدت أتوجه إلى حقيبة الأدوية، لكنني آثرت أن أهدأ، وأظل جالسا، نظرت إلى الملاءة، وفكرت في الرقاد، فجأة تناهت إلى سمعي أصوات خطوات، كثرت

الزيارات إلى زنزانتي، لذلك كان يجب أن تكون زنزانة مريحة، تحوي فراشا وثيرا، وأغطية دافئة، وسجادة، ومكتبًا، وأقلامًا وأوراقًا بيضاء، وكذلك علبة تحوي صبغات وحنة لذقني الأشيب، ومقصًّا لتهذيبها، لكنني أهملتها كثيرا ولم أشذبها، فظهرت شاحبا في قفص محاكمتي، بالإضافة لسبحتين وسجادة صلاة، وملابس داخلية، وأكثر من جلباب واسع من الصوف والكتان، يحتوي جسدي الضخم، لم أتخيل أن تختصر هذه الزنزانة حياتي الواسعة في فيلتي بكرداسة المطلة على أرضي هناك، ينتهي بي الحال إلى هذه الزنزانة الرطبة، الباردة، كأنها بطن الحوت، عرضوا عليَّ تزويدي بشاشة «LCD» وجهاز ريسيفر، رفضت، طالبتهم بهاتفي الآي فون، رفضوا، إنهم يتركونني وحيدا مثل يونس فعلا، ربما لو كان معه آي فون، لتركه ربه، وما فكر في إنقاذه. يأتي المحقق، ويطرح عليَّ الأسئلة التي أنكرها كلها، فيسجل إنكاري في برود، ويومئ لي ساخرا، ويمضي، هكذا المحقق تلو الآخر، يتهمونني في عدة قضايا، أبرزها قتل الأهالي في بين السرايات، أي أهالي حرضت على قتلهم؟

اقتربت الخطوات، كعب حذاء ثقيل يدق الأرض في تؤدة وثقة، يتبختر برسوخه، وهيمنته على البلاط، يضاجع الفسيفساء بنعله، تقترب الخطوات وصاحبها، قبل أن تتوقف قرب باب زنزاتي الحديدي، ويهتف في برود.. كأن المتكلم روبوت، هتف صاحب الخطوات قائلا: إزيك يا شيخ حمزة؟

تأهبت، في الحقيقة تأهبت قبل سماع صوته المألوف، منذ

اقتراب خطواته بدأت أنفاسي تتلاحق، كأنني أعرف هذه الخطوات، وأستطيع تمييزها عن باقي خطوات وكلاء النيابة، ثم وقع الصوت على أذني، طريقة نطقه لحروف اسمي، كل هذا حدث من قبل، قلت: مين؟

قال الصوت: ما أنت عارفني يا شيخ.. جرى إيه.. لحقت تنسى كيس المليون جنيه.. اللي رميته من الشباك؟ يا راجل يا مفتري.. ثم أطلق ضحكة ساخرة مجلجلة سمعتها أرجاء السجن.

تألمت حينما ذكرني بالواقعة، انقبض صدري، وارتعش خدي، وترقرقت في سرعة قطرات عرق على جبيني، مسحتها متوترا براحتي اليمنى، هكذا دائما ينطق عرق جبيني بما يعتمل داخلي، خلصائي ورفاقي وأنصاري يتنبئون بتوتري في اللحظة التي يرون فيها جبيني المضيء يلتمع بالعرق، قلت متوترا: مش فاكر بالظبط صوت حضرتك.. الصوت مش غريب عليَّ.. أكيد حضرتك مش من النيابة، لأنهم مش بيتكلموا معايا من وراء الباب.

هتف صاحب الصوت: أنا مش جاي أحقق معاك يا شيخ حمزة.. الله يكون في عونك في اللي أنت فيه.. أنا بس عاوز أسألك سؤال ودّي.. وماشي.

تأهبت وعادت قطرات جبيني تبلله، فمسحتها براحتي اليمنى، قبل أن أقول في خفوت: حضرتك بصرف النظر اللي أنت عاوزه.. مش هرد عليه إلا في محكمة.. ومع المحامين، أنا راجل قانون.. ولّا دم الإخوان اللي بتسيحوه كل جمعة خلاكم مسعورين.

ضحك الصوت ساخرا، وقال: لا ما تقلقش.. أنا مش باسجل لك.. بس أنا مستغربك يا شيخ حمزة.. فين الطرافة واللطافة بتوعك.. لكنك متوتر وقلقان، ما تخافش يا شيخ حمزة.. هو بس سؤال ودي.. البت مراتك القبطية.. بتاعت بين السرايات.. مختفية فين؟ عاوزين نطمن؟

تراجعت حتى التصقت في حاجز الفراش، تذكرت شفق بغتة وما أنسانيها إلا الشيطان أن أذكرها. اللعنة عليك يا شفق هذه قضية أخرى من القضايا الملعونة التي يطاردونني بها، وإن لم ترد في التحقيقات رسميا، هنا تذكرت الصوت فجأة، تحشرج صوتي أولا، كدت أن أهتف باسمه، فاحتبس حلقي، سعلت في قوة، ارتعشت كرشي، قلت في حنق. عبد القوي بيه الجمل معايا؟

أطلق الصوت ضحكة ساخرة.. فامتقع وجهي وشعرت بوخزة ألم في صدري بجوار قلبي، فقلت مدافعا عن نفسي كأنني أخشى أن يفرح بحيرتي: ماعرفش عنها حاجة.. أنتو مش قبضتوا عليَّ وبهدلتوا بيتي.. لقيتوها؟ روحوا دوروا عليها؟ ولا أنتو مش شطار غير في الذبح؟

٢

ولدت في نفس العام الذي أصبح فيه أبي إمام مسجد بالدقي، كان قد ورث الإمامة عن جده الأكبر، الذي كان يؤم الخديوي إسماعيل، في الحقيقة لم يرد أبي أن أرث هذه المهنة، لذلك اهتم

بتعليمي تعليما جامعيا، لكنني كنت أحضر اجتماعات أسبوعية كل ثلاثاء في منزلنا، كانوا خمسة أفراد، يتزاورون، ويجتمعون، ويحضرون معا دروس أبي، ويتناقشون فيما يلقيه من دروس، وما يتناوله من خطب دينية كل جمعة، لم أعرف أنهم يشكلون جماعة، ولا كان يخطر على بالي أن أمرهم مهم، لدرجة أن تهادنهم الدولة في الخمسينيات، ثم تنقلب عليهم في الستينيات، قبضوا على أبي من داخل المسجد، لم أكن بصحبته في هذا اليوم، ولا أتذكره، إنه يوم بعيد، نهار كئيب لم يكْفِ نوره لإضاءة وجه أمي، الذي لم يشرق وجهها بعده سنين طويلة، كانت أمي تغمغم دائما أنه في شدة، شدة وتزول، هكذا كانت تقول، لكن على الحائط المقابل لمكتبه كانت هناك دائما اللافتة الخضراء، ذات السيفين المتقاطعين، وكلمة ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، مقتطعة من آية قرآنية تعلمتها بعد ذلك، لماذا كان يجب أن تكون آية الاستعداد بالقوة هي أولى الآيات التي أتعلمها، على الرغم أن أول ما نزل على الرسول الكريم اقرأ؟!

ظل ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ شعارا يثير الرهبة في قلبي كلما حدقت به، لذلك ما إن تقع عيني عليه حتى لو بالصدفة، كنت أحول عيني في سرعة، خرج أبي من السجن، بعد موت عبد الناصر، كان عمري وقتها لا يتخطى السنوات العشر، أصبح من أهم دعاة منطقة الدقي، زواره بالآلاف، ومريدوه لا ينقطعون، انتقلت دروسه إلى مسجد كبير، افتتحه نائب الرئيس المتوفى، الذي نكّل بأبي وإخوانه، كان مسجدا صغيرا في البداية، لم يلبث أن زادت توسعاته، تدفقت التبرعات والهبات، والمساعدات، أسر كثيرة تأتي تزور أبي، وفي صحبتها حقائب، ودفاتر، يتولى هو تدوين العديد من الأرقام، ثم لا تلبث

هذه الأموال أن تجد طريقها مرة أخرى خارج بيتنا الذي أصبح كبيرا، كنا نقيم أولا في شقة من شقق الدقي القديمة، قبل أن ننتقل إلى أقدم شوارع الدقي الرئيسية، المفضية إلى كوبري الإنجليز، كما كان يسميه أبي، كان يتعمد أن يذكر المسميات القديمة، يسرب إلى قلبي قصصًا وحكايات، كان يقول أحيانا: لا أروع من الحضارة الإسلامية يا حمزة.. أريدك أن تكبر على هذه الفكرة.. لقد ضيعت أسرة محمد علي حلم الخلافة، وحارب الملعون وابنه المسلمين في الحجاز وأخروا نشأة الدولة السعودية في بدايتها، وكادوا أن يقتلوا الخليفة في عقر داره بتركيا، وهو ما أضعف الخلافة بعد ذلك بسنوات وقضى عليها، ومن بعد محمد علي ضيع العسكر الحلم تماما.. لعنهم الله، اغرز في قلبك فكرة الأمة، اجعل لسانك يلهج بذكر الله وبذكر أمته، تذكر ثلاث كلمات ورددها دائما: الأمة، والجهاد، والمحنة، وأن الصمت أعذر لنا أحيانا عن النطق إلى ما يوردنا إلى المهالك.

كنت أستمع إليه غير مدرك ما يقول، بعد سنوات، صارت الفكرة التي أراد أن يسربها إلى قلبي واضحة الآن، خاصة عندما ناولني ذات مرة أحد كتب سيد قطب، ودعاني لقراءته، وحثني على أن أحفظه، حفظته عن ظهر قلب، استظهرته، لكنه عاد وقال لي عن صاحب الكتاب: لقد أعدموه يا حمزة.. لأنه صدح ضدهم بالحق، إنهم نفس الفئة الضالة التي استباحت المسجد، وقبضت عليَّ داخله، لا تظن أنني اطمأننت لهم، لكننا مضطرون أن نهادنهم، كما فعل جدك الأكبر، الذي كان يؤم أحد أحفاد محمد علي، معالم طريقنا كما حددها صاحب الكتاب، أن نسعى لتنشئة هذه الأجيال

على القوة والصبر والثبات، وألا نصطدم بالطواغيت، سنزاحمهم فيما وضعوه من أنظمة إفرنجية غريبة عن ديننا، فلنجعلها ديمقراطية إذا شاءوا، حتى يسلمنا الله زمام الأمر، ليقضي أمرا كان مفعولا حتى نربي جيلا ربانيا فريدا، أو كما تمنى إمامنا حسن البنَّا، سننطلق من أسرة مسلمة، فمجتمع مسلم، فدولة مسلمة، إلى أستاذية العالم وهذه أعلى مراتب الإصلاح.

هكذا كبرت والفكرة تكبر معي، أقول لنفسي كما يقولون لأنفسهم، نحن لا ننسى أحلامنا أبدا، ولا ننسى ثأرنا كذلك، نحن ننتمي لأجدادنا الحجازيين، استعمرنا الله في هذه الأرض، لنعيد إليه ما انتزعته الأنظمة الرأسمالية من ادعاء حق وضع التصورات والقيم، إننا نعيش اليوم في جاهلية، لا تغتروا بالتطور العلمي والرفاهية المادية المزيفة، لقد انتزع هذا التطور منهج الله سبحانه وتعالى من الأرض، وجعل الإنسان يرزح تحت وطأة وسفالة الإنترفيو ليحصل على وظيفة، أو تحت تهديد مستمر من استمارة ٦ بمبررات يتعمدون إهانتنا بها، من قبيل ضغط النفقات وعدم حاجتنا إلى بعض الموظفين، تحولنا إلى عبيد لهذه القيم، ولم نعد نعبد الله، وصرنا أربابا لبعضنا البعض. رب العمل، رب المؤسسة، رب مجلس الإدارة، لم نعد نعبد الواحد الفرد الصمد، بل صرنا نعبد رؤساء مجالس الإدارات ورؤساء التحرير ورؤساء الشركات والوزراء ورؤساء الوزراء والرؤساء.

كان أبي محقا، بعد نصيحته بأشهر، عاد السادات واعتقله، بعدما كان هو من أفرج عنه، ليضرب به هو وإخوانه خصومه الناصريين،

انتهت الديمقراطية إلى الإفلاس كما يقول صاحب المعالم، الذي أعدموه غيلة وغدرًا، لكنهم لحسن الحظ لم يعدموا أبي، بل مات الطاغوت السادات، وأفرج نائبه عن أبي، فشلت أولى محاولاتنا لإقامة دولة العدل، والإسلام، وواجه المجاهدون مصير السجن، كنت قد تخرجت بعدها بأعوام في كلية الحقوق، حاملا داخل صدري أفكار الإمام الشهيد، الأمة الإسلامية انقطع وجودها منذ انقطع الحكم بشريعة الله، لكنني كنت أهفو مثله إلى أن أكون شاعرا، أديبا كبيرا، ضبطت نفسي أكتب قصائد قصيرة في حب بعض الزميلات الفضليات، لكنني زعمت أنها ليست قصائد حب من ذلك النوع، زعمت أنها قصائد في عشق الذات الإلهية، كان الإمام الشهيد شاعرا كبيرا، يتباهى أن شعره أفضل من شعر العقاد، يكره شعر المديح، على الرغم أنه امتدح الملك بقصيدة في مناسبتين، لكنني تغاضيت عن هذه السقطة للراحل، بالتأكيد كان له رؤية نبيلة من خلف ذلك.

شاركت بحماس في المؤتمرات الانتخابية التي كان ينظمها أبي في الدقي، كان يقاوم بضراوة لتنفيذ حلمه، ظل عضوا في مجلس الشعب أربع دورات كاملة، كنت خلالها خطيبا مفوها شابا، أثير الإعجاب بحماسي منقطع النظير، ونظرات عيني الممتلئة وهجًا وقوة، إضافة لوسامتي وقامتي الممتدة، كنت أحرص على تدريبات أسبوعية في الجيم، فجأة تحولت هذه التدريبات إلى ساعات لدروس دينية غير تقليدية في «الجيم»، بدأت الدائرة تتسع، بدأت أشعر بنبوغي في الإلقاء، والتأثير على المستمعين، بدأ الشباب يشتركون في الجيم، ويتكدسون في الأيام التي أزاول فيها التمرين،

بدأت أشعر أنني أعيد سيرة الإمام الشهيد، الذي بدأ المريدون من حوله يتكاثرون، لكنه كان مجرد مدرس ابتدائي، فيما كنت أنا محاميًا مفوهًا، دارسًا للقانون.

بجانب ذلك كله، كنت حريصا على تطوير العمل الجماعي بإظهار الانحياز للأفكار التقدمية، بجانب بذور المعالم التي اختزنتها داخلي وصهرتها في نفسي كما يصهر الصائغ الماهر سبائك الذهب، تعلمت كيفية اختيار الشعارات الرنانة، والعزف على مشاعر الناس، ومخاطبتهم بما يحبون، تعلمت العزف، فعزفت.

٣

اللهم لا تجعل في عملنا شيئا لأحد سواك، هكذا كنت أبدأ حديثي في القناة الدينية التي كنت أطل منها على أنصاري وأحبائي، نفس الحلقات التي كنت أطل منها، تم استخدامها بعد ذلك للتدليل على أنني كنت من الذين توقعوا وتنبئوا للثورة، التي أطاحت بمبارك، أو هكذا ظننا، قلت مرة في إحدى هذه الحلقات التي أذعتها عام ٢٠٠٨، أسأل الله العون يقول تعالى. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩]، رددت الآية الكريمة، ثم هاجمت الإعلام بقولي: المشكلة أن التلفزيونات دي لا تتسع للحق الكامل، لا تتسع للإيضاح الكامل، كل فم ترونه على هذه الشاشات يحيط به عسكر، يحيط به حرس.

يا للعجب.. كيف كانت رؤيتي نافذة آنذاك؟! كنت أقول هذه الكلمات قبل الثورة بأعوام، بعدما تلقيت هزيمة قاسية في انتخابات مجلس الشعب عام ٢٠٠٥، كنت قد فقدت الأمل تماما، حينها زارني عبد القوي بيه الجمل لأول مرة، إنه أحد أهم الطواغيت، الذين عملوا كرباط في حذاء من ضمن الأحذية القاسية التي حرست مبارك، زارني، وحذرني من الحديث في السياسة في البرنامج، لهذا كنت أتعمد دائما التلميح من بعيد، قال لي آنذاك: أهل بيتي بيحبوك يا شيخ حمزة.. يا ريت تركز على الكلام في الدين.. عاوزين نفضل نتفرج عليك.

استقبلت تهديده ساخرا مستهزئا، كنت على ثقة من سهولة إيذائي، النظام فعلا كان فاجرًا، يزوِّر بكل فجاجة، يضربنا بالبلطجية المرتزقة، ثم يعلن أننا لم نكن على قدر المنافسة، شباب الدقي الذين كنت أحفِّظهم القرآن عامَي ١٩٩٨ و١٩٩٩، هو نفسه الذي شب وكبر على محبتي واتّباعي، ووقفوا بجواري في دائرة الدقي، كانت أيامًا صعبة، جريدة الأهرام صبيحة يوم الانتخابات الموافق ٩ نوفمبر ٢٠٠٥، افتتحت عنوانها الرئيسي بمانشيت يقول: «مبارك يدعو الناخبين لاختيار نواب الشعب في انتخابات حرة تحت إشراف القضاء». في الركنين السفليين من الصفحة الأولى، كان هناك إعلانان لرجال أعمال الحزب الوطني، وفي الصفحة الرابعة من الأهرام كان هناك مانشيت رئيسي، وموضوع كبير، يجاور صورة نجل المخلوع؛ جمال، المحروس، الذي كان قد عقد مؤتمرا انتخابيا لدعم مرشحي الحزب الوطني في مدينة نصر،

خرجت الجريدة بعنوان: «جمال مبارك: المواطن المصري هو جوهر سياسات الحزب الوطني».

يا حبيبي.. فعلا تأثرت.

أتذكر كل صفحة من صفحات عدد الأهرام في ذلك اليوم، خصص صحفيو النظام آنذاك صفحاته كلها للترويج لمرشحي حزب مبارك الوطني، في المعركة الانتخابية الأشد ضراوة، كان هذا هو المجلس قبل الأخير الذي نجح الإخوة بالجماعة في الظفر بثمانية وثمانين مقعدًا من مقاعده، مات الكثيرون في المعركة الانتخابية التي جرت في ذلك العام؛ ٢٠٠٥، كان عام الانتخابات البرلمانية والرئاسية الدامية، في نفس الصفحة التي تصدرها جمال مبارك، كان هناك حوار صحفي آخر لفتحي سرور، يقول فيه: لم أنفق جنيها واحدا على دعايتي وأسجل للمرشحين الذين يخوضون المعركة ضدي شجاعتهم، يا للغرور! بجانب كل هذا التزوير الفج، لم تشأ أن تواجه أحدا في الانتخابات.

مات الكثيرون، نعم أعترف مات الكثيرون، وقتل الكثيرون عام ٢٠٠٥، ولكن الشهداء الأبرار الذين صعدوا السماء بعد تولي مرسي كان أمرهم أفدح، هل سقناهم جميعا إلى المقتلة؟ كلا، هذا ليس صوت ضميري، إنه حديث الإفك، كانوا يحاولون التنصل من دمائهم، التي سالت في ذلك العام، ٢٠١٣، عام المذابح بحق، الشباب يؤمنون بالله، ويؤمنون بنا، لأننا نتبع الله، ونريد أن ندافع عن ملته، وشريعته، ونريد تطبيقها في الأرض كما أراد، فكانت المذابح، مذبحتا رابعة والنهضة، ومعركة المطرية، وضربات

الثأر للذين سُفكت دماؤهم في كل هذه المذابح. كانت أولى هذه الضربات الثأرية المهمة للانتقام من مأمور كرداسة ونائبه، لم يفعلا شيئا لنا، كنا فقط نرغب في هدم المركز، وقتل بضعة عساكر، هذا هو الوجه الآخر لي، في العلن كنت أدعو الشباب للأمل والعمل، وفي السر كنت أشكل كتائب المقاومة، أي عمل سياسي يحتاج لعمل سري، حتى الليبراليون كوّنوا خلايا سرية للانتقام من الإخوان، لم أصدر أمرا بقتل مأمور كرداسة، لكن ركبهم الغل، مولانا الإمام الشهيد أيضا لم يكن يتمنى قتل «الخازندار» لكن أعضاء التنظيم الخاص طوّروا المهمة، نفس الأمر حدث يوم ١٤ أغسطس الدامي. الطائشون دمروا كل شيء، من العبث أن ترسل جموعًا حبيسة ظلمة الهمجية وتطلب منها أداء مهمة دقيقة، خرجت الجموع وراء الطائشين وسكبوا ماء النار على كل من كان في المركز، وقتلوهم شر قتلة، نحن أيضا صرنا قتلة، حينما تسيل قطرة دم واحدة، تصاب ذرات الهواء بالهستيريا، فيتنفس الجميع إكسير المذءوبين، الدماء التي سالت في البلاد نقلت ذرات تلقيح دموية في الهواء، صرنا سفاحين، من تسلح أطلق لنفسه العنان، ومن عجز أن تمتد يده بالبطش أيّد وفوّض ووافق وحرّض.

تأتيني الأخبار وأنا هنا قعيد، خلف الأسوار، حبيس مثل الفأر، تعمدوا القبض عليّ أنا وكل الكبار، ليفصلونا عن الإخوة الشباب، ظنا منهم أننا نقودهم، كيف وهم أشد منا حمية وغيرة على الدين؟! فضحوا بدمهم الحامي تخاذلنا، صدقونا، وألقوا بأرواحهم في أنياب القتل، تحولوا إلى مصفاة من الرصاص، والحقيقة نحن الذين وضعناهم في الصفوف الأولى.

المواجهة الوحيدة التي أعترف بتدبيرها، هي بين السرايات، التي يحاكمونني عليها، حضرتها ولم أحضرها، كنت آنذاك طليقا، قبل أن يقبضوا عليَّ فيما بعد المذبحتين، خرج مرسي يخطب وعلى ملامحه ارتياع الفأر الحبيس، ظل يهذي متشبثا بشرعيته، قبل إعلان عزله بليلة، كنت في كرداسة أحاول إثناء شفق عن الذهاب إلى البناية الضخمة المواجهة للجامعة، كانت تعرف أن رجالي يحاولون فتح طريق في هذه اللحظة إلى ميدان النهضة، لإمداد الإخوة في الاعتصام بالسلاح والمؤن وبالفتيات القبطيات القاصرات لزيادة أعداد المعتصمين، تناهت إلينا أنباء تصدي بعض الأهالي لفرق الشباب الذين أرسلتهم إلى هناك، حاولت شفق أن تمنع نقل الفتيات القبطيات، قبضت في قسوة على شعرها، وأنا أصرخ فيها: ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ ارجعي.. ارجعي.

كنت حينما أغضب يتحشرج صوتي، ويحتبس في حلقي، هممت بها، وأقبلت عليها أشدها من شعرها، أطلقت صرخة، فقلت وجبيني يلمع بعرقه، وعيناي تتسعان من انفعالي وضغط دمي يرتفع، وصوتي يحتقن، ويزمجر كدفاية كهربائية خربة: والله أبعترك.. فاهمة.. والله أبعترك يا نصرانية يا بنت الكلب.

أليس من الغريب أن تضمحل علاقتي بشفق، بعد هذه السنوات، التي عشقتها فيها؟! تشاركنا هذا المشروع الطموح، لاسترداد ثرواتنا المشتركة في بين السرايات، ثروات جدها بقطر الجاولي الذي امتلك أراضي عزبة الوقف، بحجة ممهورة بخاتم الخديوي، وثيقة قانونية، عجبت أشد العجب، حينما رأيتها للمرة الأولى في

قاعة المحكمة، وثيقة أثرية، كشفت لي جزءًا من تاريخ أسرتي الذي لم أعرفه، وصراع قديم، دار بين جدي، مولانا عبد القدوس أبو نور، إمام الخديوي إسماعيل، وبين جدها بقطر الجاولي، كان من الغريب أن ألتقي شفق عام ٢٠٠٩، لنضع النهاية لقصة، بدأها جدها بقطر وجدّي عبد القدوس.

٤

جلست أمامي في حجرة مكتبي، كنت أمسك مسبحتي، وكانت تقبض على حقيبة أوراقها في حرص، وتتحسس خصلات من شعرها بعينين شاردتين، قلت لها: بصي يا ست الكل.. أنت بنت ناس.. ومصر.. مش البلد اللي تقدري تاخدي فيها حقك بسهولة.. هنا القانون صورة وزينة على الحيط، لما ييجي لك ضيف.. توري له الصورة.. وتتفشخري بيها كزينة.. لكن عمرك ما هتستعمليها.. أو تعرفي تستعمليها.. ينفع مثلا تاخدي الصورة اللي على الحيطة عشان تعليقها على صدرك وإنتِ نازلة الشارع؟

تعمدت أن أختبرها ببعض الكلمات التي تخترق جدار صمتها بسهولة، وتخرجها عن انفعالها، مثل تتفشخري، وصدرك، في الحقيقة كنت أقولها وأنا أحدق في صدرها، كانت ترتدي بلوزة حابكة، لم يكن ثدياها ممتلئين، لكنهما كانا متناسقين مع عودها الرشيق، وخصرها النحيف، ورقبتها الطويلة المشدودة، لم يبد عليها أدنى تأثر بكلمة صدرك، فواصلت: الصورة اللي على حيطة

بيتك.. عاملة زي القانون اللي في مصر.. ليه إحنا حاطين القانون في مصر على حيطة بلدنا.. عشان نقول إن بلدنا فيها قانون.. طب هو بلدنا فيها قانون؟ أبدا.

التفتت إليّ، وكادت تتفوه بكلمة، فسارعت قائلا وأنا ألوح نحوها بمسبحتي: أكبر دليل على ذلك.. إنك رفعتِ قضية.. واترفضت.. ليه؟ لأنك نصرانية.. ولأن القانون على الحيط.

تراجعت ووجهها ممتقع، ثم قالت في صوت خافت: والحل؟

قلت: أنا عندي لكِ مفاجأة.. جد جدي.. عبد القدوس أبو نور.. كان عايش في نفس المنطقة اللي إنتِ بتحكي عنها في الحجة.. أقصد اللي جد جدك بقطر الجاولي بيحكي عنها في الحجة.. نفس المنطقة دي.. عزبة الوقف.

ظهرت على شفتيها ابتسامة مستهزئة، مستهينة بما أقول، قلت في إصرار: أنا على استعداد أن أثبت لك ما أقول.. بدون أن تحكي لي قصة بقطر.. جدنا حكى لنا حكاية قعدنا ننكرها.. في الحقيقة.. هي مش الحكاية الحلوة اللي الواحد ممكن يفتخر بيها.

قالت في فضول حذر: إيه دي بقى إن شاء الله؟

اعتدلت في مقعدي قائلا في زهو. الخديوي إسماعيل.. كان بيصلي ورا جدي الكبير عبد القدوس.. وفي يوم طلبه بعد صلاة العشاء.. طلبه يستشيره في حكاية كده.. كان عاوز يعرف يرضي ربنا إزاي.. لو الواحد ارتكب إثم كبير أو خطيئة.

اعتدلت شفق في مقعدها ومالت بجسدها نحوي، فواصلت

مزهوًّا: هحكي لك اللي حصل من غير مبالغة.. الحكاية حكاها والدي.. ووالدي ماعندوش أي سبب يخليه يكدب على أبناء محمد علي.. المهم.. إسماعيل اعترف لجدي أنه غلط مع خدامة.. خدامة قبطية.. أو تحديدا.. زوجة أحد رجّالته.. المهم إن الخدامة النصرانية حملت.. وماكانش جوزها بيخلف.. دي كانت فضيحة طبعا، بس كان لازم تتلم، لكن هل ينفع إن الخديوي يتجوز قبطية؟ هل ينفع إن الخديوي يعترف بطفلة سفاح؟ لا ما ينفعش، لكن ينفع إنه يؤمن مستقبل البنت، ما هي في الآخر بنته، ويراضي خدامه، أقنعها إنها تسمي البنت باسم زوجته.. شفق هانم.. اللي هو اسمك.. شُفتِ الصدف؟ وكتب له عزبة الوقف، طبعا جدي كان عارف الحدوتة كلها، فحفظ سر الخديوي، لكن جدك قرر يطفش، ساب الجمل بما حمل، الخديوي انطرد بره البلد، والبنت اللي من صلبه.. أخدتها أمها، واختفت مع جدك.

قالت شفق: عندك ورقة بتحكي الحكاية دي زي ما بتقولها كده؟

أطلقت ضحكة مجلجلة، ودحرجت كرتين من كرات السبحة، قائلا: سبحان الله.. هي دي حكاية تنكتب في ورق يا أخت؟ ثم إننا قعدنا نحكيها لبعض ونحتفظ بيها لأن في جزء منها دلالة روحانية على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة، الإسلام الذي ستر بناتنا، وحماهن من الفتنة، والاستسلام لأي طاغٍ.

ارتسمت على ملامحها علامات الامتعاض، والكراهية، قلت متفرسا: لو عاوزة الأرض دي ترجع لك.. فيه حل كويس.

تلاشت العلامات السابقة من على وجهها وحلّ محلها الاهتمام،

فقلت في جرأة: كما قلت لك.. لن ينفع القانون في هذا المسار، ليس أمامنا سوى حل واحد، نشتري البيوت التي في المنطقة، بيت بيت، لن يعترضنا أحدهم، أو يثير الغبار حولنا...

قاطعتني قائلة: مين اللي يشتري؟ عزيز مش هيوافق؟

صحت في دهشة متظاهرا بالأسى: معقولة؟ شيء مؤسف.. ألا يشاطرك أحلامك؟

قالت في ضجر: هذا الحل غير مُجدٍ. عزيز اتخانق فعلا مع شاندور اللي أنت شُفته.. محتاجين حل تاني.

تظاهرت بالتفكير، وأنا أتفرسها، وأحدث نفسي: هل سترضين؟ يا له من هدف بعيد المنال. هل يمثل الأمر لها هدفا تتحمل من أجله التضحيات؟ قلت متظاهرا أن الحل معقد، وأنه صعب تحقيقه، أو تحمله، كنت أدحرج كرات السبحة في سرعة، حتى إن نظراتها تعلقت بها، فكدت أبتسم ابتسامة ساخرة، قبل أن أقول: أنا مستعد لشراء البيوت من أجلك؟ ولكن؟ كيف سيئول الأمر إليكِ؟

كادت ملامحها أن تتهلل فرحا، لكنها تراجعت، استغرقت هي أيضا في التفكير، ثم قالت: أقدر أكتب لك إيصالات أمانة.. أي ضمانات ترغبها أقدر أكتبها لك.. اللي تشوفه.

أكاد أسمع دقة كل حبة سبحة في هذه اللحظة، صمت مريع غلفنا، حتى إنني اضطررت لإيقاف التسبيح، قلت متظاهرا بالتفكير العميق، وأنا أضم قبضتي على المسبحة: في الحقيقة.. ستضطرين فعلا أن تكتبي لي ورقة.. لكنها لن تكون إيصالات أمانة.. حد الله.

مالت نحوي، وهي تمعن فيّ النظر، كأنها تحاول أن تقرأ أفكاري قبل أن أعبر عنها، ثم قالت: مش فاهمة! أي ورقة تقصد؟

حدجتها بنظرة طويلة، ثم وضعت المسبحة على سطح المكتب، وتأملتها مليا، كانت كرات السبحة قد انطلقت متحررة من عرق قبضتي، كأنها تتنفس الهواء القليل بين وجهي ووجهها، رفعت وجهي تجاه شفق قائلا: عقد جواز.

ثم واصلت التحديق وأنا أنتظر ردود أفعالها، لكنها ظلت متجمدة في مقعدها، كأنني لم أقل شيئا، كدت أكررها، لكنها تحدثت فجأة بعد دقيقة كاملة من الصمت، تحدثت قائلة في خفوت: عقد جواز؟ أنت إيه.. بتفكر إزاي.. أنا مسيحية.. أنا متجوزة!

قلت بحزم: تدخلي ببركة الله ونعمته في الإسلام.

كنت أقولها كأنني أعرض عليها شراء سيارتها مثلا، ظلت محدقة فيّ كأنها تحاول استيعاب ما أقول، كأنها تحاول أن تزن كلامي، هل أساومها، أم أهددها؟ هكذا كنت أشعر أن أفكارها تتأرجح بين الخاطرين، لكنني لم أكن أساومها أو أهددها، بل كنت أطرق بابا من شدة غلقه لم أظنه أبدا أن ينفتح، لكنه فتح بإذن الله، نهضت تائهة، وهي تقول: لازم أفكر

كدت أضيف كلمة أضغط بها عليها، لكنني تراجعت، خشيت أن أتفوه بشيء يفسد الأمر كله، كبحت جماح نفسي بينما أتأملها وهي تنهض، متفحصا ثنايا خصرها النحيف الرشيق، ضبطت نفسي أتأمل مؤخرتها باشتياق كامل، وشيء في جسدي ينتصب، لم أغض

بصري في هذه اللحظة، بل واصلت التحديق في ظهرها الفارغ الذي لم يتوارَ تحت بلوزتها الحابكة، في هذه اللحظة تأكدت أنني أستطيع أن أنفق آخر قرش في ثروتي، لأعانق هذا الجسد، وأعتصره في صدري.

٥

أنت مش عارف الورطة اللي أنت متورطها يا شيخ حمزة؟ أولا إحنا لو فتحنا القضية دي.. هنقضي على أي أمل لك في أي حاجة بعد كده.. أنت ممكن تخرج كمان سنتين في قضية بين السرايات وترجع تشتغل في السياسة تاني، وتكسب انتخابات مجلس الشعب، ما أنت عارف.. مش هنفضل ضدكم طول العمر، أول ما هيبقى فيه هبل تاني.. هنرجعكم تاني.. ونسيبكم تشتغلوا شوية.. عشان مايبقاش فيه غيركم وغيرنا.

قلت ساخرا وأنا أبتسم في مرارة: وأنت فاكر إننا هنصدقكم يا عبد القوي بيه.. ما خلاص.

ثم اعتدلت وأنا أنظر تجاه نافذة باب الزنزانة الذي يقف خلفه: أنت فاكر إننا هنصدقكم بعد كده.. ولّا ممكن نتعاون معاكم في أي ظرف تاريخي. ما خلاص يا عبد القوي بيه.. ما خلاص دبحتونا.

ضحك الرجل، تدحرجت ضحكاته مثل كرات سبحتي التي أدحرجها بعصبية وشرود، ثم قال: وإحنا نعمل إيه بس يا شيخ حمزة؟ ما أنتو اللي قلتوا غزوة الصناديق.. لو مش مقتنع بصناديق

الانتخابات.. اللى جابت الرئيس.. عندنا صناديق الذخيرة.. وصناديق تانية.. صناديق طويلة كئيبة.. بيسموها التوابيت.. اختر يا صديقي الصناديق الأنسب لك.. كلها صناديق.. وكل صندوق منها مفتاحه معانا.

شعرت بصداع يفتك برأسي، ألم مبرح، كأن أحدهم ضربني بقسوة عليه، قلت: ما المطلوب الآن؟ دمنا وأسلتموه.. وثقنا فيكم.. وأعطيناكم الأمان، انقلبتم علينا، أيدناكم في كل موقعة وفي كل ضيقة، ضربتونا في الميادين وذبحتونا بلا رحمة، منحناكم العهد في دستورنا، ألقيتم به في القمامة، وبددتم حلمنا في حكم ثوري مدني...

قاطعني بضحكة ساخرة مجلجلة، قائلا: حكم ثوري مدني.. ما تقولش كده يا شيخ حمزة.. ولّا نسيت؟ إحنا زي بعض، كل فريق منا بيدور على السلطة، أنتم بترفعوا شعار الدين، وإحنا بنرفع شعار الدولة، والاتنين؛ الدين والدولة، عمرهم ما ينفصلوا أبدا عن بعض، دين، دولة، إحنا كنا سايبينكم توزعوا أكفان على الناس الغلابة، وتغسّلوهم، وتعملوا لهم قرافة صدقة، وكنا عارفين إنكم بتخطفوا البنات المسيحيات، كنا شايفين كل ده، وعارفين كل حاجة، كل رصاصة ضربتوها على مسيحي في أي بلد، أو كل عيلة حرقتم قلبها على بنتها اللي خطفتوها، كنا شايفين وعارفين، ومباركين، في الآخر اللى عملتوه في الناس رجع لكم، الجزاء من جنس العمل يا شيخ حمزة. وكله عندنا في الدفاتر والملفات.. ولّا أنت فاكر إنكم حرقتوها في الورق الأبيض اللي اتحرق في أمن الدولة؟

ثم أعقب جملته بضحكة مجلجلة أخرى، كنت أشعر أن حديثنا مسجل، فقلت: بص يا حضرة الظابط.. إحنا لا يمكن نخلص.. النار لم تحرق إبراهيم، والسكين لم تقتل إسماعيل، والبحر لم يغرق موسى، والحوت لم يأكل يونس.. لن تنتصروا علينا.. نحن فكرة لا تنتهي.. ومذابحكم ستضع نهايتكم.. دمنا سيفجر أمعاءكم...

قاطعني بضحكة ثالثة، قبل أن يهتف بكلمات تقطعها ضحكاته: أنا عرفت العيال اللي أنتو بتقعدوهم على صفحاتكم بيجيبوا الكلام ده منين.. النار لم تحرق إبراهيم.. السكين لم تقتل إسماعيل... صدقني يا شيخ حمزة.. المذبحة دي كانت مطلوبة.. وغصب عنا.. يا أنتم.. يا إحنا.. كل مذبحة في التاريخ كان ليها مبرر.. البلاد الكبرى بتنهض بمذبحة.. بص كده: محمد علي بنى مصر بعد ما ذبح المماليك.. الأمريكان بنوا أمريكا بعد ما ذبحوا الهنود.. أنتو نفسكو كان عندكم استعداد تدبحوا الشباب اللي اتجمعوا حوالين الاتحادية.. وموّتم منهم عشرة.. ولّا مش فاكر؟

قلت بصوت متهدج: حسبنا الله ونعم الوكيل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. إلا المسلمين.. لا يرتكبون المذابح.. لا نفعل ما يفعله الانقلابيون.. سيسلط الله عليكم بذنوبكم ودمنا ذلا ومهانة لا يرفعهما إلا إذا تبتم واعترفتم وأبنتم، الله ينتقم منكم.. الله ينتقم منكم...

قاطعني مرة أخرى قائلا: المسلمون لا يرتكبون المذابح.. مين اللي حاصر عثمان بن عفان؟ مين اللي قتل الحسن والحسين؟ باقول لك إيه يا شيخ حمزة.. أنا مش جاي أتكلم معاك في التاريخ..

أنا عندي سؤال ولازم آخد إجابته.. شفق.. فين؟ لازم ملفها يتقفل هو كمان؟

قلت: ماعرفش.. ماعرفش.. أنا هخبيها وأنا هنا إزاي؟ أنتو مش هجمتم على الفيلا ومالقتوش فيها حد.. هي سابت البيت من ٣ يوليو.. من ليلة المعركة اللي حصلت في بين السرايات.. هجّت.. شوفوها أنتو بقى.. أنتو ما بتعرفوش تعملوا حاجة غير الدبح؟

ابتعد الصوت، وهو يقول: هنلاقيها يا شيخ حمزة.. هنلاقيها.. ومش هرجع لك تاني.. خليك فاكر إنك أنت اللي رفضت تتعاون.

هتفت محاولا كتمان صرخة غضب وغل: في كل بيت تيتم أطفاله.. كل زوجة فقدت زوجها.. كل أم ثكلى.. ستنصبّ دعواتهم جميعا على رءوسكم مثل حمم بركان.. كل هذه البيوت التي أخذتم منها الرجال لنحرهم، وذبحهم، وثقب رءوسهم برصاص قناصتكم.. تعود أرواحهم إليها كل ليلة، تواسي أطفالهم اليتامى، وتكفكف دم زوجاتهم الصابرات، وتربط على قلوب أمهاتهم الثكالى، قبل أن تستل المناجل، التي ستجز رقابكم.. الانتقام سيعود.. الانتقام سيعود.. وسنثأر.. سنثأر.. سنثأر.

ابتعدت الخطوات، وبدا أن جدران السجن تردد كلماتي بلا جدوى، فهتفت في جزع: هي المحنة.. هي المحنة.. هي المحنة.

شفق إبراهيم

١

كذب كذب كذب كذب كذب كذب كذب كذب كذب كذب.. كذب.. كذب.. كذب.. كذب.. كذب.. كذب.. يتنفسون كذبًا.. يأكلون كذبًا.. يشربون كذبًا.. يتغوطون كذبًا.. حتى عندما يضاجعون.. يتصنعون متعة كاذبة.. حياتهم كذب متراصّ في دأب.. قطع عملاقة من الأكاذيب يراكمونها بصبر النمل يوما بعد يوم، كأنهم يخزنون ساعات أيامهم على مدار حيواتهم الكاذبة أرصدة متتالية من الكذب تخوفا من نفاد الكذب من العالم، لكن العالم تنازل لهم عن رضى واستسلام عن ودائعه من الكذب، استحوذوا عليها جميعا، صار الكذب شارة وعلامة، صار أعلاهم وأسفل منهم، يغلف شرايينهم بجدران سميكة قاسية مثل جدران المحارة التي تنطبق على ذرة الرملة حتى تصبح لؤلؤة.

كيف تحولت هذه البقعة من العالم إلى مهبط الأديان، يتفاخرون ويقولون: هبط علينا الأنبياء.. لم يرسلهم المولى إلى غيرنا.. ألا تعرفون السبب؟ لأنكم كذابون.. أفاقون.. منافقون.. تأكلون

السحت.. وتذهبون إلى صلاة العصر، وتدبرون خطف الفتيات القاصرات من ذويهن ثم تمضون إلى صلاة العشاء، ثم تعقدون بعدها مجلس حرب، وتتآمرون على أطهر الشباب، الذين تنعتونهم بالحشاشين، وأنتم.. ماذا تفعلون؟ ألا تحششون أيضا؟ يا للعجب.. يا للعجب منكم!

ثم إنني أنا أيضا صرت كاذبة مثلكم، غيرت ديني ودمرت حياتي من أجل عبث وأنا أظنني وجدت ضالتي.. ستغيرين دينك يا شفق لأن الزوجة النصرانية لا يمكن أن ترث، كانت هذه أول كذبة كذبها عليَّ الشيخ حمزة، بعدما عرفت أنه كان بوسعي أن أرث حتى إذا ظللت قبطية، ستغيرين دينك يا شفق لأن الناس سينعتونكِ بالداعرة النجسة.. لكنكِ إذا أشهرت إسلامكِ فسيصفونكِ بالهادية المهتدية.. إذن سأترك ملّتي وأتحول إلى ملة أخرى ليراني الناس هادية مهتدية.. وليست داعرة نجسة... كذب.. كذب.

لم يكن هم وحدهم من يكذبون، شاركهم في ذلك الآخرون أيضا، كذب الكهنة والقساوسة على أجدادي، وأقنعوهم أنهم وحدهم يمتلكون مفاتيح النعيم، وحقول الرب الساكن في السماء، أوهمونا أن بأيديهم توصيل أصواتنا لأذن يسوع، وإلى طبطبة يده الحانية على أكتافنا وقت الحيرة والتيه، ووقت الخطيئة، هددونا بتوبيخ الرب وبغضبه، أو أن يفتضح سرنا، جميعهم كذبوا، جميعهم كذبوا وتاجروا بالكذبة وساقوها إلينا عدة مرات، وكل مرة كنا نشتري بضاعتهم المغشوشة ونحن نظن أن فيها النجاة هذه المرة، لكنها كانت تتبخر ولا يبقى منها سوى الكذب.

بدأ عزيز يشك في عقلي، ويتصورني مجنونة، ولِمَ لا أكون مجنونة؟ أليس الجنون هو أقصر طريق بين نقطتين؛ اللامبالاة والحكمة؟ من فينا يستطيع أن يتخلى عن الجنون، من؟ العاشقة، التي تدمر بيتها، من أجل حبيبها، ألا ينعتونها مجنونة، ويرسلونها إلى المصحات النفسية، كي تعود إلى رشدها؟ المهووسة دينيا، ألا يرسلونها هي الأخرى إلى الكهنة والقساوسة ويقحمونها في جلسات النصح والوعظ؟ الثائرون، المتمردون، المختلفون، الذين لا يرضون بالقليل، الطموحون، الذين يرون الأمور بشكل مختلف، الذين لا يحترمون القوانين، ولا ينافقون، ولا يرتاحون للوضع الراهن، الذين يرغبون في التغيير للأفضل، أليس كل هؤلاء مجانين، وبعضهم يتعرض للتنكيل، لمجرد أنه صدح برأي مخالف، أو معارض للرواية السائدة؟ ألا تطحنهم عجلات الهستيريا، فيتم إيداعهم مع الشاذين جنسيا، والمدمنين والمنحرفين، والمبذرين، والبخلاء، والمنحلين، والغارقين في غيابات الشهوة، فتفرم عجلة الهستيريا من يعجز عن تصديق جنونه، وتحقيقه؟ أما من ينجو من الجنون الكامل، بعدما يعبر الطريق القصير بين النقطتين، إلى شروق شمس الحكمة، والتحقق، فيصبح آمنا من خوفهم، وفزعهم من جنونه.

لم أملك سوى السخرية من الهستيريا التي تطحن عجلاتها الجميع بلا استثناء، تطحنني لمجرد أنني قبطية، وتطحن عائلتي لمجرد أنهم مسيحيون، المشكلة هنا أنك مسيحي، في بلد لا يعرف أحد في الحقيقة أن أصله مسيحي، وأن سكانه مسيحيون. مسيحي، أي أنك يجب ألا تكون صداميا، يجب أن تنزوي، لا يشعر أحد أنك مسيحي، أي تنطق اسمك بخفوت، فلا تقل عزيز إلا وأن

تتبعها بمحمد، أو بأحمد، إنما إذا قلت عزيز بطرس فيني فأنت في مأزق بالتأكيد.

كلا لست متعصبة.

انظر للتنهدات التي تنبعث حينما يتأكد أحدهم من اسمك، أو يستجوبك بحثا عن جدك الثالث، ليطمئن إلى أصلك. راقب الحاجبين اللذين ينعقدان في ترقب وريبة، كنت أجيبهم حينما يسألونني عن اسمي: شفق إبراهيم. أقولها وأنا أترقب في استمتاع بالسخرية من شعور أحدهم بالحنق لعدم اطمئنانه من هويتي الدينية، بمجرد أن أستدرجه إلى فخ الحيرة، أقول له اسمي ثنائيا شفق إبراهيم فيصمت، في داخله يتفجر نبع من الفضول والحيرة، والحذر، مسيحية أنا أم مسلمة؟ الفضل في ذلك لنبي الله إبراهيم، يجعلنا شركاء في التسمية، يوحد بيننا، نسمي أطفالنا إبراهيم، فتصيب الحيرة الجميع، ولا يهدءون إلا حينما يتعرفون على جدنا الثالث، طنوس، اسمي بالكامل شفق إبراهيم طنوس، هنا ترتسم البهجة، المصحوبة بارتياح اليقين، وافتعال التسامح والترحيب الديني بالآخر، الذي نتراجع أمامه، يكتسب الآخر قوة وهيمنة باطمئنانه لمن يتعامل معه، ويغلف ذلك بتسامح زائف، فيما ننسحب نحن إلى الخلف، ونتراجع، وننكمش داخلنا.

المسيحيون يزحفون على الحيط، المسيحيون تلتصق ظهورهم إلى الحيط، المسيحيون كائنات مسالمة لا تصادمية، لذلك لا يقتلهم سوى المختلين، والمجانين، الحاصلين على شهادات معاملة الأطفال، هؤلاء يحلو لهم فجأة أن يفجروا أنفسهم في كنيسة، أو

يطلقون النار على شعب الكنيسة أثناء خروجه من أحد القداس، لماذا لا تعترفون أنكم تكرهوننا؟

كنت أتحدث مع أحدهم عن الحضارة الفرعونية، وقلت له إن المصريين غيروا ديانتهم مرتين، الأولى حينما تركوا عبادة رع وآمون وآتون، وتحولوا إلى الديانة المسيحية، والثانية حينما تحول بعضهم إلى الإسلام، فاجأني هذا الصديق، بخراء من كتاب تاريخ لأحد الرحالة الإسلاميين، يقول فيه إن المصريين أصلهم كان من العرب، وإنهم ارتحلوا إلى شبه الجزيرة العربية، ثم عادوا مرة أخرى إليها بعد إسلامهم، فوجدوا العقيدة المسيحية انتشرت وعم الكفر بقاع وأنحاء مصر، التي غادرها موسى باليهود، بأمر من ربه، ليطهر الأرض للإسلام، إلا أن المسيحيين انتهزوها فرصة، ودنسوها في هذه الفترة بوثنيتهم، هكذا قالها بكل يقين.

أين كان الله في هذه اللحظة بينما نحن ننتهزها فرصة وندنس مصر بوثنيتنا؟

لماذا لم يتدخل إلهكم لمنع دنسنا؟

كيف أرد على هذا الكلام بغير السخرية، هؤلاء هم المتعصبون، الذين يجب وضعهم في سفينة الحمقى، وتركها تبحر بهم بلا بوصلة، حتى تصطدم بجبل جليد يليق بهم، حقا إن كل ساخر مجنون، وكل مجنون لا يستطيع المحيطون به تحمله، أين قرأت هذه العبارة؟ بالتأكيد قرأتها في كتب المجانين التي أحملها دوما، لكن كيف تحولنا إلى غرباء هنا، في هذا البلد؟ كان هذا يثير امتعاضي، نحن دفعنا ثمنا غاليا في كل شيء، وصرنا في النهاية

أقلية. رحبنا بالاحتلال العربي لنتخلص من الرومان، ثم بدأ طمسنا، طمس حضارتنا، طمس هويتنا، تغيير أسمائنا، إذلالنا إذا أردنا الاحتفاظ بعقيدتنا، بدأت بفترة حمل عروق الخشب فوق أكتافنا، حتى ازرقّت عظامنا، فصرنا عضمة زرقا، الأسوأ هو ما جاء بعد ذلك، حينما استغلنا كهنتنا وأساقفتنا في عقد صفقات الانتخابات، وترسيم الرهبان، وإقامة الكنائس في كل مكان خارج مصر، وإشعال الحرائق داخلها في سبيل إقامة قداس بين أربعة جدران من الطوب الأحمر

سينوت حنا، من يعرفه؟ هل احتفظ كتاب التاريخ بصفحة تذكر تضحيته، عندما تلقى في صدره رصاصة الغدر، ليفدي مصطفى النحاس ذات يوم؟ من يتذكر أن ويصا واصف هو من حطم سلاسل إسماعيل صدقي، التي سلسل بها أبواب البرلمان، ليدخل البرلمانيون ويرفضوا دستوره، ويستردوا دستور ١٩٢٣؟ إنه تاريخ ملقى في القمامة، لم يتبق منه سوى كمباوند يرغب عزيز في الحياة فيه، منعما بملايينه، ثم يتهمني بالجنون، من فينا المجنون؟ إنه أنت يا عزيز، أنت الذي ترغب في الحياة داخل شرنقة في بلدك، أنت لا تعرف أنها بلدك، تكره أن تطالب بحقك، لمجرد أنك لا ترغب في إثارة المشاكل، لا تريد أن تكون الخارج عن النص، المختلف، المثير للقلاقل، لمجرد أن الأوضاع تغيرت، ولم يعد البلد بلدنا.

يراني عزيز مجنونة، وهو الذي أتى بفكرة مجنونة، لبناء ناطحة سحاب في دبي، وسط الماء، أين جنونك يا عزيز؟ لقد أحببتك من أجل هذا الجنون، أحببت فيك إبداعك، وشطحاتك، وخيالك،

فلماذا تتبرم الآن من جنوني؟ لماذا تضيق من عودتي فجأة إلى نفسي، وإصراري على أن أنتزع حقي، حقي في طرد هؤلاء من أراضي أجدادي، بمنطقة بين السرايات.. نعم، أجدادي، الذين امتلكوا عزبة الوقف، الواقعة بمنطقة بين السرايات بين سراياتَي البرنسين؛ حسن وحسين ابنَي إسماعيل.

عزيز لن يصدق هذه الرواية؛ لذا لم أغامر بإفشاء السر، لكن حلمي لم ينقطع باسترداد هذه الأرض، الواقعة في مواجهة الجامعة، التي كانت قديما فدادين البرنسيسة فاطمة، بنت إسماعيل، هنا كان أجدادي يمتلكون عزبة الوقف، صارت الآن محلات ماكدونالدز وكوك دوور ومكتبات قبيحة الشكل، لتصوير المستندات، ولتجارة الملازم علانية، والامتحانات سرا، على يسارها سرايا الأمير حسين كامل بن إسماعيل، الذي كان سلطان مصر، تحولت سراياه الآن لكلية الفنون التطبيقية، يدخلها طلبة وأساتذة جامعة لا يعرفون قيمة هذه السرايا، أما على يمينها، فكانت سرايا البرنس حسن، اختفت آثارها تماما، اقتطعت الشركة البلجيكية حديقتها لتبني معملًا للبيرة عام ١٨٩٩، واختفت السرايا تماما ومحيت من الذاكرة بعد وفاة أرملته الأميرة خديجة، ونمَت مكانها شوارع عشوائية.

٢

حينما تزوجني عزيز، كان غريبا مثلي، لكنني لم أتخيل أن تنتهي حياتنا هكذا، يقدم على خيانتي ويرتكب جريمة من أجل الزواج بفتاة البار التي تعرف عليها في أحد المطاعم، فيما أنا غريبة، غريبة

عن دنياي، عن ديني، وعن أهلي، يظنني جننت، وغيرت ديني بإرادتي، ولم يعرف أنني كنت أعرف بعلاقته بفتاة البار، التي تسكن أيضا في بين السرايات.

وجدت في عزيز حينما التقيته للمرة الأولى ما يكمل قصتي، قصته كانت تشبهني، كأن كل الأقباط ولدوا غرباء، أنا أيضا ولدت غريبة، جدي طنوس كان أول من تلقاني في صدره، وعمدني بنفسه، حينما كبرت قليلا، كان يأخذني للتنزه في شوارع جاردن سيتي ويشير على قصورها، ويذكر لي أسماء أصحابها، متى كان هذا؟ عام ١٩٨٥ مثلا، كنت وقتها في العاشرة من عمري، فجأة حكى لي حكاية، طلب مني ألا أبوح بها لأحد، حتى لأبي وأمي المتزمتَين، ركب بي الأتوبيس، كان لم يزل لونه أحمر اللون، فوانيسه مستديرة، متهالكة، لا أتذكر رحلته، ربما عبر الكورنيش. كانت وجهتنا جامعة القاهرة، نزلنا عندها، كان نخيلها العالي أول ما لفت انتباهي، وأثار دهشتي، قال لي جدي طنوس. هنا أراضي أجدادك يا شفق. ظننته يداعبني.

كان يشير نحو كلية الفنون التطبيقية، لم أفهم هذه الحكاية، أمسك يدي في حسم وخوف، وعبر بي الشارع كأنه يتمنى أن يضعني في قلبه، قادني بجوار أسوار الكلية، يعبر بيننا طلبة يافعون، يتأملون رجلًا طاعنًا في السن، بصحبته طفلة صغيرة، يرمقوننا بنظرات فضولية، لم أكن مشغولة إلا بفضولي الطفولي، كنت آمل في نهاية الرحلة زيارة خاطفة لحديقة الحيوان القريبة، إلا أنه ظل يقطع بي مسافات مرهقة، انتهينا من سور الكلية، ووقف أمام مبنى عتيق آخر، قرأ لي فوقه، «المدينة الجامعية»، قال جدي طنوس:

من هنا يا شفق.. من أول هنا.. أراضي جدك الكبير المعلم بقطر الجاولي، الذي كرمه الخديوي إسماعيل ووهبه ملكية عزبة الوقف، بعد تفانيه في خدمته وخدمة البرنسات أبنائه، الذين كانت سرايتاهما تطلان على العزبة.

حسنا يا عزيز.. إذا كانوا انتزعوا من جدك قصره في الدقي، وبنوا فوق حديقته جامعًا للمسلمين، فإنهم انتزعوا من عائلتي عزبة الوقف، أخصب أراضي الدقي، التي كانت تطعم المقيمين بالسرايتين، على اليمين وعلى اليسار، أنا لست مجنونة يا عزيز، كما أنني لم أختل عقليا، لدرجة أن أنسى ارتداء الجاكيت، أو أخذ سلسلة المفاتيح، بالطبع لم ولن أنسى أرض أجدادي المسروقة. أليس من الجنون أن تضع قانونا، لسرقة أراضي الآخرين، بدعوى أنك تقيم إصلاحا زراعيا، ثم تنزع ملكية الأقباط أصحاب هذه الأرض، وتبعثرها على أتباع ملّتك، أو ضباطك، أو المنافقين الذين يزينون لك جرائمك؟ فجأة تختفي الأراضي، وتُمحى الملكيات القديمة، وتنشأ هيئات حكومية، بدفاتر جديدة، لطرد ومحو سكانها، وملاكها، ثم تستمرئ اللعبة، فتعيدها مع كل الأقوام، الذين تحتقرهم، وتعتبرهم أقليات في البلد، تلعبها مرة أخرى بكل جراءة، مع النوبيين، بزعم بناء هرم يخلدك، ويمجد اسمك، ثم تلعبها مرة أخرى مع الأقباط، الذين سارعوا لتأييد تأميم قناة السويس، فإذا بهم يتلقون عقابهم، بنزع أراضيهم، وتأميمها، وتوزيعها على خدمهم من الفلاحين والأجراء المسلمين، بزعم الإصلاح الزراعي. نفاجأ رويدا رويدا، بعقود إذعان، نتحول من أصحاب الأرض، إلى مستأجرين، لا يحق لهم تملكها، ثم بعد قليل، نتحول إلى أغراب، لا يحق لنا الانتماء لهذا

البلد، ثم بعد كثير، يضطروننا للمغادرة، وتغيير محل الإقامة، وإن لم نغادر، يطلقون علينا متطرفيهم، فيقتلوننا كلما حاولنا أن نصلي في الخانكة أو في ميرنامة، في الإسكندرية أو في نجع حمادي، ثم يستخرجون شهادة جنون للمجرمين، ويزعمون أنهم مختلون.

كلا يا عزيز، لم أنس كل هذا، لكنك نسيت، وترغب أن تتنعم بثروتك، وعملك الشكلي، مكتب هندسي، هل تبني ناطحة سحاب، ثم تعود لتكتفي ببناء قرى سياحية في الساحل الشمالي؟ وترغب في أن تجرني معك بعيدا عن أرضنا، لنحيا في جيتو، تسميه أنت كمباوند، وأسميه أنا جيتو، كلا بالتأكيد لن أنعزل، لن أبتعد عن أراضي جدي الأكبر المعلم بقطر الجاولي، حتى اليوم منازلنا هناك تحمل طابع عمارات القاهرة الخديوية، مداخل بيوت بين السرايات التي عاش فيها أجدادي الأقباط، مزينة بنفس الزخارف والأشكال الهندسية التي ميزت مداخل العمارات الفاخرة التي بناها المهندسون اليونانيون والفرنسيون الذين جلبهم إسماعيل، فشقوا له شوارع كلوت بك ومحمد علي وقصر النيل وبنوا له قصوره وسراياته.

ما الذي جعل جدي طنوس يحكي لي الحكاية، ويغذيها في عقلي كل عام؟ كل عام في ليلة عيد ميلادي، يضيف لها شيئا، يحكي لي عن الخديوي إسماعيل، الذي كان يفضل أن يأكل من يد جدتي القبطية؛ جوليان لويس، وقصة غرامه السرية بها، وتباهيه بمرافقة الإمبراطورة أوجيني لإثارة غيرتها، على الرغم من احترامه للمعلم بقطر الجاولي، حتى إنه كان يطمئن لرعايته لنجليه البرنسين حسن

وحسين، وأسرتيهما الكبيرة، بل طالب بضم جدي الأكبر بقطر الجاولي لفريق كبير التشريفاتية، واصف باشا عزمي الذي كان قبطيًّا أيضا، الرجل كان يقدر الأقباط ويعينهم في خدمته، ظلت القصة تكبر داخلي يا عزيز، والآن تجيء لتطلب مني أن أعيش في جيتو، وأبتعد عن حلمي الذي ظل يكبر داخلي.. أن أسترد أرض جدي؛ الحلم الذي جعلني متقلبة المزاج، أقرب للعصبية والتشتت، منذ وطأت قدماي بين السرايات، وحضوري الفرح الذي كان يتقافز فيه المطرب الشعبي مثل شمبانزي؟

لا أعرف كيف وجدتك يا عزيز وكيف وجدتني! الأكيد أن مصيرنا كان أن نلتقي لتحدث الكارثة، منذ أن ولدنا، منذ أن هاجر أبوك إلى كندا، يائسا من استرداد أملاك جدك، المهندس بطرس فيني، هو مثل جدي طنوس، لديه العديد من الأسرار ليبوح بها، ظهر هذا من حجرته، المليئة بالعديد من الكتب والخرائط والأوراق القديمة، التي تدل على أملاك الأقباط التي تم تأميمها، كأن الرجل يُجري حصرا سريا ما، أو توثيقا لثروات الأقباط، التي تم إهدارها، كانت حجرة مليئة بالكنوز، لعل أغلاها الرسائل التي تبادلها مع المهندس الفرنسي ماكس أذرعي الذي بنى معظم عمائر وعقارات وسط البلد خلال العشرينيات.

في الحقيقة قصة جدي طنوس كانت تشغل بالي أكثر، خصوصا بعدما أمدني ذات مرة بدفتر جدنا الأكبر بقطر الجاولي، الذي دوّن فيه يومياته، وأحزانه وكمده، وشكوكه في نسب طفلته إليه، كانت الأوراق تحوي قصة غرام جدتي جوليان لويس والخديو إسماعيل.

نعم.. أقولها بكل صراحة ولا أكذب عليكم، جدتي جوليان لويس.. القبطية الفاتنة.. السمراء ذات الوجه الصبوح.. وبشرتها الناعمة المنعمة، بتقاطيعها الرقيقة السمحة، وخصرها الفتيّ، وعنقها الطويل الساحر، وروحها الطاهرة المقدسة، وطلعتها الغامضة التي تحيطها هالة من الجمال المقدس المعبود، منذ أن عثرت على صورتها في دفتر جدي، وأنا أعذر الرجلين: الخديوي إسماعيل لسقوطه في حبائلها، وجدي الشقي، الذي لم يستطع أن يدافع عن عرضه.

هي القصة التي لن يصدقها عزيز إذا ما جرؤت وقصصتها عليه، بل هي القصة التي سترفض عائلتي نفسها الاعتراف بها. لأنها ببساطة، ستهدمنا، ستهدمنا تماما، ستقوض أصلنا وفصلنا القبطي، ستنسف شجرة نسبنا نسفا، لكنني تكتمتها، حافظت على أوراقها سرا في إحدى الخزائن الخاصة بالبنوك في الإمارات، وحينما قرر عزيز العودة، استرددتها، وعدت بها، رويدا رويدا، كنت أنقل أوراق جدي طنوس إلى حجرة المهندس بطرس فيني، يعود عزيز من مكتبه، فيجدني منهمكة في الأوراق، محاطة بالكتب، كنت أحاول الوصول لطرف خيط، قصة الحب غير الأكيدة، كلها شكوك دوّنها جدي الكبير بقطر الجاولي في دفتر سري، احتفظ داخله بصورة زوجته الفاتنة، جدتي جوليان، ظلت الأسرة تتوارث الدفتر، يخفونه، وينكرون ما فيه، لكنهم يحافظون عليه، كما لو كان إنجيل برنابا، إلى أن قرأه عليّ جدي طنوس، كلما شببت عاما، كان يقرأ منه فصلا جديدا، لعل أبرزها، ذلك الفصل الذي يتحدث فيه جدي الأكبر بقطر عن شكوكه التي لم يستطع البوح بها، لحساسية منصبه.

كان آنـذاك مسئولًا كبيرًا في عزبة الوقف، يتولى توريد الخضراوات الطازجة لسرايات الخديوي، وأبنائه، ومراعاة حال الزراعة، والفلاحين العاملين في الأرض، تعلم فن التشريفات الخديوية من رئيسه واصف باشا عزمي، لكن كل هذه الحياة لم تكتمل، فجدتي جوليان لم تكن تنجب، ولم يعرف الحكماء سبب عقمها، إلى أن أنجبت فجأة طفلة جميلة، أثناء انخراط زوجها بقطر الجاولي في رعاية أحوال الحقول، والفدادين المترامية لأسرة الخديوي، أراضي الأميرة فاطمة، التي صارت الآن جامعة القاهرة، وأراضي عزبة الوقف، التي تحولت لمحلات ومكتبات رديئة، تواجه الجامعة، ومنازل هؤلاء الغرباء، الذين يقطنون في البقعة العشوائية التي نشأت وصارت بين السرايات.

٣

لم يصارحني جدي طنوس بالحكاية دفعة واحدة.

ظل يقطرها على مدار سنوات طفولتي، كأنه يتعمد ألا أرتوي منها دفعة واحدة، فيما بعد فهمت لماذا كان يفعل ذلك؛ جميع أفراد العائلة كانوا يتربصون به، ويرفضون ترديده للقصة. جدي بقطر لم يمتلك اليقين إلا في ورقة طبية مرعبة، احتفظ بها سرا، فظللنا أقباطًا، ظللنا كما نحن، عائلة طنوس، أما قصة بقطر الجاولي فظلت مجرد قصة غرام لا يمكن أن تكون حقيقية، وهي مثل سائر قصص الحب، لا تنتهي نهاية سعيدة، فلا يمكن لجدي طنوس أن يصدم

بها الطفلة التي كنت، ويسبب لها جرحا غائرا في سنوات صباها الأولى، هكذا تعمد تقطير الحكاية؛ هربا من الأعين التي ظلت تراقبنا، وتحول دون أن يحكي لي حكاية جدتي جوليان وجدي بقطر الجاولي، الذي منع نفسه منْ الاقتراب من جدتي، كأنه يعاقب نفسه على خطية لم يرتكبها.

كان الأطباء قد أكدوا له أن جوليان بوسعها أن تنجب، إذا سافرت للعلاج إلى الخارج، هكذا أكد له كبير حكماء السرايا، الذي أوفده الخديوي إسماعيل لفحصه، وفحص جوليان، كانت النتيجة قاسية، ولم يتحملها، مما جعله يوافق على رحلة زوجته جوليان الزوجة القبطية الجميلة، التي تمنت أن تنجب لسنوات، كانت قصة عقمها تضغط على أعصاب جدي بقطر، فرضخ بسهولة لفكرة سفر جوليان للخارج، مع أسرة الخديوي، التي كانت تستعد هذا الصيف لرحلة أوربا، هي سترعى زوجة مولانا، وستضع نصب عينيها تغيير فساتينها، ومساعدتها في شراء فساتين أخرى، حزم الحقائب، إعداد قوائم الهدايا لسائر أفراد الأسرة، وتجميعها من الحوانيت الأوربية المختارة من صاحب كل هدية، ثم ستذهب إلى المستشفى بصحبة حكيم السرايا الذي كشف على بقطر واكتشف أن العقم منها، أو هكذا خدعوه.

دوّن جدي في دفتره تواريخ سفر الخديوي، بصحبته أسرته، وزوجته جوليان، كانت الرحلة الأولى في السابع من صفر ١٢٨٤ هجرية، أو العاشر من يونيو ١٨٦٧، كانت هذه الرحلة الكبرى، التي زار خلالها الخديوي وعائلته ثلاث دول: فرنسا وإنجلترا،

ومقر الخلافة إستنبول، سافر الجميع إلى أوربا، وظل جدي بقطر وحيدا في عزبة الوقف، يشرف على الأرض، وعلى عمل الفلاحين يوميا، يقول جدي طنوس: كان جدك يا شفق يعمل بكد واجتهاد، حارسا أمينا على هذه الأراضي، لهذا استحق أن يكتبها إسماعيل باسمه فيما بعد، هل فعلا استحقها من أجل هذا؟ أم أن الخديوي شعر بتأنيب الضمير، بعد أن خان خادمه المخلص مع زوجته؟

لم يكتشف جدي بقطر أنه كان ضحية خدعة بسهولة، لم تكن جوليان هي العقيمة، بل كان هو العقيم، كانت أوراق جدي بقطر الجاولي تتضمن ورقة بالية، تقريرًا طبيًّا عتيق الطراز، تفوح من بين سطوره رائحة الفضيحة، تحمل الورقة أختام استبالية ميشيل توسيتا بالإسكندرية، لم أستطع قراءته، لم أفهم المكتوب نظرا للغة اليونانية المكتوب به، الكلمات كانت مائلة، كأنها تستند إلى بعضها البعض، أو تتوكأ على أحرفها المتلاصقة، ثمة حزن بين سطورها، خطوط الطبيب اليوناني الباهتة، كانت توحي بمعناها الذي كشفه لي جدي طنوس، عاد بقطر من الإسكندرية حزينا بعدما زار الاستبالية اليونانية، إذا كان عقيما، فكيف أنجبت جوليان؟ ولماذا خدعه طبيب الخديوي؟

كانت هناك عدة مؤشرات تدلل على خيانة جدتي جوليان لجدي بقطر الجاولي، كان اعتناؤها بأسرة الخديوي يكاد يغلب على اعتنائها بجدي وطعامه وثيابه، فجأة وجد بقطر الجاولي نفسه وحيدا تقريبا، يعد الطعام لنفسه في الصباح، قبل أن يأخذه في سلة إلى الحقول المواجهة لعزبة الوقف، تسبقه جدتي جوليان

إلى سرايا البرنس حسن المقابلة للعزبة، لتعتني بوالدته ملك هانم، تعد لها طعام الإفطار، تطمئن على وصول الخضراوات والفاكهة من العزبة إلى مطابخ السرايا، تعد بنفسها أقفاص التفاح والرمان، قبل أن تأخذ إحدى عربات السرايا التي يتنقل فيها الخدم بين الحقول، إلى سرايا الجيزة، لتعمل في خدمة سيدتها شفق نور هانم أم الأمير محمد توفيق، الذي تم تنصيبه خديوي مصر، في أعقاب عزل إسماعيل.

يقول جدي بقطر في أوراقه: حينما رزقنا الله بالطفلة، بعد تسعة أهلّة من عودة جوليان وأسرة الخديوي من رحلة أوربا، أصرت جوليان أن تسميها اسما مسيحيا، إلا أن مولاتي شفق نور هانم، حملت الطفلة بين ذراعيها، وذهبت بها إلى مولاي، ثم عادت بوجه متجهم، وقالت: لقد أصر مولاكم على تسميتها على اسمي.

وتابع جدي بقطر الحكاية: لم يكن هذا من المألوف، نحن من الخدم، لا يمكن أن يحمل أبناؤنا أسماء الأميرات، أو البرنسات، هكذا تعودنا، لكن أن يصر مولانا على تسمية طفلتنا بنفسه، هو ما جعلني أخوض غمار الرحلة، إلى استبالية ميشيل توسيتا اليونانية، لم أستلم التقرير في نفس اليوم، قال لي الطبيب: عد بعد شهر، سنكون انتهينا من الفحص.

أعرف أن الأطباء اليونانيين مهرة، ومحترفون في صنعة الطب، لذلك جلست طويلا على البحر في الإسكندرية، وأنا أفكر فيما سيكون حالي الأيام المقبلة، وكيف أواجه جوليان، هل هي من خانت؟ أم أنها اضطرت للخنوع؟ كنت أحبها، لذلك التمست لها

الأعذار، حينما كتبوا لي أنني عقيم، توجهت إلى البطرخانة، غادرت الجيزة، ومنها ركبت مرة أخرى إلى شارع كلوت بك، إنه الشارع الذي رفض الأنبا ديمتريوس أن يكون مستقيما، بإزالة البطرخانة من طريقه، فاستجاب له إسماعيل، وأصبح الشارع ملتويا حول مبنى البطريركية، كان إسماعيل يحبنا، جعل الشارع يلتف حول البطريركية، وجعلني أنجب، لكنه منحنا طفلة مسلمة، فماذا سيكون مصيرنا؟ لقد ضيعنا. ضيع نسبي.. ماذا أفعل يا إلهي الرب يسوع، تقدس اسمك في الملكوت؟

٤

هل قصة جدي بقطر وجدتي جوليان من السخافة بحيث يصعب تصديقها؟ ولماذا يحتاج بقطر إلى تلفيقها؟ ولماذا يعتني جدي طنوس بحكايتها لي؟ إنني أحمل اسم الطفلة التي جاءت سِفاحا، شفق بنت جوليان وإسماعيل؛ ابنة الزنا، لهذا لاحقته اللعنات بعد اعتدائه على شرف خادمه القبطي، وتدنيسه عفة زوجته وطهارة ثوبها، بل واستولدها أيضا، طفلة غيرت نسب العائلة كلها، وديانتها، في دفتره كتب جدي بقطر الذي لا أنتمي إليه بدمي: لاحقت لعنات صلواتي إسماعيل وملكه الذي يسوسه، فأصيبت البلد بداء الكوليرا، الذي استشرى في مدنها وقراها، ثم لاحقته الأزمات والديون بعد بذخه وإسرافه، إلى أن جاءه فرمان العزل عام ١٨٧٩، فرحل عن البلاد شريدا ذليلا، وظل مغضوبا عليه من السلطان العثماني، منفيا لمدة ١٦ عاما، قبل أن يعود إليها ميتا، كل

ذلك بفضل دعوة قلب مدنس العرض والشرف، كتم مظلمته، ولم يستطع أن يبوح بها، وكيف يبوح والبطش ينتظره؟

غادر إسماعيل منفيا مطرودا من البلاد بعدما عمرها، لكنه منح خادمه القبطي بقطر الجاولي مكافأة كبيرة، وجدتها بين طيات دفتره، كانت حجة عزبة الوقف، تحمل اسمه، وختما خديويا، مذيلا بعبارة تاريخية تقول كلماتها:

> سمحت إرادتنا أن نمنح خادمنا بقطر الجاولي وأفراد أسرته الصغيرة مشمول حدائق وفدادين عزبة الوقف البالغ مساحتها ألف ألف ذراع في بقعة من أروع بقاع الجيزة الغَنَّاء الواقعة بين سراياتَي أبنائي البرنسات حسن وحسين وأمام حقول وجنان وبساتين ابنتي البرنسيسة فاطمة، وهو الذي خدمنا طوال عمره ولم يطالب أبدا بزيادة راتبه؛ وعليه أوصي بمنحه ١٥٠ كيسا بمناسبة ميلاد طفلته الميمونة وأدعو أبنائي ألا يتخلو عن خدمته، فنعم الخادم الأمين.

هذه هي حجة عزبة الوقف، التي تخلى عنها جدي بقطر الجاولي وأخذ جدتي جوليان، وطفلتهما شفق التي أحمل اسمها، وظل يتنقل بهما بين كبار أعيان القبط، فعمل أولا في خدمة وهبة بك الجيزاوي، وكان رئيسا للكَتَبة في نظارة المالية، ثم عمل في خدمة دميان جاد بك، ثم سعد ميخائيل عبده، وكلاهما من كبار موظفي الدولة، ثم سافر بجدتي إلى الشرقية، هناك عاش تحت إمرة رزق أغا حاكم الإقليم، وعاد إلى إطفيح، ليعمل خادما لمكرم أغا، وهكذا، ظل يتنقل في خدمة كبار رجال الدولة الأقباط، حتى توفي إسماعيل عام ١٨٩٥، وقع الخبر على رأسه كالصاعقة، ونظر إلى

جدتي جوليان وقال لها العبارة الأخيرة التي دونها في دفتره: الآن شفيت أسقامي.. مات الرجل غريبا مثلما جعلنا غريبين.

حملتني عاصفة أحلامي، حملتني بعيدا، ولم أظنني سأواجه ما واجهت، شعرت في لحظة أن كل حدث في هذه القصة، استمرارا للعنات جدي بقطر، شعرت كأن لعناته تنتقم مني أنا شخصيا لأنني أحمل اسم الطفلة الخطيئة، حينما بدأت المواجهات القانونية، وعرض عليَّ حمزة إشهار إسلامي، لم أنم الليلة، ولم أنم ليالي بأكملها، ظللت أقرأ قصة جدي بقطر الجاولي مرارا، وأسأل نفسي. هل عزيز على حق؟ هل يجب أن أركل القصة بأكملها، وأدعني منها؟ لكنني لست حرة، رغبة مشبوبة بالانتقام تشتعل داخلي، ظللت أفكر في عرض حمزة، وأتامل صورته الوسيمة التي تحمل وجها زائفا لحقيقته، ولا أتصور نفسي أرقد أسفله، أو أشاركه الفراش، بدوت في هذه اللحظة مسلوبة الإرادة تماما، الابتعاد عن عزيز يتواصل، حاول مرارا وتكرارا أن يشدني إليه، وينتزعني من رغبتي، حتى إنه توجه مرارا لزيارة شاندور، شعرت بخطر، التقيت بحمزة وأخبرته أنني بحاجة للتفكير بعمق في عرضه، لكنني لا أستطيع ذلك الآن.. قربي من عزيز يفسد كل شيء، ويشتت أفكاري.. عرض عليَّ الانتقال للإقامة في فيلته في كرداسة.. قال لي إنه لن يمسسني بسوء، تعهد أن يدبر لنفسه مكانا آخر يعيش فيه طوال فترة إقامتي بالفيلا.. على أن يطمئن عزيز على وجودي بمكان أمين، لم تسِر الأمور على هذا النحو بهذه البساطة، انفجر عزيز، التقى بحمزة، وهدده بالقتل، ولم يكتف بذلك، حاول بالفعل الاعتداء عليه أثناء خروجه من المسجد الذي ينظم فيه لقاءاته الدينية

بالدقي، المسجد الذي سبق وأن انتزعت حكومة التأميم أرضه من أملاك جده؛ المهندس بطرس فيني.. تصدى الشباب الذين يحمون حمزة، وكادوا يعتدون على عزيز بالضرب، كانت الأخبار تأتيني متقطعة، حقيبة الأوراق والخرائط مع شاندور، أقرأ يوميا في دفتر جدي بقطر الجاولي.. وأفكر: هل يجب أن أغير ديني.. لاسترداد بضعة فدادين أمام جامعة القاهرة؟!

٥

الظلام إليَّ أقرب من النور.

لماذا تتحكم فيّ الشرور؟

لماذا تتعرض حياتي للهدم؟ لماذا أعجز عن الدفاع عنها؟

يبدو أن هذا العالم سيف كبير.. مرفوع الآن فوق رأسي.. يستعد أن يهوي.. ليقسمني إلى نصفين. نصف قبطي.. ونصف مسلم.. الآن أجلس مرتدية نقابًا أسود، يطمسني، يحجبني، يواري ملامحي، ويحولني إلى قطعة ظلام، أجلس بجوار حمزة في سيارته، ننتظر أمام مطعم شهير في الزمالك، ننتظر في دأب. عام كامل نراقب عزيز.. زوجي.. وهو يخرج مع مارينا، عام كامل يصحبني حمزة كل ليلة إلى نفس المنطقة، نجلس في صمت، أنا داخل الرداء الأسود الذي يحجبني، وهو داخل بدلته. ننتظر عزيز بينما يهبط سكيرا، مخمورا، يترنح بينما مارينا تحتضنه من وسطه وتسنده إلى سيارتها، يأتي إلى البار بسيارته، ويغادر بسيارتها، عام كامل لم ينقطعا عن هذه العادة

إلا حينما اندلعت الثورة، وكف البار قليلا عن استقبال زواره، انقطعت أخباري عن عزيز لكنني كنت أواجهه، وأواجه نفسي، أين أنا؟ أين أذهب؟ ماذا أفعل في نفسي؟ وهذا الرداء الذي يطمسني.. كيف أتحمله؟

ساعدني حمزة على أن أحصل على الشهادة الخضراء من المشيخة، لقنني الشهادة، ثم ذهب معي، دخل معي إلى المكتب، فنهضت العمامات، ورحبوا به في حرارة، كان حضوره قد طغى بعد اندلاع الثورة، صار كل مكان يدخله ينادي عليه أحدهم قائلا: أهلا بريسنا.. إزيك يا ريسنا؟ آه لو تمسكها يا مولانا. وضع أحدهم كوبَي يانسون أمامنا، نظر لي الشيخ الموكل إليه تلقيني الشهادتين وقال في عجالة وآلية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

أومأت له إيجابا، ثم قلت: أشهد.. أن لا إله إلا الله.. وأن.. محمدا.. رسول الله.

ها هو لساني يرددها.. من أي نصف تخرج الكلمات، من النصف المضيء، أم المظلم؟

ابتسامة حبور ترتسم على وجه حمزة، التفت إلى عمامة من العمامات، وقال له في ضحكة مستبشرة: تعجلوا لنا الشهادة أثابكم الله.. أريد أن أكمل فرحة الأخت شفق.

تأملت اسمي الجديد.. شفق إبراهيم.. أبو النور. أي نصف سيحمل هذا الاسم؟ النصف المضيء.. أم النصف المظلم؟ حدقت في المرآة المعلقة على الحائط خلف مكتب الشيوخ، لم أر نفسي،

لم أستطع أن أتعرف على الانفعالات المرتسمة على وجهي، كان نصفي المظلم قد امتد، وسيطر على نصفي الآخر

انقطعت أخباري تماما بعائلتي، لا أعرف كيف مرت هذه السنوات، فجأة فرض حمزة قواعده، لقد صرت أَمَته.. كيف تشاركنا الفراش للمرة الأولى، كما لو كنت مخدرة، لا أستطيع أن أتعرفني، لقد خلعت الرداء تماما ليضاجعني، وأنا أشاهد ما يحدث بفضول، كانت هيئته عجيبة وهو عارٍ. بدلته الأنيقة تخبئ عيوب جسده الذي يبدو نحيلا ضامرا. وجدته يخلع كورسيه أبيض يرتديه أسفل قميصه، يضغط به لحم كرشه، التي ترهلت فجأة واندلقت مثل جوال «الچيلي». تعلقت أنظاري بلحم كرشه الذي أراه للمرة الأولى وقفزت من عينَيَّ علامات الدهشة والحيرة. شعر بالضيق، وبعدما كان يتفرس فيّ، ضاعت شهوته وغمغم في ارتباك: أعاني من آلام في الظهر لذلك أرتدي هذا المشد.

لكن كذبته لم تنطلِ عليّ ولم يستطع أن يستمتع بي، أطفأ النور، ليتوارى بالظلام وهو يضاجعني، ضاجعني في السواد، وألبسني قطعة من الليل، لماذا يحجبوننا؟

لا يحق لي المناقشة في أي شيء.. لا يحق لي الخروج إلا بصحبته، ولا يحق لي أن أسأله عن مرات زيارته لي، أو عتابه إذا لم يرغب أن يقضي ليلة ما معي، لا يحق لي أن أستخدم الهاتف المحمول.. إلا أمامه.

ولا يحق أن آكل من طعام، إلا قبل أن أتمتم بصوت عالٍ: بسم الله الرحمن الرحيم.

لا يحق لي أن أنام إلا على جانبي الأيمن، ولا يحق لي أن أهمل صلوات السنن، والشفع والوتر

لا يحق لي أن أتغافل عن صيام الاثنين والخميس، ولا يحق لي أن أمرض في رمضان أو أستخدم رخص الفطر إذا توعكت، أو أفطر كل أيام العيد، يكفي اليوم الأول، ثم أبدأ في صيام الستة البيض.

لا يحق لي أن ألح في زيارة البيوت التي اشتريناها، ولا يحق لي أن أسأله عما تم عموما في هذه المسألة.. أو عن خططه المستقبلية بشأن استعادة زهو وجمال عزبة الوقف. هذا المشروع يخصنا.. وهو القيّم عليه.. لا أعرف ماذا يعني هذا الكلام.. يجيبني. ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

كل شيء ـ منذ صرت زوجته ـ آل إليه.. أصبحت الآن.. ملك يمينه.. ولا يحق لي أي شيء.

كان شراء البيوت في بين السرايات قد تواصل منذ أكثر من عام، وعجّل اشتعال الثورة في إقناع المترددين، وحده فقط أحمد خريشة الذي ظل يقاوم.. ظل متشبثا ببيته، لم نهتز، ولم نتراجع.

وحدها زيارات أبو صالح وزهران فتحت لي متنفسا لم أكن أظنه يفتح، وجدت الثغرة التي منها نجحت في الخروج قليلا من محبسي في الفيلا، الفتيات القبطيات اللواتي تعرضن للاختطاف، هؤلاء الفتيات كن مستعصيات أغلب الأوقات على الشيوخ السلفيين الذين يفزن بهن لإقناعهن باعتناق الإسلام، بدأت أخرج في حراسة أبو صالح وزهران إلى بيوت بعض السلفيين في قرى قريبة من كرداسة، هالني أعداد الفتيات القبطيات اللواتي كن

محتجزات في منازل الشيوخ السلفيين، كيف نجحوا في اختطاف هؤلاء الفتيات. داخلي كنت ألعنهم.. هل تأكدتِ الآن أي فخ سقطتِ فيه يا شفق؟ كلهم كذابون.. كلهم أفاقون.. كلهم يتاجرون بنا.. هل يوجد أي طريق مختصر للهروب؟

٦

في ليلة الهجوم على بين السرايات كان حمزة مضطربا.

سمعت زهران يقترح الفكرة الملعونة بإرسال الفتيات إلى النهضة. ظللت أروح وأجيء في الغرفة المجاورة لبهو الفيلا، الذي يعلو حجرة المخزن، حيث احتجزوا الشاب الذي تتبع زهران. ماذا أفعل؟ كيف أنقذ البنات؟

طوال العام الماضي ظللت أقنعهن باعتناق الإسلام. كان ذلك مهربنا معا من ذل حمزة وعصابته، مهربي كوسيلة تجعلني أخرج كلما شئت، إلى لقائهن، ومهرب لهن من الأوضاع الصعبة المذلة التي يعشن فيها طالما أصررن على مسيحيتهن، كنا نتبادل الهمس، أجلس معهن في دائرة قصيرة، مكونة من أربع فتيات، في أحد المنازل المخصصة لهن، أقنعهن باعتناق الإسلام إلى حين، كنت أشعر أن ما أطلبه منهن فادح، بمجرد استخراج الأوراق، تتغير هويتهن، وتطمس شخصيتهن القديمة، ويتم الزج بهن إلى فراش عريس مسلم، رغما عنهن، لكن ما العمل؟ أين المفر؟ إذا لم يرضخن.. سيتعرضن لأسوأ العقاب.. مثلما حدث مع دميانة.

ظلت الفتاة رافضة اعتناق الإسلام، متمردة على الشيخ الذي تقيم في منزله مع حريمه، تصرخ كل ليلة في حجرة مظلمة أسفل بيته، تشبه القبر، لا أحد من أهل القرية يسمعها، وعلى الرغم من ذلك تثار الشبهات حول البيت المحتجزة فيه، فينقلونها إلى بيت آخر، ظلت تنتقل من بيت إلى بيت إلى بيت، قبل أن ألتقيها، سألتها في دهشة: بتقاومي ليه؟ أنا كنت مسيحية وأسلمت.

لم تصدقني.. رمقتني بنظرة مقت، قبل أن تبصق على وجهي. تلقى النقاب البصقة، وبعض رموش عيني اليسرى، مسحت البصقة، وأنا أرتعش منها خجلا وفرحا، الفتاة كانت على حق، ما إن اعتنقت الإسلام صوريا، حتى أجبرتني العادات على أن أتحول تدريجيا إلى مسلمة تمارس الطقوس، حتى بنصف عقل، خلعت النقاب، تأملت ملامحي، قبل أن تشيح بوجهها عني، قلت في ثقة وقوة: جوجو.. بيسأل عليكِ.. أنا قابلته.

انتفضت الفتاة، اعتدلت في جلستها، وأمسكتني من كتفي، وهزتني بقوة، قائلة: وصلتي له إزاي؟ وصلك إزاي؟ عرفتيه إزاي؟ أبوس إيديك ودّيني له.

تأكدت أنني انتصرت، قلت لها في ثقة: هو وصّلك ليه وهتخرجي من هنا يا دميانة. إنتِ الوحيدة اللي صبرت على البلوة والشر.. وإنتِ الوحيدة اللي ربنا بعت لي حد من أهلها عشان يخرجها، بس إحنا وضعنا صعب.. لازم نصبر

هدأت الفتاة، لكن الفكرة الخرقاء التي طرحها زهران هدمت تخطيطي، لم أستطع الوصول لدميانة، ولم أستطع الوصول لجوجو،

كانوا يخططون لعملية تهريب الفتيات إلى النهضة، ولكن المشكلات واجهتهم في بين السرايات. غادر حمزة الفيلا إلى جهة لا أعرفها، سمعته يحدث أبو صالح ويطلب منه أن ينتظره في المخزن، ثم أغلق الهاتف وعاود الاتصال بزهران ليطلب منه الصبر والتجلد، ثم غادر، فغادرت خلفه، لكن أين أذهب.. أين أذهب؟ إذا فكرت أن أذهب إلى ثالث البيوت الذي احتجزوا فيه دميانة ربما أفسد كل شيء. ركبت سيارة أجرة، توقفت لي على مضض، سائقها ظل يحدق في بنظرات ذات مغزى، على الرغم من النقاب، إلا أن الرجل تأججت أفكاره، الخيمة التي أتحرك داخلها أشعلت رأسه، صاح فيّ: ما بلاش بين السرايات.. الدنيا لبش بيقولوا.. هوديكِ عند قسم بولاق.. ولّا ده لبش راخر بصي.. آخرك معايا أبو قتاتة.. أبو قتاتة يريحك؟

شعرت أنه يقولها بطريقة موحية بمعنى آخر، خشيت أن يقتادني إلى جهة مجهولة، لا أعرف ماذا أفعل، أين أذهب؟ كيف أنقذ دميانة والفتيات المحتجزات؟ قلت في حسم: اطلع يا اسطى على محور اللبيني ومنه على الدائري.. وهناك على أي حتة نروح منها الدقي.

انصاع الرجل على مضض، لم أخلع النقاب من على وجهي، خشيت أن تعاوده الأفكار المهلوسة أشد ضراوة، كانت ملامحي لم تزل تحتفظ ببعض رونقها، على الرغم من استخدامي المكياج المحدود، رخيص الثمن الذي كان يبتاعه حمزة بمعرفة نسائه، اللواتي كن يتفنن في البحث عن أرخص وأسوأ أقلام الروج، كي لا يهنأ بعلهن على قبلة من شفاه القبطية.

كان قلبي يخفق في عنف، رواد بعض القهاوي في الشوارع

يتابعون خطاب محمد مرسي الأخير، كلما مرت العربة من مقهى إلى آخر، سمعته يردد الشرعية، حتى ظننت أن خطبا أصاب هذه التلفزيونات جعلها تبث كلمة واحدة فقط من خطابه، وصلنا إلى الدقي، نظرت إلى المنطقة، أين ذهب الناس؟ الشوارع خالية، على مبعدة زحام بعض المحتفلين، المتأهبين لانتهاء مهلة الجيش، فيما محمد مرسي يكرر كلمة الشرعية، لم يكن بحوزتي هاتف محمول، لم يكن بحوزتي نقود، قلت للسائق: اطلع معايا عشان تاخد أجرتك.

ودخلت في مدخل البناية التي أوقفني أمامها.. كانت البناية التي يسكن بها شاندور.

٧

كيف عرف عزيز بفراري هذه الليلة؟ إنه شاندور.. لكن بيته كان آأمن مكان أستطيع أن ألجأ إليه في هذه اللحظة.. بيت عالم آثار ألماني.. من يجرؤ على تفتيشه؟ لا أحد.. حتى الحكومة الجديدة. لم يتوقع شاندور مباغتتي له في شقته، ولم يستطع أن يرفض استضافتي، شعرت بامتنان عميق له، ترك لي حجرة نومه، ونقل ملاءتين إلى الصالة، تخففت من ملابسي الإسلامية، نناقش يوميا احتمالات خروجي، وقد نسيت أمر الفتيات اللواتي تم احتجازهن في الاعتصام.. نشاهد يوميا التلفزيون، ونترقب فض الاعتصامين.

بعد معركة بين السرايات، والليلة المثيرة التي تلتها، جاء عزيز إلى شقة شاندور بعدما ذهب الأخير إليه، وأعلمه أنني عنده، لم يكن هذا اللقاء محببا. لا أستطيع أن أستفيض في حكايته، واجهني بهجري له، واجهته بعلاقته بمارينا، صرخ في وجهي، صرخت في وجهه، شاندور هب إلى نجدتي من براثنه، خاصة حينما صفعني صفعتين، بعدما عرف أنني صرت مسلمة، لكن لماذا تقدم ببلاغ عن اختفائي؟

قال شاندور: إنه يريد أن يتزوج؛ هذه إجراءات يتخذها من أجل إقناع الكنيسة أنك صرت ضائعة في كل الأحوال.. وجودك هنا ليس له معنى.. لا أستطيع حمايتك.. أنت مسلمة.. وأنا أجنبي.. ماذا تفعلين عندي؟

قلت في تردد وخوف: وأين أذهب؟

قال: حمزة لن يبحث عنك.. أنا أخشى من عزيز.. لا أعرف إلى أين سيقوده تهوره.. بالإضافة إلى أنك أقحمتيني في وضع لا أستطيع تحمله.

قلت وخوفي يزداد من اهتزازه: أنا لست مجرمة.. ولم أفعل شيئا.. ولديَّ أوراق تثبت أنني مسلمة.. كل ما أطلبه منك أن تساعدني وتتحملني.. لماذا تريد أن تطردني الآن؟

وصمتُّ، فأحنى وجهه، وأطرق مفكرا، فقاطعته قائلة: أنا محتاجة لك يا شاندور.

قال مترددا: لماذا أقحمتيني في هذا كله؟

ذهب إلى الجامعة في الصباح، ظللت محبوسة في شقته، أرمق

الشارع من خلف نوافذها، الناس تتحرك في حذر، مظاهرات مستمرة في الدقي وغيرها، الكل يترقب مصير الاعتصامين، لا أخبار عن الفتيات القبطيات، حمزة يظهر في اعتصام النهضة ويهتف هتافات ضد الانقلاب، الحرارة تزداد، ورمضان بدأ، تدربت على الصيام العام الماضي، الذي مرّ على دخولي الإسلام، وجدت نفسي أصوم تلقائيا، شاندور يعود من الجامعة، ويتناول غذاءه وحيدا، ثم بدأ يؤخر وجبته عمدا، ليشاركني الطعام، وهو لا يخفي تعجبه، ماذا دهاك؟ هل أنت مسلمة فعلا؟ هل آمنت فعلا؟ أجيبه بهزتين من رأسي، وأقول: أنت لا تفهم.. ثم أصمت.. وأشعر بالتيه.. أنا أيضا لا أفهم.. فأقول: مش عارفة أنا مؤمنة ولا لأ بس باصوم.

تأملني بنظرات كلها حيرة، كان يقضي ليله جالسا في شرفة شقته، متأملا حركة الشارع في الدقي، يشرب شايًا أحمر فتلة بينما أشربه أنا ثقيلا من نوع الخرز، نقرأ في أوراق جدي، يراها وثيقة تاريخية غاية في الروعة، ويحاول إقناعي بإهدائها إلى دار الوثائق القومية، أرفض بشدة، وأصر على أن تظل معي.

يعود يوما من الجامعة، وبصحبته جوجو، يقول قبل أن يدخل: عندي مفاجأة.. مش هتتخيليها.

ثم يدعو الفتى للدخول، دخل الشاب في تؤدة، ورمقني في حيرة، تذكرت أنه لم يرني من قبل إلا منتقبة، كنت أرتدي شالا على رأسي يغطي شعري، ويظهر وجهي ببهائه، أطال الفتى بي التحديق، أشفق عليه من الحقيقة التي لا أستطيع أن أخفيها عنه، قلت له قبل أن أصافحه: دميانة في اعتصام النهضة.

هوت الجملة عليه، تسمّر ولم يخطُ نحوي، قال لي في حيرة: أنت مين؟ تعرفي دميانة ومكانها إزاي؟

قلت بينما أتنهد: الحكاية دي طويلة.. لكني وعدتك أنني سأساعدك.. ومش عارفة أنا كده ساعدتك ولا لأ دميانة وكل البنات اللي كانوا مخطوفين.. في اعتصام النهضة على حد علمي.

جلس على الأرض فجأة، وربّع ساقيه، وواصل التحديق في، تحرك شاندور ليجلب له مقعدا، إلا أنه لم ينهض، وقال بحيرة وحسرة: أوصل لها إزاي؟ أعرف لها طريق إزاي دلوقتي؟ إيه المصيبة دي.

ظللت صامتة، وبقي سؤاله معلقا في الفراغ بيننا، تحرك شاندور متوترا، وجلب زجاجة ماء، وصب كوبا للفتى، وناوله ليشرب، يؤمن شاندور بأهمية تجرع السوائل في مثل هذه الأوقات، ظل الفتى متجمدا، جالسا على الأرض في استسلام، قلت محاولة أن أواسيه: حاول تدخل الاعتصام.. حاول تدور عليها.

هتف في حسرة وهو يخبط جبهته براحته خبطتين متتاليتين: إزاي.. إزاي.. هفتش خيام حريمهم إزاي.. أي خيمة.. أي واحدة منتقبة.. أي واحدة دميانة؟ أنده عليها من برة؟ هيضربوني.. أو هيئذوني.. أعمل إيه؟ ثم إني قبطي.. إنتِ ناسية المصيبة دي. يعني تواضروس اللي كان مؤيد خلع مرسي.. يعني الأقباط اللي عاوزين يهدّوا الإسلام.

ظللت صامتة، شبكت ذراعي أمام صدري، وأطرقت متأملة الموقف كله، قلت وأنا لا أعرف إن كان ما أقوله صوابًا أم خطأ:

استنى فض الاعتصام.. يمكن تخرج بالسلامة.. ما تقلقش.. أكيد مش هيحصل لها حاجة.

أدركت أنني كنت خاطئة فيما قلت، نظراته التي ازدادت هلعا أفصحت أنني عجزت حتى أن أقول ما قلت بنغمة ثقة، أو أن أضفي على صوتي مسحة طمأنينة، ظل الفتى صامتا، ووقف شاندور على مبعدة، لا أحد منا كان يدرك في هذه اللحظة.. أي الحلول أصوب.. وأي الطرق أقصر.

٨

في الشارع تراصت الجثث.

لم تكن هناك أماكن شاغرة في ثلاجات المشرحة تكفي للجثث العديدة التي تتزايد يوميا.

عربات نقل الجثث تأتي من كل حدب وصوب.

وتدفع بالمزيد والمزيد من الجثث الملفوفة في أكفان مصبوغة بالأحمر القاني.

الجثث على أرصفة المشرحة، وفي الشارع.. وتحت نوافذ الطوابق الأرضية.. وتحت الشرفات.

الشارع المؤدي إلى المشرحة كان مفروشًا بالأكفان البيضاء.

وقفنا أمام المشهد وتجمدت مشاعرنا مما نرى.. أنا وجوجو وشاندور الذي كان أكثرنا صدمة.. فتح فمه بأقصى ما تسمح له

عضلات فكيه، وظل محملقا في الأكفان البيضاء التي تفترش الطرقات، والناس التي تعبر بينها، موزعة قوالب الثلج على الأجساد المسجاة، يرتدون الكمامات، وبعضهم يضع المناديل على أنفه.

الذباب يحلق في حماس في سماء الشارع، بينما العربات تقف على ناصيته، وتفرغ من جوفها المزيد من الجثث، يحملها رجال الإسعاف، يرتدون حرملات صفراء فاقعًا لونها، ويدخلون بالمحفات، كأنهم قادمون من جبهة دامية ما.

مرت أيام على فض الاعتصامين، ولم تنته الجثث.. أُضيف إليها هؤلاء الذين قضوا في عربة الترحيلات.

كان على رأس الشارع أحدهم يجلس على مقعد خشبي، ويهش الذباب من على وجهه، ويسند كوعه على حامل أوراق خشبي، الذي يسنده بدوره على فخذه، ويدون فيه حصيلة الموتى ـ على ما ظننا ـ الذين يفدون يوميا على المشرحة، كان يرتدي كمامة على وجهه، فيبدو كأنه كائن من عالم آخر، كائن مرّيخي ما، خاصة أنه كان يرنو إلى الشارع بنظرة خاوية، ويعبث في موبايله بيده اليسرى، كنا نظنه يدون أعداد القتلى في رسالة نصية، يرسلها لأحدهم، لكننا حينما اقتربنا، وجدناه يلعب على تليفونه الـ«سمارت فون» لعبة ما، لعبة ملونة، يقفز فيها كائن كرتوني قصير القامة فوق حواجز سكك حديدية، وقطارات تحاول أن تدهسه، حدق فيه شاندور بدهشة، كأنه رأى عفريتا، شعرت أن نظرات شاندور ستفسد ما جئنا من أجله، بادرت بسرعة، موجهة سؤالي للرجل: لو سمحت...

فانتبه إليّ، وتفرّس في ملامحي بنظرة مرتابة، فواصلت قائلة: بندور على واحدة قريبتنا.. خايفين لتكون هنا.. ممكن تساعدنا؟

واصل التحديق فيّ بريبة، قبل أن يعود لهاتفه، دون أن يتحدث، أو يجيبنا، فبادره جوجو صائحا في حدة: أنت سمعتنا؟

فهتف من تحت كمامته: قريبتكم دي.. نهضة ولا رابعة؟

عدت أقول في أمل: إحنا مش متأكدين إن جرى لها حاجة.. بس مش لاقينها.. قلنا نسأل.

قال دون أن يرفع عينيه عن اللعبة: نهضة ولا رابعة؟

شعرت بالضيق، وتبادلت نظرة حانقة مع جوجو وشاندور الذي كان لم يزل مدهوشا، قلت في حنق: النهضة.

قال وهو يرفع عينيه نحوي هذه المرة: عندها كام سنة.. واسمها إيه.. ومين كان معاها في الاعتصام؟ وكانت معتصمة من إمتى؟ وإيه العلامة المميزة في جسمها؟ كانت بنت بنوت ولا متجوزة؟

قاطعته في حدة: إيه؟ هو تحقيق! مش هنجاوب على كل ده لأننا ما نعرفش.. وإحنا مش متأكدين إنها ماتت.. إن شاء الله ما تكونش ماتت.

نظر إليَّ الرجل من أعلى إلى أسفل، كانت نظرة مستهينة، حدّق فيّ وهو يتمنى أن يخترقني كما شعرت، كنت قد خلعت النقاب، لكنني اكتفيت بالشال فوق رأسي، ظهرت ملامحي جلية، لكنني كنت أخبئ عينيّ خلف نظارة الشمس، ملابسي حابكة، بأكمام طويلة، كانت حرارة الجو مرتفعة، بالإضافة إلى روائح الجثث،

كان المكان أشبه بمقبرة جماعية في العراء، ينقصها الغربان، أشار تجاه الشارع، والأكفان البيضاء، وقال لي في برود: مش هسمح لك تفتشي في الجثث.

ترددنا، لم نعرف لماذا غضب الرجل، هل كنا نتوقع أن يكون هناك نظام ما يسهل التعرف على الجثث بهذه السهولة؟ هل ظننا أن هناك أي معادلة في الوجود ستجعلنا نتأكد إذا كانت دميانة حية أم لا، دون أن نحدق في كل هذه الأكفان، جثة جثة؟ تراجعت إلى الخلف خطوة، ثم التفتّ، كانت ملامح شاندور لا تزال متصلبة على انفعال مذعور، جوجو الوحيد الذي كان متحمسا لفحص الجثث. تقدمنا خطوة في عناد فاستوقفنا الرجل. قولوا لي بس.. أوصافها إيه؟

أعطيناه أوصاف دميانة، ظل يحدق فينا، متظاهرا بالتفكير، كانت نظرات عينيه توحي بالغباء، ثم قال في حسم: لا ماجتش المشرحة.. بس لو جت.. هكلمكم.. إدوني نمرة ليكم.

تركت رقم هاتفي، واسمي، لا أعرف لماذا فعلت ذلك، لكنني فعلته، في المساء كان تليفوني يرن بنمرة خاصة، شعرت بالقلق، ماذا تعني كلمة «Unknown»، من المتصل؟ أجابني صوت يقول في هدوء: أيوه.. حضرتك إحنا لقينا المذكورة دميانة.. هي بخير.. في مستشفى أم المصريين.. كانت مصابة بطلق ناري في القدم. تقدروا تروحوا تطمنوا عليها هناك.. هي في العناية.

ثم انتهى الاتصال، لم أستطع أن أعقب، أو أسأل عن تفاصيل نقلها أو العثور عليها، أسرعنا إلى مستشفى أم المصريين بملابسنا، لم نتصور أننا في طريقنا إلى شَرَك.

ما الذي جلب شاندور معنا في هذا اليوم؟ كان اهتمامه بنا قد جعل همنا قضية تخصه، حظر التجوال كان مفروضا منذ فض الاعتصامين، فآثرنا أن نذهب إلى المستشفى في الثانية عشرة ظهرا، دخلنا من بوابتها الرئيسية، وطلبنا في الاستقبال أن نزور نزيلة في المستشفى تسمى دميانة، بحث موظف الاستقبال في الدفاتر، قبل أن يقول محتارا وهو يرمقنا في نظرة خاوية لا مبالية: هي دخلت إمتى؟

لم أستطع أن أقطع بالإجابة، قال جوجو في لهفة: إحنا كنا دورنا عليها في المشرحة، وهناك فيه حد دلنا على مكانها هنا.

نظرت إلى جوجو بعدما عدّل القصة ليجعلها صالحة للاستدلال، متجنبا أن يذكر واقعة التليفون الغامض، بدا على ملامح الرجل أنه تذكر شيئا، فذهب إلى حجرة مجاورة لمكتب استقبال المستشفى، ظللنا نتأمل المكان، كان شاندور يرمق المرضى والمترددين على استقبال الحوادث بنظرات فضولية، غير مستنكر الفوضى والزحام، عاد موظف الاستقبال بعد غياب، وقال: آه.. اتفضلوا حضراتكم.. وهاجيب لكم حد هيوديكم الرعاية.

كان جوجو متلهفا، وشاندور مشغولا بمشاهدة الناس والمرضى وأركان المستشفى وفوضى موظفيها والعاملات اللواتي تركن القطط ترعى في أرجائها، وبعضهن يجلسن يتهامسن مع بعض أطقم التمريض، والبعض الآخر يساوم أحدهم في حساب البوفيه، كنت أشعر بقلق، المفروض أن يدلنا الموظف على طريق العناية، من الذي سيستعين به ليرشدنا إلى المكان، تسارعت دقات قلبي بغتة، هتفت فجأة: قوموا معايا بسرعة.

وقبل أن نتحرك خطوة، أحاط بنا ثلاثة رجال، كانوا ضخام الجثة، الهيئة المثالية للمخبرين العتاة، رمقهم شاندور في قلق، كانت نظرات الموظف الخاوية اللامبالية قد تحولت الآن إلى نظرة ظفر وراحة، فيما أحد الرجال الثلاثة يقول لنا في صوت هادئ قاسٍ: ممكن حضراتكم تتفضلوا معانا.

٩

لا أعرف أين ذهبا جوجو وشاندور.

قادونا إلى حجرة في المستشفى، ثم بدءوا يقتادوننا فرادى خارجها، ركبت في عربة مع رجلين من الثلاثة، كانت عربة ملاكي من طراز ١٢٨، جلست في الخلف، فوجدتهما يجلسان بجواري، فصحت في حدة واحتجاج: إيه ده.. أنتو قابضين عليَّ؟

صاح أحدهم في صرامة: إنتِ فاكرانا مودينك المراجيح؟ اتلمي.. إنتِ مقبوض عليك.

صحت مرتعبة، محاولة التماسك، ومع ذلك خرج صوتي متهدجا: كل ده عشان جاية أزور واحدة بنت غلبانة.

لم يردا، ولم ينهضا من جانبي، ظللت محشورة بينهما، والسيارة تمرق في شوارع العمرانية من منطقة أم المصريين إلى أنحاء الجيزة، ومرت بجوار مديرية أمن الجيزة، قبل أن تتوقف أمام مبنى آخر، بعيد عن المديرية، لماذا لم أقاومهما، لماذا سرت معهما بكل سهولة، كان بمقدوري أن أصيح، أن أصرخ، لكنني لم أفعل ذلك،

توقفت العربة وأفكاري لم تتوقف، بل تدحرجت فيما يبدو إلى هوة مظلمة، ماذا سيفعلون بي؟ ماذا يريدون مني؟

ترجلت من العربة وملامحي تنقبض توترا، أصابعي تحركت في رعشة، كأنها تستجيب لخفقات قلبي، متى سينتهي كل هذا القلق، لماذا يبدو العالم كأنه يسير بإمرة شرير واحد؟ لماذا لا يسلم الراية لأحد الأخيار؟

لا توجد إجابة واحدة منطقية تفسر لماذا تعرضت حياتي للتحطم والتشويه بهذا الشكل دون أن أصل إلى هدفي، لماذا انتصر الظلم والاضطهاد، وامتلكا مجدافَي حياتي بهذا الشكل، الشمس تشرق في موعدها، وأنا لا أصل أبدا في موعدي، الشمس تغرب في موعدها وأنا لا أحقق شيئا، وبين شروقها وغروبها أكاد أسبقها ومع ذلك هي تصل وتتمم رحلتها في نجاح ورحلتي لا تكتمل رغم أنني لم أقصر في العدْو.

لم أنتبه أنني في هذه اللحظة صرت داخل أحد المكاتب، بينما أفكاري تلتهمني التهاما، ماذا أتى بي هنا؟ الحجرة كانت خالية إلا من مكتب خشبي، ومقعدين، جلست على أحدهما، وظللت أتأمل في تفاصيل الحجرة، لم يكن هناك أي شيء آخر، فقط المكتب، والمقعدان، والبلاط، والباب الذي أدخلوني منه، والذي دخل منه هذا الشاب.

شاب في مقتبل عمره، نحيف، لدرجة أنني شككت أنه مهندس كمبيوتر، يرتدي ربطة عنق على قميص أبيض، كأنه فتى البوفيه، لكنه كان يحمل أوراقًا بيضاء، وأقلام رصاص وجاف، جذب المقعد الذي

يواجهني، وحركه إلى الجهة المقابلة من المكتب، وجلس عليه، فصرنا متواجهين، كأنني أمام موظف في إدارة الجوازات، انتظرته أن يقول شيئا، لكنه نظر لي نظرة عادية، وأمسك القلم، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم أمسك قلم رصاص، ورسم خطا طويلا تحت البسملة، فقلت وقد فرغ صبري: هو أنا هنا فين وليه؟

قال بهدوء وصوت لا يمكن أن يصدر عن مهندس كمبيوتر حضرتك في إدارة خاصة بالتحقيقات مع الإرهابيين الدوليين.. بطاقتك معاكِ؟ تراجعت ذعـرا، وتسارعت دقات قلبي، فظل يتأملني دون أن تفلت منه أي اختلاجة في ملامحه، كان وجهه قاسيا وملامحه منبسطة مثل شاشة كمبيوتر، لم أقو على التعقيب، فمد يده نحوي ليطلب البطاقة، ففتحت حقيبتي، وأعطيته بطاقتي التي تحمل اسمي المسلم.. شفق إبراهيم أبو النور، قلبها على ظهرها، ليقرأ: زوجة حمزة أبو نور، دوّن ملحوظة في أوراقه، ثم قال: مين شاندور ومين أيوب لويس مسيحة؟ وأنتو التلاتة كنتوا في المشرحة بتدوروا على مين؟

قلت في حيرة وخوف: مين أيوب لويس مسيحة؟ شاندور ده أستاذ ألماني في جامعة القاهرة.. لكن مين أيوب؟

أطرق الشاب ونظر إلى الأرض، كأنه يشعر بالضيق، فلم أعقب خشية أن يثور، فعاد يقول في صبر: الولد التالت اللي كان معاكِ إنتِ والأجنبي.. مش اسمه أيوب؟

قلت في خوف وقلق: أعرف أن اسمه جوجو.

فعاجلني وهو يدوّن ملحوظة: كنتوا بتعملوا إيه في المشرحة؟ كنتوا بتدوروا على مين؟

قلت في سرعة محاولة إبراء ذمتي: كنا بندور على بنت اسمها دميانة.. بنت قبطية مختفية من قبل الثورة.. حد قالنا إنها ممكن تكون في المشرحة.

نظر لي نظرة متمعنة ثم قال بصوت مسموع: وأستاذ الجامعة الألماني؟

قلت: أنا أعرفه معرفة شخصية.. كنا بنشتغل مع بعض في حاجة ليها علاقة بمنطقة بين السرايات...

قاطعني: زوجة الشيخ حمزة أبو نور.. بتعمل إيه مع أستاذ ألماني بيدرس في جامعة القاهرة؟

شعرت بالعجز، وقلة الحيلة، شعرت أنني محاصرة تماما، لا أعرف من أين أبدأ الحكاية، دفع نحوي بأوراق بيضاء عديدة، والأقلام، قائلا: اكتبي هنا كل شيء.. سأعود بعد ساعتين.. أجدك كتبتِ كل شيء.. إذا لم أجد الحقيقة الكاملة...

ثم بتر عبارته وهو ينظر إليَّ متوعدا، كأنني طفلته التي ملأت جهازه بالفيروسات، غادرني، وبدأت أكتب، كتبت كل شيء، كل ما مرّ عليّ، كتبت أولا حكايات جدي المتعددة عن بقطر الجاولي وزوجته جوليان، والخديو إسماعيل، وشفق هانم، ولقائي بزوجي عزيز، وهروبي منه إلى حمزة وعلاقتي بشاندور، وجوجو الذي ظهر في البدروم ذات ليلة، وزهران وأبو صالح. كتبت كل شيء،

ظننت أنني سأكون بريئة إذا ما قلت الحقيقة، ظننت أن ذلك سيعجل الأمور.

عاد فتى الكمبيوتر، نظر لي وإلى الأوراق الممتلئة بخطي وسطوري المائلة المتعرقة بالقطرات التي أفرزتها مسامي، قرأها في سرعة، ثم نهض فجأة واستل علبة سجائره، وولاعته، وهم بإشعال إحداها، ثم التفت إليَّ قائلا: هل تدخنين؟ فأومأت نفيا، فقال: هل تمانعين أن أدخن؟ فأومأت في حيرة، ثم أومأت نفيا، وأنا أقول: براحتك.

فأشعل سيجارة متلهفا، وعلى وجهه انفعالات الرضا والحبور، وعاد لقراءة الأوراق متمهلا عند كل سطر، وفي كل صفحة، مطيلا التحديق فيما كتبته، قبل أن يلتفت إليَّ قائلا باستخفاف حانق: خديوي إسماعيل.. إيه الكلام الفارغ ده؟

لم أعقب، ظللت أحدق فيه وعقلي يعمل في سرعة، كأنني تحولت لماكينة فقدت من يتحكم في تروسها، ظلت نظراتي معلقة به، وظلت نظراته ساخطة لائمة، كأنه كان ينتظر أكثر من ذلك، هب من مقعده، وهتف: أنا عاوز الحقيقة.. الحقيقة كاملة.. مش هزار.. علاقتك إيه بحمزة؟ خلاكِ تغيري دينك ليه؟ كل حاجة.. ما تنسيش تنتوفة.

أحدق فيه، فتركني وغادر، لا أعرف كم مكثت في الحجرة، لكن الساعات مرت ببطء، فعاودت كتابة القصة، كما كتبتها في المرة الأولى، فقط أضفت أن هذه هي الحقيقة، وأنني لست على علاقة بأي تنظيم، وأن حظي العثر هو الذي أسقطني في قبضته، ظللت أكتب وأكتب، وعاد هو ومعه حقيبة بلاستيكية، بها أطباق طعام مغلفة جيدا، هتفت في حنق: هو أنا هبات هنا الليلة دي؟

أخذ مني الأوراق، وغادر الحجرة، كيف يهبط المساء في الخارج وأنا حبيسة في هذه الحجرة؟ كيف تتواصل حركة الهواء وعصف الريح، وأنا حبيسة في هذه الحجرة؟ كلهم أوغاد، كلهم كاذبون، ذهبنا لنبحث عن جثة فتاة، فقادونا إلى شَرَك، ماذا نفعل؟ أين نذهب؟ ماذا يريدون منا؟ وما هذا القدر؟

ما هي الخطوة القادمة؟ هل هناك تهمة فيما كتبته؟ هل سيلفقون لي تهمة؟ هل زواجي من حمزة تهمة؟ هل تغيير ديني تهمة؟ ماذا سيفعلون بي؟ نظرت إلى الحقيبة البلاستيكية التي تحوي أطباق طعام، وتذكرت شاندور وجوجو، ماذا سيفعلون معهما؟ لا توجد أي إجابة منطقية لهذا المأزق الذي وضعونا فيه.. لماذا قبضوا علينا؟ تحركت تجاه الأطعمة، وأنا أفكر في العقدة التي وضعونا فيها، فتحت الأطباق، لكنني لم أستطع أن أتناول لقمة، شعرت أنني محاصرة، شعرت أن نفسي ترغب أن تبكي، شعرت أنني وحيدة منذ سنوات طويلة، كل هذه الوحدة أكثر مما أتحمل، تراجعت إلى ركن الحجرة، ولم آكل، وحاولت أن أجعل من ملابسي الفضفاضة ملاءة أفترشها، وغطاء يقيني البرد، لكنني فشلت، ومع ذلك غلبني النوم.

١٠

نجلس في المطار أنا وشاندور وجوجو.

تتعلق أبصارنا بشاشة الإعلانات التي تتقافز فيها أسماء الطائرات والمدن المتجهة إليها، ومواعيد الرحلات، جلسنا حول مائدة،

نشرب القهوة، وحده جوجو كان يشرب كانز بيبسي، ظللنا نتبادل النظرات القلقة، ثلاثتنا لا نصدق أننا على وشك مغادرة البلاد، هل هذا هو الحل؟ كلا، لم يكن بوسعنا غيره، في اليوم التالي أطلقوا سراح شاندور، توجه إلى سفارة بلده وظل معتصما بها، وطلب تحقيقا في الموضوع، أثارت السفارة الألمانية الأمر في وزارة الخارجية وتقدمت باستنكار لاحتجاز أحد مواطنيها دون أسباب، ظللت محتجزة أشهرا، سبعة أشهر كاملة مرت عليَّ في هذا المبنى العجيب، الذي يرتع فيه الشاب النحيف، فتى الكمبيوتر، خلال هذه الأشهر أكتب له الحقيقة بأشكال مختلفة، وببدايات جديدة، كأنني أحرك قطع البازل، لا يوجد تفسير منطقي لهذا العبث، دخل عليَّ شخص آخر في نهاية هذه الشهور، لم يُعرفني بنفسه، لكنه كان يبدو والد فتى الكمبيوتر، رجل في الخمسين من عمره، أصلع الرأس، ممشوق القوام، كرياضي متقاعد، جلس أمامي، وكنت نائمة على سرير في مستشفى، بملابسي التي أرتديها منذ أشهر، لم يسمحوا لي سوى بدخول الحمام عدة مرات، لم يجلبوا لي ملابس لأرتديها، لم يسمحوا لي بالاستحمام، حينما قررت أن أتحداهم، وأهمل أطباق الطعام التي يجلبونها كل ليلة، فقدت إدراكي بما حولي، غمامة رمادية أصابتني، في البداية نقلوني إلى مستشفى نظيفة، مجهزة بلمبات خافتة، وملاءات أنظف من ملابسي التي اتسخت، وتحول لونها إلى لون عَرَقي، استيقظت بعد الإغماءة بثلاثة أيام، كنت أعد الأيام بساعة يدي، ثم أدركت التاريخ حينما وصلت المستشفى، كانت هناك نتيجة على الحائط، لماذا يضعون نتيجة على حائط حجرة مستشفى؟ شعرت أنهم يريدون أن يحطموني

نفسيا، ويدفعوني دفعا للجنون، دخل الرجل الخمسيني على الحجرة وجلس على المقعد أمام الفراش، قال في صوت خافت: عجبتني محاولاتك تغيير بدايات الكلام في كل مرة.. شكلك عاوزة تلخبطينا وتتوهينا.

استغربت صوته، وتعجبت من أذني، كيف أسمع هذا الكلام، ولماذا استيقظت من غفوتي، ألم يكن من الأفضل أن أظل نائمة؟ مال نحوي مواصلا الحديث بثقة وثبات: إحنا مش عاوزين منك حاجة يا مدام شفق.. شاندور وطلعته سفارة بلده.. حمزة وطلقك.. حتى عزيز.. للأسف.. ارتكب جريمة ولا كانت في الحسبان.. لكن نصيبه.. إنتِ حرة تماما.

قالها ثم سكت، كأنه ينتظر أن أقول شيئا، لم أقو على القول، أو الحديث، ظللت أراقبه، وأنا أحاول أن أجد علاقة بينه وبين فتى الكمبيوتر، لا يوجد أدنى شبه، واصل الكلام: البنت اللي كان بيدور عليها أيوب.. للأسف.. مالهاش أثر.. هي غالبا.. ماتت في الأحداث.. الله أعلم.. الخلاصة.. قصة البيوت اللي اشترتوها في بين السرايات.. انتهت.. ده كان كلام فارغ أصلا.. إحنا هنرجع الناس لبيوتها.. حمزة في إيدينا.. والقضايا اللي إحنا ماسكينها عليه.. تكفيه.. عاوزك لما تستردي صحتك.. تتفضلي بكل سلام.. أنا عارف إنك بنت ناس.. مش هتعملي شوشرة.. ولّا إيه يا برنسيسة؟

قالها مبتسما.. كانت عيناي ثابتتين على ملامحه، لم أعقب حتى على دعابته الأخيرة، لم أزل أتذكر كل ما قاله بعد هذه

الفترة، كنا نجلس في المطار، ننتظر الطائرة المتجهة إلى بون، جوجو سيشارك في حفل مهرجانات بألمانيا. أنا وشاندور نرافقه لرغبته في أن نحضر هذا الحفل الذي سيحدد مستقبله في دراسة الموسيقى بالخارج. شاندور نجح في أن يدعو أحد أساتذة الموسيقى لحضور الحفل، وتقييم إمكانية قبوله في الدراسة بأحد المعاهد الموسيقية في ألمانيا، مؤقتا سأقيم مع شاندور ولا أعرف ماذا سنفعل بعد ذلك، لكنني كنت فرحة برغبة جوجو في السفر لدراسة الموسيقى في بلد باخ وريتشارد شتراوس، كنا ننظر إلى لوحة إعلانات المطار، ونستمع النداءات المتتالية، تبادلنا نظرات حاولنا فيها أن نهرب من التركيز أو تبادل الكلمات، لكن جوجو قال فجأة: مش هاروح!

التفتنا إليه في ذعر.. فضحك، وأكمل وهو يدق على المائدة بإيقاع المهرجان الراقص: مش هاروح.. مش هاروح.. وفي عزم ما عندي باقول بصوت مجروح.. مش هاروح.

ثم قبض على جواز سفره في حسم.. ونهض مداريا عينيه اللتين التمعتا، كأنه لا يريدنا أن نراها.

شكر واجب

إلى عالم الآثار الألماني: رالف بودينشتاين.. أعانني بتقديم الخرائط الحقيقية التي كشفت موقع عزبة الوقف بالتقريب.

وإلى آخرين.. عملوا معي بجد واجتهاد ليخرج هذا العمل منضبطا، طلبوا مني ألا أذكر أسماءهم.. أشكركم.

وإلى المؤسسة الثقافية السويسرية «بروهيلفتسيا»؛ التي دعمتني بمنحة إقامة أدبية في سويسرا لمدة ثلاثة أشهر، كتبت خلالها الجزء الأكبر من صفحات هذا العمل، شكر خاص للدكتورة هبة شريف رئيسة مكتب «بروهيلفتسيا» في القاهرة، والأستاذة ميسون محفوظ المسئولة في المكتب عن متابعة كل صغيرة وكبيرة بشأن تيسير إقامتي هناك، والأستاذة أسماء عبد الله المسئولة الإعلامية في «بروهيلفتسيا».

شكر واجب للأستاذ خالد صلاح ـ رئيس تحرير جريدة اليوم السابع ـ الذي دعم سفري إلى سويسرا ووافق على تفرغي وابتعادي عن العمل خلال المدة التي قضيتها هناك، في سبيل الانتهاء من مشروعي الأدبي.

وإلى الصحفي أحمد ناجي صاحب ملف «حراس البهجة»؛ الذي نشره في «أخبار الأدب» عن عالم المهرجانات.

وإلى القراءة الواعية والناقدة التي قدمتها لي أسرة دار الشروق؛ فقد أعانتني الملحوظات الجادة لأسرة التحرير في تحرير النص، خاصة المناقشات المثمرة التي دارت حول متن العمل.

المحتويات

العصافير ٩

أحمد خريشة.. ١٣

عزيز بطرس فيني.. ٤٥

الأنبـا ١٠٣

شـاندور.. ١٣٧

جوجو (أيوب لويس مسيحة) ١٩٦

زهـران ٢٥٧

حمزة أبو نور ٣١١

شفق إبراهيم ٣٣٤

شكر واجب.. ٣٧٩

إيقاع

«عزيز لن يصدق هذه الرواية؛ لذا لم أغامر بإفشاء السر، لكن حلمي لم ينقطع باسترداد هذه الأرض، الواقعة في مواجهة الجامعة، التي كانت قديمًا فدادين البرنسيسة فاطمة، بنت إسماعيل، هنا كان أجدادي يمتلكون عزبة الوقف».

عزبة الوقف والمعروفة بـ «بين السرايات» حاليًا، منطقة اختفت من على الخريطة. تسللت إليها العشوائية بعد عصر الملكية، فتغيرت معالمها مع تغير الوضع السياسي وشكل الدعوة الدينية أيضًا في مصر. تتناول الرواية نتاج تلك العشوائية وتأثيرها على المجتمع باختلاف طبقاته الاجتماعية، في ظل واقع سياسي يفرض سطوته ويكلف الإنسان كثيرًا من إنسانيته ثمنًا للبحث عن الحرية. فمن خلال أبطال وشخصيات منسوجة بعناية ومزج عبقري بين الواقعي والتاريخي؛ يصحبنا المؤلف في رحلة أدبية شائقة وممتعة.

وجدي الكومي: روائي وقاص وصحفي مصري، من مواليد عام ١٩٨٠، بدأ الكتابة في عامه الجامعي الأول ١٩٩٧. يعمل صحافيًا بجريدة اليوم السابع القاهرية، وصدرت له ثلاث روايات: «شديد البرودة ليلًا» (٢٠٠٨)، و«الموت يشربها سادة» (٢٠١٠)، و«خنادق العذراوات» (٢٠١٣)، ومجموعة قصصية بعنوان «سبع محاولات للقفز فوق السور» (دار الشروق، ٢٠١٢).

L Shorouk الشروق
9789770933367
إيقاع
L.E45.00

دار الشروق
www.shorouk.com